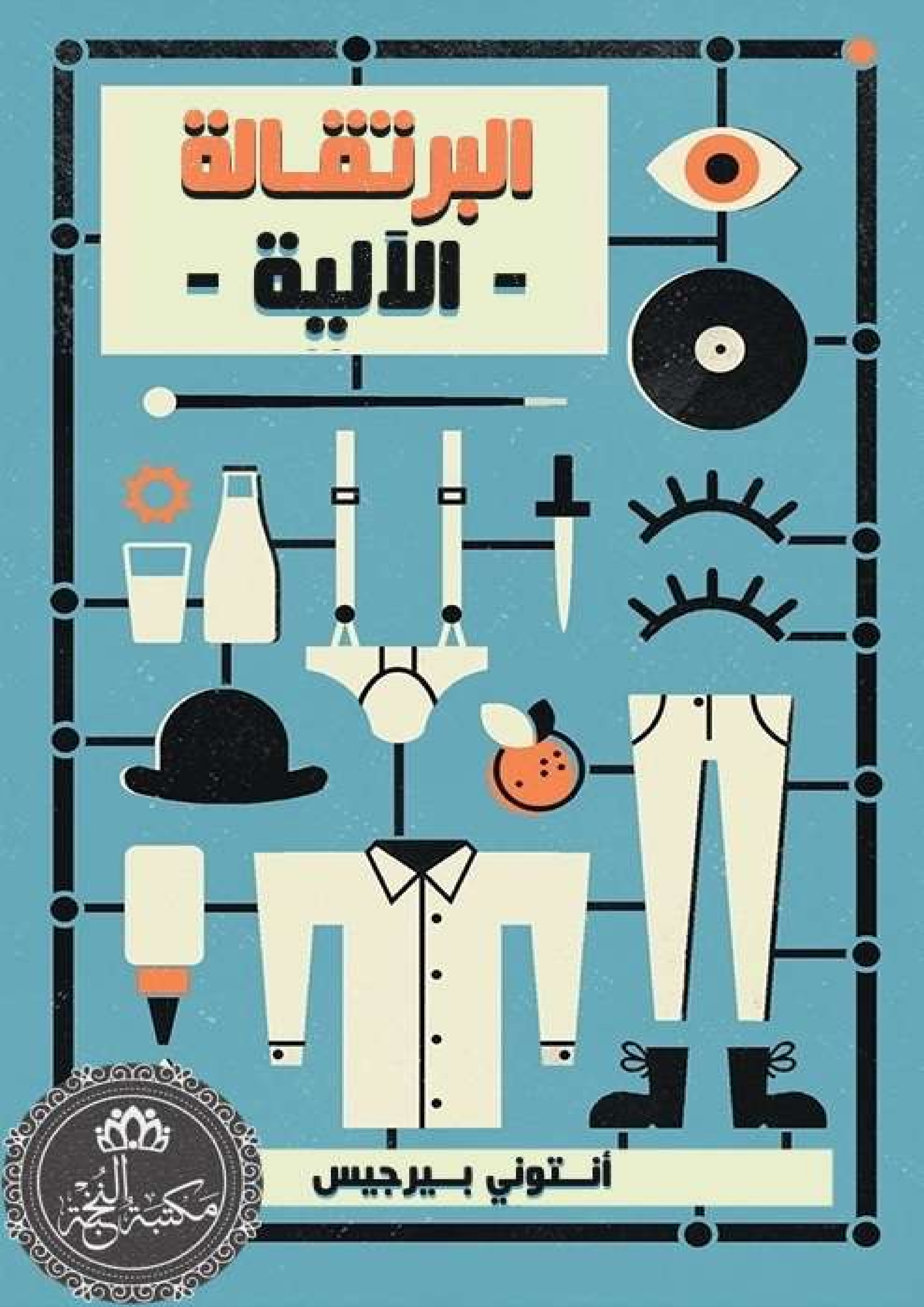


البرتقالة
- الآلية -
أنـــتوني بــيرجيس

مكتبة

Telegram Network

2022

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(البرتقالة الآلية)

ل- « **أنتوني بيرجيس** »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)



البرتقالة الآلية

رواية

أنتوني بيرجيس



ترجمت هذه الرواية كاملة عن النص الأدبي:

CLOCKWORK ORANGE

By: Anthony Burgess

صدرت عن سلسلة روايات الهلال – عدد رقم 477 – سبتمبر 1988

مقدمة:
الابن الشرعي لعصر العنف والتمرد

يسمونه الآلة الكاتبة المتنقلة - يكتب في كل مكان - ويمارس أكثر من نوع من الكتابة. من الرواية إلى القصيدة والسيناريو والمسرحية والتمثيلية التليفزيونية. إنه الآن أنشط وأهم الادباء في إنجلترا..

أعماله تتوالى الواحد تلو الاخر. والنجاحات تتواصل. يسافر كثيرًا هنا وهناك ولا يكف عن الحركة. انه أنتوني بيرجيس. وبالرغم من أنّه لا يعيش جزءًا طويلًا من السنة داخل بلاده، ويتحدث ويكتب بطلاقة ست لغات، فهو انجليزي من رأسه إلى أخمص قدميه. وإذا كانت اللغة الإنجليزية حسب رأيه «صعبة جدًّا في كتابتها» فهي وسيلته الأولى في التعبير خاصة بالنسبة لرواياته التي يعدها أفضل ألوان الكتابة حتى الآن..

ولد أنتوني بيرجيس عام ١٩١٧ في شمال انجلترا بمانشستر في أسرة كاثوليكية. كان أبوه عازفًا على آلة البيانو. أمّا والدته فكانت تعمل في الصالات الموسيقية. وقد ماتت وهو لا يزال طفلًا. وكان من أسباب انغلاق الطفل وجود أم أخرى غير أمّه تتسم بالتعصب الديني الشديد. استطاع أن يتعلم من خلال أبيه الرقص والغناء والعزف على البيانو. التحق بجامعة مانشستر بعد أن ترك المدرسة الكاثوليكية وكان يتمنى في أول الأمر أن يصبح عازفًا الا أنه قرر أن هجر عالم الموسيقي كي يصبح أديبًا. وقد ساعدته موهبته الأدبية أن يقوم بإلقاء المحاضرات والندوات الأدبية في الجيش إبان تجنيده وقد ترك بلاده لأول مرة عام ١٩٤٢ متجهًا إلى جبل طارق ثم أوروبا وهناك اختلط لأول مرة بعالم يختلف عن بلاده، ورأى بشرًا آخرين لا يتكلمون الإنجليزية. وفي عام ١٩٥٤ سافر إلى ماليزيا حيث التحق بإحدى الوظائف التي وفرت له الوقت كي يمارس الكتابة. وقد أصيب عام ١٩٥٩ بمرض اضطره إلى العودة إلى وطنه. وقال الاطباء أنه لن يعيش أكثر من عام، ولذا عزم أنتوني أن يترك لامرأته ثروة فكتب في أقل من عام خمس روايات لكن القدر لم يوافه منيته. وإنما جاء على امرأته. فتزوج من امرأة ايطالية هاجر معها إلى مالطا. ثم ظل يتنقل - فيما بعد - بين البلاد حتى استقر أخيرًا في مونت كارلو واختارها لنفسه كمنفى «يعد المنفي شرطًا أساسيًا للكاتب وأنا سعيد دومًا حين أجد نفسي هناك حيث لا أسمع الكثيرين من الناس يتحدثون بالإنجليزية التي افتقدتها. فبدوت كأنني قد بترت لساني في الوقت الذي أجد أنه لزامًا عليّ أن أكتب بلغة وطني»

والمنفى يشكل بالنسبة للكتابات وحياة الكاتب علاقة خاصة. ففي روايته «حق الرد» نرى المدرس الذي يعمل في مدرسة خاصة ولا يرضى بالأوضاع التي تنتهجها إدارة المدرسة فيقرر أن يهجر البلاد إلى أوروبا.

وقد جلبت روايته «البرتقالة الالية أو برتقالة بقلب الساعة» الشهرة الواسعة خاصة بعد نجاحها كفيلم سينمائي أخرجه ستانلي كيوبريك ١٩٧٢. وقد اتبع فيها أسلوبًا أقرب إلى ما كان

يفعله مواطنه ألدوس هكسلي في رواياته. فهو يدخل فقرات طويلة لها علاقة حميمة بالعمل الأساسي بعدة لغات أخرى خاصة اللغة الروسية، وتنتمي هذه الرواية إلى أدب الخيال السياسي الذي يميل بيرجيس إلى الكتابة فيه، حيث ينقل تجربة اغتصاب حدثت لزوجته من رجال أشرار. فمن المعتاد أن نشاهد صورة الضحايا في الصحف بعد أن يتم ارتكاب الجرائم، ولكننا لم نر أبدًا صورًا تبين لنا الجريمة أثناء وقوعها. ففي الجزء الأول نرى مجموعة أحداث العنف التي يمارسها أليكس وعصابته.

والعنف هو حصيلة أشياء ناتجة عن استعمال الآليات لدخائلنا. فقد تحول عالمنا إلى كتلة من العنف والدماء. حيث نرى في النصف الثاني من الرواية عملية غسيل مخ لأليكس في إحدى المصحات يتحول على أثرها المجرم المتوحش إلى إنسان ذليل خنوع مطيع. إذا ضربه انسان انحنى ليقبل حذاءه وعندما اختبروا قابليته للجنس فقدموا له فتاة عارية ساحرة تقيأ!

وبالرغم أن بيرجيس يؤكد على العنف في رواياته كما سنرى، إلا أنه لا علاج لمجتمعنا المعاصر سوى بالعودة إلى التعاليم التي جاءت في الكتب السماويّة، وهو يكن اعجابًا خاصًا للسيد المسيح عليه السلام فيكتب حوله رواية «رجل الناصرة» ويرى أن حياة المسيح تشكل صدى لمأساة، ودرسًا للتحمل، ومعاناة نفسية للتلاميذ. فلكل انسان كلماته وسماته. وهو يرى أن المسيح رجل مثلنا. ينبثق من محيط كمحيطنا. رجل كانت له معجزاته الصغيرة التي لا تتوقف كثيرًا كإحياء الموتى وشفاء المرضى. ولكن كانت له معجزة كبيرة واحدة هي التي جعلت منه رسولًا، وجعلتنا نؤمن له. وهي أنه استطاع أن يكون منا. وأكبر منا. استطاع أن يكون المسيح الذي نعرفه جميعًا، وقد تحولت هذه الرواية إلى مسلسل تليفزيوني أخرجه فرانكو زيفيريللي عام ١٩٧٧.

ونتيجة لمعيشة أنتوني بيرجيس في مونت كارلو حيث التأثر الواضح بفرنسا وتاريخها، يختار أهم شخصيّة في تاريخ البلاد ليقدمها في روايته «سيمفونية نابوليون» التي نشرها عام ١٩٧٩ ويتناول علاقات نابليون العاطفيّة ومغامراته في البلاد التي غزاها مثل مصر وإيطاليا وروسيا، وهو يتبع القائد الفرنسي إلى هذه البلاد كأنه أب يراقب ابنه في مسيرته. ويحاول تعديل مساره والتعاطف معه والتغاضي عن أخطائه مهما فعل، فنابليون هو ابن الثورة الذي يريد أن ينشئ امبراطورية عظيمة فوق أطلال أوروبا الإقطاعية المهدمة التي عانت الطغاة والجياع. لكن الثورة كانت أول من حطم قائدها وأتت عليه بعد أن حقق لها الكثير، فقد مات نابليون كي يبقى إلى الأبد حلم شعوب أوروبا.

ويقول الناقد جيل أو بوج في مجلة «كانزان» الأدبية - ١٥ أبريل ١٩٧٧ - كي تقرأ هذا الكتاب مثلما كُتب فيجب أن تكون عينك على الكتاب والاخرى تسمع بها السيمفونية الثالثة لبيتهوفن. وأن تدور داخلك الحركة الرابعة في السيمفونية.

وفي عام ١٩٧٨ نشر بيرجيس ثلاثة كتب مرة واحدة. الأول عن إرنست هيمنجواي بعنوان «هذا اللعين هيمنجواي» وفيه يتحدث عن الاحترام الذي يكنّه للأديب الامريكي العظيم ويتحدث عن لقائه به خلال عام ١٩٤٤ إبان الحرب العالمية حينما زار فرنسا. ذلك اللقاء الذي جمعه بمالرو «يا للخسارة أنه لم يكن لهذه المجموعات أية أفكار واضحة وهي تجتمع في باريس».

أما الكتاب الثاني فهو رواية بعنوان «روما تحت المطر» وفيها يتعرض لحياة «رولان

بيرار» أحد كتاب السيناريو الذين يعيشون في أوروبا بعيدًا عن بلادهم. لقد أصبح أرملًا بعد زواج دام ستة وعشرين عامًا. وبعد أن ماتت زوجته يشعر أنه قد استرد حريته التي اغتصبت منه. فيشيع زوجته إلى مثواها الأخير دون أن يشعر بالأسف على ذلك. ويقرر أن يرحل إلى روما كي يستقر فيها وهناك يتعرّف على امرأة تعمل مصورة فوتوغرافية ما تلبث أن تتركه لترحل إلى الشرق الاوسط لتصور أحداث حرب الخامس من يونيه. بينما يبقى بيرار وحده في غرفة المرأة يكتب سيناريو فيلم تموله هوليود وتقوم ببطولته أخته. وفي هذا السيناريو يمزج بيرجيس بين تجربته الخاصّة وأحاسيسه الذاتية وبين أبطاله الذين يصنعهم بنفسه..

اما الرواية الثالثة التي صدرت في نفس العام «١٩٨٥» وفيها يعود إلى أدب الخيال السياسي مرة أخرى وقد قارن النقاد بين هذه الرواية وبين رواية بنفس العنوان للكاتب جورج أورويل. لكن الشخصيات هنا تختلف. فنحن أمام ديكتاتور عصري يدعى بيف ربما هو دورة جديدة من بيفان. وهو يعيش في عصر ملك يدعى شارل الثالث وهنالك مملكة تسمى بمملكة العمال يتزعمها بيف العامل الذي يود أن يستولي على الحكم كي يصنع لنفسه كل القوانين التي تسود المملكة، الفوضى والاغتصابات في شوارعها. ويفقد بيف امرأته بعد أن أصيبت في حريق في إحدى المستشفيات، كان عمال المطافئ في إجازة حين احترقت زوجته. وهذه التجربة تدفع الشاب أن ينضم إلى مجموعة من الشباب المتشردين الذين يعيشون على هامش المجتمع العبثي ويمارسون الاغتصابات والقتل ويسيلون الدماء ويقضون أوقات فراغهم في تعلم اللغة اليونانية ويتزعم بيف هذه العصابة. وهذه الرواية هي أولى روايات الكاتب التي ترجمت منذ أشهر إلى اللغة العربيّة تحت عنوان «المسلمون قادمون»

وفي منتصف عام ١٩٨١ ينشر روايته الثالثة حول العنف الذي يجتاح العالم والذي تنبأ به في رواية «البرتقالة الآلية». وقد أطلق على هذه الرواية «قوى الظلام» التي سميت بـ «كتاب القرن العشرين» حيث يتناول بيرجيس ستين عامًا كاملة من القرن العشرين مؤكدًا على مظاهر العنف داخله. وقد نشرت مجلة الاكسبريس الفرنسية حديثًا طويلًا مع بيرجيس في العدد الصادر في ٢٥ سبتمبر عام ١٩٨١ سنورد منه بعض المقاطع لإلقاء الأضواء على فكر بيرجيس حول العنف والإرهاب الدولي، فهو يقول «حاولت في أول الأمر أن أعطي صورة حول العالم الذي أعرفه.. منذ سنوات ميلادي عام ١٩١٧ وحتّى الآن. أفكر جدّيًا أنّ هذا الكتاب قد بيع جيدًا في الولايات المتحدة لأنه طويل جدًّا. فالأمريكيون لا يحبون أن يشتروا كتابًا يمكنهم قراءته في جلسة واحدة. مثل اعمال فرانسواز ساجان. انهم يشعرون بالغلبة اذا ما اشتروا شيئًا ليس على مزاجهم. ففي مساكنهم تجد دائمًا الكتاب السميك الثقيل الذي تضعه على دولابك ويمكنك أن تحتفظ به كي تقرأه يوميًا، هذا الأمر يضمن نجاح الكتاب بينما أنا لا أعلق أية أهميّة على هذا الموضوع».

ويقول أن هذه الرواية قد استقبلت جيدًا في المملكة المتحدة لكن بشيء من الحذر. لأنه يتصوّر أن القارئ الانجليزي له مفهوم خاص حول العمل. وهذا الأمر يختلف عنه في ايرلندا أو فرنسا أو أي بلد آخر. وعن بطل روايته تومي يقول «إنه شاذ جنسي وكاثوليكي» وهذا الموقف الديني المتشدد داخله يتضارب مع سلوكه الجنسي. فالكنيسة ترفض الشذوذ الجنسي. وعليه فإنه يلزم وجود الهين وقوتين. أحدهما للجنس والآخر للكنيسة. الذي يطلب منه أن يتخلص من كل شروره. فهو أب أسرة كما أنه مجرم، ليست له وظيفة سوى أن يؤلف روايات شعبيّة. ويشعر تومي بالتمزق تجاه هاتين القوتين فيرفض أن يختلط بأعماله مع هذا العالم. يشرك معه البابا كارلو في حل مشكلته: يقول له إنني أحسّ أنني إنسان غير موجود. فأنا لم أصبح شاذًا باختياري وتومي

يؤمن بحرية الاختيار. وعندما نختار فإننا نفضل الأحسن. فيجب أن يظل الشر خارجًا.. يقول له البابا «الانسان حر فيما يفعل لأنه كائن طيب»

يلتقي تومي بالبابا كارلو ثانية عام ١٩١٨ الذي يخبره أن الحرب قد انتهت. لكن الحرب ليست سوى وسيلة للتعبير عن صفات رائعة داخل الانسان. مثل الشجاعة وروح التضحية والاتحاد وحب الزملاء، وتطرح هذا السؤال «هل يجب اختيار الشر مثل ذلك الذي تقع تحت طائلته كي يمكن تحقيق نتائج مرضية» هل يجب أن نتمنى قيام حرب جديدة. وتكون الإجابة البديهية هي الرفض فكارلو يرى أن ضرر الحرب أكثر من خيراتها.

ويقول بيرجيس أن كارلو كومبالاني هو نفسه البابا يوحنا الثامن «هذا الرجل بالنسبة لي هو أكثر الرجال خطورة في القرن العشرين. وبالطبع فقد كانت هناك النية في تنصيبه قديسًا. وعندما كنت أقيم بروما كتبت مقالًا عددت فيه مجموعة من الوقائع ضده وقد اعتبر الفاتيكان أنّ هذه المقالات يجب أن توضع في ملف الشيطان»

وأنتوني بيرجيس يهتم جدًّا باللغة التي يكتب بها. فهو يرى أن اللغة بمثابة موسيقى العمل الروائي بأكمله ويرى أن البناء الروائي هو عماد العمل نفسه. وعالمه ينقسم إلى قسمين هما العالم الطبيعي الذي نعيش فيه، والعالم التحتاني الذي يعيشه كل انسان منا خاصًا بنفسه لا يعرفه الآخرون ولا يجيد أحد التعبير عنه «يجب أن يكون هناك معبر طويل بين العالمين، فنحن نتعلق بعالمنا التحتاني دون أن نعرف أننا مسلوبون النية. فنحن لسنا الذين نبحث عن الله أو الشيطان، عن الخير والشر. نحن متعلقون بهم بصورة أو بأخرى. فربما يكون هذا «تحتاني» وربما هذا أفضل وربما يكون الامر جسيمًا»

والعنف الذي يجتاح العالم الآن وتنبأ به «بيرجيس» في الستينيات هو العنف الأبله الشرير، وهذا العنف مرفوض تمامًا. فإذا كان الكاتب يكره الطمأنينة العقيمة مثل كراهيته للحرب المدمرة، فإن الكاتب يوجه في أعماله المتعددة التي تحلل العنف وظواهره نداء إلى أن تنبض القلوب من جديد. تنبض بالحبّ والإنسانية. وأن يتجه العالم إلى الوحدة والخير والطمأنينة إبان السلام اكثر من وقت الحرب.

القســم الأول

الفصـل الأول

ماذا سيكون، يا ترى؟

أمامكم شخصي الضعيف، راوي هذه القصة: أليكس، ورفاقي الثلاثة: بيتر، وجورجي، وديم... إن ديم هو ما يدل عليه اسمه في لغتنا: الغبي، ولقد جلسنا في مشرب اللبن المعروف باسم (كوروفا) نقدح زناد أفكارنا فيما سنفعله هذه الليلة الحالكة الظلام القارسة البرد في هذا الشتاء اللعين، وإن كانت ممطرة..إن مشرب كوروفا هذا - يا إخواني - كان من المشارب التي يقدم فيها اللبن المخلوط، وربما نسيتم حقيقة هذه المشارب، لسرعة ما تغيرت طبيعتها هذه الأيام، وكثرة ما ينساه الناس، وقلة ما يقرأون من الصحف.. حسن إذن.. كان ما يقدم فيها هو اللبن مضافًا إليه شيء أو اشياء اخرى.. لم يكن مرخصًا لأصحابها بتقديم المشروبات الروحية، لكن لم يكن وقتها ثمّة قانون يمنع إضافة المواد التي اعتادوا أن يضيفوها إلى اللبن العتيد، والتي كانت كفيلة بأن تسلبك الرشد وتطير عقلك في أجواز الفضاء، أو كأنك كنت تشرب لبنًا امتزجت به حدة النار الحامية ووخز السكاكين المشحوذة، كما كنا نقول، والنتيجة هي إلهاب حواسك وإعدادك للإقدام على كل القبائح التي يجترىء عليها المراهقون المنحرفون!.. وذلك هو ما شربناه في ليلتنا هذه التي أبدأ بها سرد قصتي..

كانت جيوبنا عامرة بالنقود، وهكذا لم تكن بنا حاجة ماسة من وجهة نظر توفير المزيد منها إلى مهاجمة أحد المسنين العجائز في إحدى الحواري الجانبية ورؤيته وهو يسبح في دمائه بينما نتقاسم حصيلة الغنيمة بين أربعتنا، ولا إلى الإغارة على واحدة من ذوات الشعر الرمادي الميسورات في محلها والقاء الرعب في قلبها ثم الانصراف بالأسلاب ضاحكين مهللين.. ومع ذلك، فإن النقود - كما يقولون - ليست دائمًا هي كل شيء...

كنا نحن الأربعة نلبس قمة «الموضة»، وكانت في تلك الأيام عبارة عن بنطلون أسود شديد الضيق، وسترة بلا طيات ولكن بأكتاف اصطناعية ضخمة، وربطات عنق بيضاء عليها رسوم بارزة. وكان شعر رؤوسنا مرسلًا إلى حد ما، وأحذيتنا مصممة للركل الأليم...

فماذا سيكون إذن، يا ترى؟..

كان ثمّة ثلاث نسوة جالسات إلى المقصف جنبًا لجنب، لكننا كنا أربعة فتيان نعمل بقاعدة (الواحد للكل أو الكل للواحد). وكانت النسوة الثلاث مرتديات قمة (الموضة) أيضًا، علت رؤوسهن و(باروكات) وردية وبرتقالية وخضراء، لا يقل ثمن كل منها عن ثلاثة أو أربعة أمثال أجر كل منهن الأسبوعي، فيما يصل اليه تقديري، وقد صبغن وجوههن بألوان قوس قزح، وشفاههن بالأحمر القاني...وكانت الفساتين سوداء طويلة مرسلة، وفوق موضع النهود رشقت بطاقات مفضضة صغيرة بأسماء ذكور من أمثال (جو) و(ميك)، والظنون أنها أسماء أصحاب لهن منذ عهد الصبا... وقد راحت النسوة الثلاث يرمقننا بأعينهن حينًا، حتى لقد بدا لي لحظة أن تصحبهن إلى الخارج لشيءٍ من المعابثة، تاركين ديم القبيح وحده، لما عهد فيه من الفظاظة والعنف في استخدام اليدين والقدمين غير أني عدلت عن هذا الخاطر...

وكان المخلوق الجالس إلى جانبي فوق الأريكة الوثيرة الممتدة بطول ثلاثة جدران غائبًا في عالم آخر وهو يهذي بكلام غير مترابط ولا مفهوم.. وكنت خبيرًا بهذه الحال بعد أن جربتها من قبل مثل أي أحد.. ويا لها من حال أيها الإخوة! فإنك تقبع في مكانك.. بعد أن تشرب اللبن الناري العتيق، وإذا أنت تشعر وكأن كل ما يحيط بك هو من الماضي السحيق!.. أنت تبصر كل ما حولك بلا مراء: الموائد، والأضواء، وجهاز (الستيريو)، والغواني، والفتيان، لكن هذه الرؤية تبدو لك وكأنها ليست من عالم الواقع.. وتراك وقد سمرت نظراتك باستهواء مغناطيسي في حذائك أو ظفر اصبعك أو نحو ذلك، وتشعر في نفس الوقت كان قبضة تمسك بقفاك وتهزك هزًا متواصلًا حتى لا يبقى منك شيء، فقد فقدت اسمك، وجسمك، وذاتك، وغدوت لا تحفل بشيء.. ومع ذلك تظل تنتظر وتنتظر إلى أن يصفر لون حذائك أو ظفر أصبعك ويزيد اصفرارًا طول الوقت... ثم تأخذ الأضواء تتشقق وتنشطر انشطار الذرة، وإذا الحذاء أو ظفر الاصبع يكبر، ويتضخم، ويتمدد، حتى يملأ فراغ الكون، وتخال أنك على باب الآخرة، ثم لا تلبث أن ترتد إلى مكانك باكيًا منتحبًا، فليس من الصواب أن تعجل بنهايتك وتفارق دنياك على هذه الصورة!..

فماذا سيكون إذن يا ترى..

كان (الستيريو) دائرًا، ويخيل إليك أن صوت المغني يتحرك من موضع إلى آخر في البار، محلقًا حتى السقف ثم هابطًا مرة أخرى من جدار إلى جدار.. كانت اسطوانة للمغني (برتي لاسكي) ورأيت إحدى النسوة الثلاث الجالسات إلى المقصف تدفع بطنها إلى الخارج ثم تردها إلى الخلف مع صلصلة الموسيقى... وشعرت الآن أن (السكاكين) المخلوطة باللبن بدأت وخزاتها، وإنني الآن على استعداد لبدء المغامرة، وهكذا أخذت أردد مثل كلب ينبح: «إلى الخارج، إلى الخارج، إلى الخارج»!.. وعلى الأثر وكزت الجالس إلى جانبي غائبًا في عالمه وماضيًا في هذيانه وكزة شديدة على أذنه لم يشعر بها ومضى في الهذيان، ولكن ما أن يفيق ويثوب إلى وعيه حتى يشعر بألم الوكزة..

وقال جورجي ردًا على ندائي:

- إلى الخارج، أين؟..

فقلت له:

- آه... فقط لمجرد المشي، وسنرى يا إخواني ماذا يجد أمامنا...

وهكذا تقاطرنا إلى الخارج فرادى في ظلمة الليلة الشتوية، ومشينا فترة في (بوليفار مارجانيتا) وانعطفنا منه إلى (بوثبى أفينيو) وهناك وجدنا ما كنا واثقين من وجوده، أعني دعابة تستفتح بها السهرة... كان أمامنا شخص مسن عليه مسحة ناظر مدرسة محترم يلبس نظارة وقد تأبط بعض الكتب ومظلة وسار فاتحًا فمه في هواء الليل البارد، وبدا أنه قادم من ناحية المكتبة العامة القريبة... وفي تلك الأيام ما كنت تلتقي بكثيرين من طراز أواسط الناس سائرين في الطرقات بعد حلول الظلام، فما بالك مع تناقص أفراد الشرطة وانتشارنا نحن الفتيان الأماثل هنا وهناك!..

وكان هذا الأستاذ النموذجي هو الوحيد الذي يسير في الشارع كله... وهكذا اقتربنا منه، بكل أدب، وقلت له:

- عفوًا يا أخ!...

بدا عليه شيء من الوجل حين أبصر قدومنا، نحن الأربعة، نحوه هكذا هادئين مؤدبين مبتسمين، غير أنه قال بلهجة مدرس عالية النبرات، وكأنما يحاول أن يبين لنا أنه غير وجل ولا هياب:

- نعم؟.. ماذا هناك؟..

فتوليت الرد قائلًا:

- أرى أنك تحمل كتبًا تحت ابطك يا أخ.. هو شيء مبهج حقيقة يا أخي أن يصادف الانسان واحدًا لا يزال يقرأ!

فقال وقد أهتز تمامًا:

- آه!.. أحقًا؟.. آه!.. فهمت...

وراح ينقل نظراته بيننا نحن الأربعة بعد أن ألفى نفسه مطوقًا بمربع بشري يغالي في الابتسام والتأدب..

قلت له:

- نعم... يهمني أعظم الاهتمام يا أخ أن تتكرم وتسمح لي برؤية نوعية هذه الكتب التي تحت إبطك فليس أحب إليّ في هذه الدنيا من رؤية كتاب جيد نظيف...

فقال الرجل:

- نظيف؟.. نظيف؟.. ايه؟!

وعندئذ بعثر بيتر الكتب الثلاثة ووزعها علينا بسرعة، فأخذ كل منا كتابًا يفحصه باستثناء ديم.. وكان الكتاب الذي وقع في يدي بعنوان (مبادئ علم البلوريات) فتحت الكتاب وقلت وأنا أقلب الصفحات:

- بديع!.. نوعية ممتازة فعلًا!.

وفجأة تغيرت لهجتي وقلت بلهجة المصدوم:

- لكن ما هذا الذي أراه هنا؟!.. ما هذه الكلمات القذرة؟!.. إن وجهي يحمر هذه الكلمات... لقد خيبت ظني فيك.. خيبت ظني فعلًا!..

فحاول أن يقول:

- لكن!.. لكن!.. لكن...

وقال جورجي بدوره وكان الكتاب الذي معه بعنوان (معجزة الرقائق الثلجية):

- وهنا!.. هذا ما لابد أن أصفه بأنه قذارة حقيقيّة!.. أرى كلمة تبدأ بحرف فاء وكلمة أخرى

تبدأ بحرف سين!..

وقال ديم الذي انضم إلى بيتر ووقف ينظر من فوق منكبه وقد تمادى كثيرًا كعادته:

- آه... هنا وصف لما فعله معها، وصورة أيضًا!.. ماذا؟.. ما أنت إلا عجوز فاجر ملوث!..

وعدت أنا أقول:

- رجل عجوز مثلك يفعل هذا؟!..

وأخذت أمزق صفحات الكتاب الذي معي وأخذ كل منهم يفعل المثل بالكتب التي في أيديهم...

عندئذٍ راح الأستاذ يصيح قائلًا:

- لكن هذه الكتب ليست لي!.. هي ملك مكتبة البلدية!.. هذا منتهي الاستهتار والهمجية...

وأخذ يحاول انتزاع الكتب منا وهو يقول بلهجة مؤثرة:

- كفوا عن هذا العمل الإجرامي!.. هاتوا الكتب...

فقلت له:

- أنت تستحق أن تلقنه درسًا يا أخ!.. هذا ما تستحقه فعلًا!..

وكان كتاب البلوريات الذي معي مجلدًا تجليدًا سميكًا ويصعب تمزيقه، إذ كان من الكتب النفيسة التي أعدت في الأيام الخوالي حينما كان يُراد لمثلها أن تبقى طويلًا، غير أنني عالجت أن أنتزع الصفحات وألقيها في الهواء مثل رقائق الثلوج، مطوحًا بها على وجه العجوز المحتج الصارخ... وما لبث الرفاق الآخرون أن حذوا حذوي بالكتب التي معهم، فيما راح ديم يتراقص كالبهلوان من حولنا وهو ما كان طبعه... وقال بيتر أخيرًا:

- هاك كتبك، اجمعها وامضغها أيها القارئ القذر لكتب السفالة والانحطاط!..

وقلت أنا:

- أيها العجوز القبيح الوغد...

ثم أحكمنا الحصار حوله وبدأنا نعبث به شخصيًا، فأمسك بيتر بيديه، وتولى جورجي فتح فمه بالقوة على سعته، وعمد ديم إلى انتزاع أسنانه الصناعية علوًا وسفلًا وألقى بها على الأرض، حيث أخذت أدوسها بقدمي لتهشيمها، وإن كانت لعنة الله عليها مصنوعة من مادة بلاستيكية متينة.. فانبعثت من العجوز تأوهت كالفحيح صدرت من حلقه، وعلى الأثر تخلى جورجي عن الفم الفاغر (الأهتم) وإن عاجله بضربة من قبضته المطعمة بالحديد سرعان ما أسالت الدم من اللثتين قانيًا جميلًا يا إخواني.... وبعدها لم يكن أمامنا سوى أن نجرده من ملابسه الخارجية حتى ظهرت سراويله الطويلة التي بدت غالية الثمن، وجعلت ديم ينظر بجشع، وأخيرًا رفسة بيتر في بطنه، ثم أطلقنا سراحه، فأسرع يبتعد مترنحًا، متطارحًا، متأوهًا، وهو لا يدري ماذا دهاه ولا أي طريق يسلك... أما نحن فقد انشغلنا بتفتيش جيوبه، وأخذ ديم يرقص من حولنا مستعينًا بالمظلة،

بيد أن الجيوب لم تكن عامرة بنقود تذكر، وكانت بها عدة رسائل يرجع تاريخ بعضها إلى عام ١، مصدرة بعبارات تقول: (يا أعز أعزائي وأحب أحبابي)، إلى جانب سلسلة مفاتيح وقلم يتسرب حبره.. ولم يلبث ديم أن كف عن الرقص وأخذ يقرأ إحدى الرسائل بصوت مرتفع وكأنما يريد أن يعرف الشارع الخالي أنه يستطيع القراءة: «حبيبتي الغالية - لن أتوقف عن التفكير فيك طوال غيابك، وأرجو أن تتذكري تدفئة نفسك بالملابس الكافية كلما خرجت ليلًا»... ثم قهقه عاليًا لكي يداري عنا جهالته وتخبطه...

وفي النهاية قلت لهم:

- ارموها يا إخواني!

كانت نقودًا زهيدة بالمقارنة بما كان في جيوبنا فعلًا... وهكذا طوحناها في الهواء، ثم حطمنا المظلة ومزقنا الملابس وقذفنا بها في مهب الرياح، وانتهت بذلك مغامرتنا مع الاستاذ العجوز الذي هو فاضل ومبجل!..

وأعترف أننا لم نقم بعمل يذكر، ولكنّها كانت فاتحة متواضعة لمغامرات هذه الليلة، ولم أقصد بسردها عليكم مفاخرة ولا تباهيًا، ولكن تقريرًا للواقع بأمانة!...

ثم كان مفعول اللبن المحمي بوخز السكاكين قد بدأت تخف حدته، وتعين علينا أن نقوم بعمل لائق بعد تخفيف جيوبنا من نقودها الكثيرة بشراء مشروبات نارية أخرى تكون حافزًا قويًا على هذا العمل، مثل اغتصاب محل ونهب محتوياته، ولتكون جولة الشراب الثانية ستارًا يثبت وجودنا بعيدًا عن مسرح الحادث..

هكذا دلفنا إلى حانة دوق نيويورك في (آميس أفينيو)، وفيها وجدنا ما ننشده في أشخاص ثلاثة أو أربع عجائز يشربن الجعة الرخيصة على حساب المعونة الحكومية.. وها نحن الآن أولئك الفتيان الطيبون المهذبون الذين يوزعون بأحلى الابتسام تحية المساء على الحضور بالعدل والقسطاس، ذلك وإن سرى الخوف في قلوب أولئك العجائز المغضنات حتى لقد أخذت أيديهن المعروقة ترتعد بالكؤوس وتريق الشراب على المائدة وحتّى قالت كبراهن:

- نحن لسنا أكثر من عجائز مسكينات!..

بيد أننا بالغنا في الابتسام وجلسنا ودققنا الجرس وانتظرنا قدوم (الجرسون)... وعندما قدم وهو بادي العصبية مدلكًا يديه في مريلته الدهنية، طلبنا لأنفسنا أربعة كؤوس مقواة - وهي مزيج من الروم البراندي والشيري وكانت شائعة في ذلك العهد، ثم قلت للفتى:

- قدم لهؤلاء العجائز المسكينات هناك شيئًا مغذيًا: شراب (سكوتشمان) كبيرًا وشيئًا يأخذونه معهن..

وشفعت هذا بإخراج كل ما معي من نقود ووضعتها فوق المائدة، وفعل زملائي الآخرون مثل ما فعلت، يا إخواني، وهكذا ذهب الروع عن العجائز حتى لم يدرين ماذا يقلن أو يفعلن، ثم فُتح على أحداهن وقالت: «شكرًا أيها الفتيان»... ذلك وإن خامرهن الشك بأن هذا ما هو إلا مقدمة لشيء يراب!..

وعلى أي حال فقد أعطيت كل واحدة منهن زجاجة من كونياك (يانك جنرال) لكي يأخذنها معهن، كما تركت لدى عامل المقصف نقودًا لإعطائهن المشروب في صباح اليوم التالي على أن يتركن لديه عناوينهن.. وأخيرًا اشترينا بما تبقى من نقودنا كل فطائر اللحم والبسكويت المملح وشطائر الجبن والشكولاتة التي كانت موجودة في المشرب، وطلبنا توزيع كل هذا على العجائز وقلنا لهن بعد ذلك: «سنخرج ونعود بعد دقيقة».. فأخذت العجائز يلهجن بالثناء قائلات:

- شكرًا أيها الفتيان!.. بارك الله فيكم!..

وأسرعنا بالخروج دون أن يبقى معنا بنس واحد... وقال بيتر معقبًا:

- هذا يجعلنا نشعر بأننا من أهل الخير والإحسان فعلًا!..

وبدا لنا أن ديم المتبلد الفهم لم يكد يدرك مدلول هذه العملية الخيرية، غير أنه لم يقل شيئًا خوفًا من أن نتهمه بالغباوة..

ومهما يكن فقد انعطفنا على الأثر إلى (أتلي أفنيو) حيث لاح لنا ذلك المحل الخاص ببيع الحلوى والسجائر لايزال مفتوحًا والواقع أننا كنا تركنا هذه المنطقة وشأنها قرابة الثلاثة الأشهر الماضية وظلت تنعم بالهدوء عمومًا ولم تعد دوريات الشرطة المسلحة تتردد عليها كثيرًا، مركزة نشاطها في المناطق الواقعة إلى الشمال من النهر.. والآن فقد أخرجنا أقنعتنا المطاطية ولبسناها، وكانت ملامحها على هيئة شخصيات تاريخية (فقد زودونا بأسمائها عند شرائها) فكان قناعي يمثل دزرائيلي، وقناع بيتر يمثل ألفيس بريسلي، وقناع جورجي يمثل الملك هنري الثامن.. أمّا ديم المنكود فكان من نصيبه قناع الوجه للشاعر شيللي وكانت الأقنعة مصنوعة من مادة بلاستيكية خاصة بحيث يسهل طيها بعد انتهاء الغرض منها واخفاؤها في الأحذية...

عندئذ دخل ثلاثتنا إلى المحل وبقي بيتر في الخارج للرصد، وإن لم يكن ثمّة ما يدعو إلى القلق وما إن اقتحمنا المحل حتى تقدمنا مباشرة نحو صاحبه (سلوس)، وكان رجلًا ضخمًا كالبرميل أدرك في الحال ما سيحدث وأسرع إلى الداخل حيث يوجد التليفون وربما أيضًا مسدسه المعد دائمًا بدوراته الست المهلكة.. غير أن ديم أسرع كالطير بالالتفاف حول (الكاونتر)، مرسلًا علب السجائر كالقذائف ترتطم بإعلان من الورق المقوى المتين لفتاة ناصعة الأسنان مدلاة النهود للدعاية لنوع جديد من السجائر فتتناثر في الهواء.. والذي كانت تقع عليه العين بعد ذلك هو شيء مثل كرة ضخمة تتدحرج في داخل المحل خلف الستار، ولم تكن سوى ديم العتيد وسلوس مشتركين في صراع مميت.. وكنت تسمع لهما فحيح أصوات تلهث وتدمدم من خلف الستار مقترنة بركل الأقدام، ثم سقوط أشياء وتحطم زجاج يتهاوى تهشيمًا.. أمّا (الأم سلوس)، الزوجة، فقد وقفت جامدة مسمرة خلف (الكاونتر)، وأدركنا أنها توشك على الصراخ والاستنجاد إذا تركت لها الفرصة، وهكذا بادرت أنا بالالتفاف حو (الكاونتر) وأمسكت بها وكانت في مثل بدانة زوجها وامتلائه، يفوح عطرها ويبرز نهداها.. ولكني أسرعت بوضع يدي على فمها لمنعها من الصراخ المدوي الذي لو ترك فيه العنان لها لبلغ مشارف السماء.. لكن هذه السيدة المسعورة أنشبت أنيابها في يدي بعضة جعلتني أنا الذي أصرخ مستجيرًا.. ثم شفعت هذا بصيحة رنانة متجاوبة تستنجد بالبوليس.. لا بأس!.. ماذا كان يمكن أن أفعل لحظتها سوى أن أقذفها بإحدى صنج الميزان، مشفوعة بلطمة من قضيب معدني لفتح الصناديق، مما أسال دمها.. وهكذا تغلبنا عليها وطرحناها أرضًا، ثم شققنا ملابسها تفكهًا ومعابثة مع ركلة قدم خفيفة لإسكات تأوهاتها.. ولما رأيتها ممددة

أمامي هكذا لعب الشيطان بعواطفي، ولكنني آثرت أن أرجئ هذا إلى الأحداث التالية في السهرة الحافلة!..

وبعد هذا نظفنا المحل من حصيلته النقدية وكانت وفيرة هذه الليلة، وعززناها بمجموعة لكل منا من أفخر انواع السجائر: ثم انسحبنا يا إخواني على الأثر...

ولكن ديم ما فتئ يكرر قوله ساخطًا:

- كان ابن الملعونة هذا من الوزن الثقيل!..

والواقع أنني لم استرح إلى مشهد ديم بعد المغامرة، فقد بدا متسخًا ومشعثًا، مثل إنسان كان في معركة، وهو ما كانه فعلًا، ولكن يجب ألا يبدو بالطبع هكذا... كانت ربطة عنقه مثنيّة كأنما داستها الأقدام، وكان قناعه منزوعًا ووجهه معفرًا بأتربة الارض... وهكذا أخذناه إلى حارة جانبية وبللنا مناديلنا باللعاب وازلنا اتساخ وجهه... يا لهذه الخدمات التي كنا نقدمها لديم...

وعدنا إلى بار دوق نيويورك مسرعين. وقدرت بنظرة إلى ساعتي أننا لم نغب أكثر من عشر دقائق... كانت العجائز لا زلن جالسات يتناولن المشروبات التي أمرنا بها لهن، وبادرناهن بالسلام والسؤال عن الأحوال، فكان ردهن التقليدي هو: «أنتم أهل كرم أيها الفتيان، بارك الله فيكم!»... وهكذا دققنا الجرس فجاء (جرسون) آخر هذه المرّة وطلبنا منه أكواب بيرة ممزوجة بالروم نظرًا لشدة عطشنا يا إخواني، وكذلك كل ما تطلبه العجائز ثم خاطبتهن قائلًا:

- إننا لم نغب عن هنا، أليس كذلك.. كنا معكم طول الوقت، أليس كذلك؟

فجاء ردهن سريعًا وقلن:

- هذا صحيح أيها الفتيان!.. أنتم لم تغيبوا عن أنظارنا بتاتًا!.. بارك الله فيكم أيها الفتيان!..

ذلك وإن كان هذا التأكيد لا يهمنا كثيرًا..

ثم انقضى نحو نصف ساعة قبلما ظهرت أية اشارة من ناحية رجال الشرطة، ولم يكن القادمون أكثر من شرطيين اثنين في مطلع الشباب دخلا ووجه كل منهما يبدو شديد الحمرة تحت خوذتيهما النحاسيتين.. وقال أحدهما:

- أنتم يا جماعة: هل سمعتم أي شيء عن الحوادث التي وقعت في محل سلوس هذه الليلة..

فقلت ببراءة:

- نحن؟!.. عجبًا... وماذا حدث؟..

فرد الشرطي الفتى قائلًا:

- حادث سرقة وعنف... وحالتان نقلتا إلى المستشفى أين كنتم مع مجموعتكم هذه الليلة؟..

فأجبت قائلًا:

- أنا لا أقبل هذه اللهجة الشاذة المنكرة!.. ولا أهتم كثيرًا بهذه التلميحات الكريهة!.. كلامكم يدل

على إسراف في سوء الظن...

وهنا بادرت العجائز برفع عقيرتهن صائحات:

- إنهم كانوا معنا طول الليلة يا فتيان!.. بارك الله فيهم!.. لم نر في الشباب خيرًا منهم في الطيبة والكرم!.. كانوا معنا فعلًا طول الوقت.. ولم نر أحدًا منهم تحرك شبرًا واحدًا!..

فقال الشرطي الاخر:

- كنا نستفهم فقط.. علينا واجب نقوم به مثل أي إنسان آخر...

غير أنهما صوبا إلينا نظرات تحذيرية قبيحة قبل انصرافهما.. ومع ذلك شيعناهما بموسيقى الشفاه وهما خارجان!..

أمّا أنا فلم أتمالك من الشعور بشيء من الإحباط لسير الامور في هذه الأيام.. فلم يجد شيء يمكن أن نستميت من أجله.. ومع ذلك فقد كانت الليلة لاتزال ممتدة أمامنا..

الفصـل الثـاني

عندما خرجنا من بار دوق نيويورك وقع نظرنا على شخص مخمور وقف لدى الحائط في مجال الضوء المنبعث من نافذة المشرب الكبيرة وهو في حالة يرثى لها من السكر ورفع العقيرة بالغناء الصاخب المشوب بالسباب والتجشؤ المقذي كان ثمّة شيء واحد لا أطيق احتماله: وهو أن أبصر رجلًا متقدمًا في السن يتمرغ في السكر والقذارة، خصوصًا إذا كان مظهره يدل على منزلة اجتماعية متوسطة مثل هذا الرجل.. فقد كان ملتصقًا بالحائط وملابسه في شر حال من التشعث والبقع والتلطخ بالأقذار والوحل.. وهكذا أمسكنا بتلابيبه واتحفناه بمجموعة طيبة من اللكمات واللطمات، ولكنّه مضى في غناءه مرددًا هذه الكلمات:

وسوف أعود إلى حبيبتي يا محبوبتي

إذا حبيبتي هجرتني يومًا من الايام

غير أنه عندما لطمه ديم مرات على فمه المخمور كف عن الغناء وانقلب إلى الصياح قائلًا:

- استمروا... أضربوني يا أولاد الزنا يا جبناء!.. لا أريد أن أعيش بأي حال ليس في هذه الدنيا العفنة...

وعندئذ طلبت من ديم أن يكف عن لطماته، إذ كان يثير طرافتي أحيانًا أن أستمع إلى ما يقوله بعض هؤلاء السادة المعوجين عن الحياة وعن الدنيا.. وقلت له:

- وما هو وجه العيب في هذه الدنيا؟

فهتف قائلًا:

- هي دنيا عفنة لأنها تسمح للأصغر سنًا بالتطاول على الأكبر سنًا كما فعلتم، ولم يعد هناك قانون ولا نظام ولا شيء من هذا القبيل!..

وكان التجشؤ المتواصل يقطع عليه الاسترسال على هذا النحو.. ثم فجأة علا صياحه قائلًا وهو يلوح بذراعيه:

- ... لم تبق الدنيا هي الدنيا لمن هو مسن، ومعنى هذا أنني لا أخافكم قدر قلامة ظفر أيها الأولاد المناكيد، لأنني بلغت من السكر حدًا لا أشعر معه بالألم اذا ضربتموني، واذا قتلتموني!.. سأكون مسرورًا إذا جاء موتي على أيديكم!..

لقد تبادلنا الابتسام والغمز، وما لبث أن استرسل في صياحه قائلًا:

- ... ثم أية دنيا هي هذه الدنيا؟!.. رجال فيها يصعدون إلى القمر، ورجال يدورون حول الأرض وكأنهم ذباب ضئيل حول مصباح، وليس هناك اهتمام بالقوانين التي تحكم الأرض وتقر النظام!.. والنتيجة أن لكم أن تفعلوا اسوأ ما عندكم، يا قطاع الطرق الجبناء الأوساخ...

وبعدها أسمعنا موسيقى الشفتين كما فعلنا نحن للشرطيين الفتيين في المشرب ومرة أخرى أنشأ يتغنى بهذا الكلام:

يا وطني العزيز المحبوب قد حاربت من اجلك

ومهـــــدت لك طريق الســــلام والنصـــر

وفي النهاية أشبعناه ضربًا ووجوهنا طافحة بالابتسام، بيد أنه لم ينقطع عن الغناء... فأعطيناه (مقصًا) حتى هوى على الأرض منبطحًا يتدفق من فيه سيل من الجعة حتى أثار تقززنا، فعاجلناه برفسة قدم من كل واحد منا، وبعدها لم يخرج من فمه القذر غناء ولا قيء، بل دم نازف.. ثم تابعنا طريقنا غير عابئين بشيء..

وعلى مسافة قليلة من محطة المولد الكهربائي كان التقاؤنا بالفتي بيليبوي وأفراد عصابته الخمسة.. ففي تلك الأيام، يا إخواني، كانت الزمرة تتألّف على الأكثر من أربعة أو خمسة أفراد، وهي تماثل في هذا جماعات استيقاف السيارات العابرة للركوب، التي تبلغ أربعة أفراد في المعتاد للجماعة الواحدة، وكان عدد ستة أفراد هو الحد الأقصى... وأحيانًا كانت العصابات تتألّف هذا العدد الأقصى إذا أريد أن تخرج في حروبها الليلية، وان كانت تفضل أن يكون التجوال الليلي بأعداد صغيرة..

وفي الحق أن بيليبوي هذا كان بطبيعته يصيبني بالغثيان كلما أبصرت وجهه السمين المنفرج الفم، وشممت رائحته الزنخة التي تشبه رائحة زيت القلي المغلي مرات ومرّات، حتى وان كان مرتديًا أحسن ملابسه كما كان الآن.. وهم قد شاهدونا كما شاهدناهم في نفس الوقت، وبدا كأن كل فريق يراقب الآخر بهدوء مؤقت.. فإنها في الحقيقة لن تكون معركة بالأيدي والأرجل، بل بالمطاوي والأسلحة البيضاء الأخرى، مثل (قرن الغزال) الذي أحمله على الدوام..

وقد توقف بيليبوي ورفاقه عما كانوا بسبيله، وهو التمهيد لشيء مع صبية باكية بين أيديهم لا يتجاوز سنها عشر سنوات، وكانت تصرخ وتستغيث، ولكن كانت لا تزال بملابسها وقد أمسك بيليبوي بإحدى يديها وأمسك مساعده الأول ليو بيدها الثانية.. ولما رأونا قادمين تركوا هذه الصبية الصغيرة لعلمهم أنه يوجد الكثير غيرها في المنطقة السكنية القريبة، فركضت الصبية مبتعدة وساقاها النحيلتان البيضاوان تبرقان في الظلام مرددة تأوهاتها...

وعندئذٍ قلت وأنا ابتسم ابتسامة عريضة مترددة:

- أهذا بيليبوي النتن؟!.. كيف حالك أيها البرميل المنتفخ بزيت القلي الرخيص الزنخ؟.. تقدم وخذ لك ضربة في سوأتك أيها المخنث!

وعلى الأثر بدأنا المعركة...

كنا أربعة وهم ستة كما نوهت من قبل.. غير أن ديم العتيد كان رغم كل غباوته ندًا لثلاثة منهم في الاندفاع المجنون والقتال الوحشي فقد كان يحمل سلسلة طويلة سميكة ملتفة حول وسطه بقدر لفتين، وقد سارع يطوحها في عيون الآخرين... وكان بيت وجورجي مزودين بمطواتين كبيرتين حادتين.. أمّا أنا فكنت مسلحًا (بقرن غزال) وهي مطواة مقوسة مرهفة باترة، كنت ألوح بها بطريقة فنية تجعل لها بريقًا خاطفًا يزيغ الأبصار...

هكذا رحنا نتبادل الضرب والطعن في الظلام وقد بدأ القمر بما عليه من رجال يبزغ إذ ذلك، والنجوم تلمع كما لو كانت نصالًا تريد الاشتراك في المعمعة.. وقد استطعت بمطواتي أن أشق ملابس أحد رفاق بيليبوي شقًا طوليًا بديعًا دون أن الأمس بدنه تحت الملابس... وفي الكر والفر ألفى هذا الفتى نفسه عاري البطن والسوأة مثل حبة بازلاء انشق عنها غلافها، وفي غمرة ارتباكه وصراخه التفت حول عينيه سلسلة ديم الأفعوانية فزادته تخبطًا وصراخًا وسرعان ما جعلنا مساعد بيليبوي رقم واحد منطرحًا على الأرض تحت الأقدام وقد أعمت بصره سلسلة ديم الذريعة وجعلته يزحف على الأرض عاريًا مثل حيوان طريد، وبعد رفسة واحدة على رأسه غاب عن الوجود...

ومن أربعتنا خرج ديم من المعركة كالعادة وهو أسوأنا مشهدًا، أعني أن وجهه قد تخضب بالدم وملابسه اتسخت وتشعثت بصورة بالغة، أمّا باقي زمرتنا فقد ظلت متمالكة الجأش لم يمسها سوء لكن كان هدفي الآن هو بيليبوي السمين العفن، وهكذا رحت أدور حوله بمطواتي الفتاكة متراقصًا مراوغًا حتى لكأني حلاق على ظهر سفينة في بحر متلاطم، محاولًا أن أنال منه بقطوع نافذة على وجهه الذهني المليء.. كان بيليبوي مسلحًا أيضًا بمطواة طويلة، بيد أن بطء حركاته وثقل وزنه حالا دون أن ينال مني شيئًا، وهكذا كانت بهجتي لا حد لها عندما شققت خديه واحدًا تلو الآخر بحركات خاطفة أسالت دمه على الجانبين، وان بدا أنه لم يشعر بشيء ومضى في هجومه نحوي بحركات دب ثقيل...

في هذه اللحظات سمعنا (سرينة) سيارة الشرطة تلعلع في السكون، وشاهدنا رءوس أفراد القوة تطل من النوافذ وهم على تمام الأهبة.. ولا شك أن تلك الصبية الباكية قد استنجدت بهم عن طريق التليفون العمومي القائم خلف محطة توليد الكهرباء وهنا قلت لغريمي:

- سوف أنالك قريبًا يا بيليبوي النتن، وعندها سأستأصل سوأتك!..

وسرعان ما أخذوا يركضون هاربين، إلا مساعد بيليبوي رقم واحد وهو ليو الذي كان ممددًا على الأرض غائبًا عن الوعي: متجهين شمالًا شطر النهر... أما نحن فقد سلكنا الجهة العكسية وبالالتفاف حول الناصية وجدنا حارة مظلمة وخالية ومفتوحة من الناحيتين، فتوقفنا فيها لكي نستريح ونحن نلهث إلى أن تمالكنا والتقطنا أنفاسنا...

كانت هذه المنطقة محطة استقبال البث التليفزيوني بالقمر الصناعي كما بدا من الأضواء الزرقاء التي كانت تبرق فيما بين مباني المحطة الأرضية، ومعنى هذا يا إخواني انهم كانوا يبثون هذه الليلة نفس البرنامج العالمي إمّا لمغني زنجي أو شخصيّة كوميدية مشهورة لكي يستمتع بالإرسال كل من تحلو له المشاهدة من أبناء الطبقات القادرة يا إخواني، ولله في خلقه شئون... ومهما يكن فقد توقفنا ها هنا نلهث، وانتظرنا إلى أن سمعنا أصوات (السرينة) البوليسية تتجه شرقًا، فعلمنا أننا بخير الآن... ولكن ديم المنكود ما برح يتطلع إلى القمر والنجوم والكواكب فاغر الفم مثل طفل لم يتهيأ له أن يشهد شيئًا كهذا من قبل، حتى لقد قال:

- ترى ماذا في تلك الأجرام السماويّة في الأعالي؟!..

فوكزته بشدة قائلًا:

- هيا بنا يا أغبى الأغبياء، ولا تشغل بالك بهذا... لابد أن فيها حياة مثل حياتنا على الأرض،

وكائنات تتقاتل بالمطاوي مثلنا أيضًا!.. أمّا الآن وما زال الليل ممتدًا أمامنا، فلنواصل طريقنا أيها الأخوان!..

ابتسم الرفاق لهذا الكلام، بيد أن ديم نظر إليّ بجد، ثم عاد يتطلع إلى النجوم والقمر... ومهما يكن فقد اتجهنا إلى نهاية الحارة وضوء البث العالي الأزرق يتراءى عن الجانبين... إن ماكنا نحتاجه الآن هو سيارة، وهكذا انعطفنا يسارًا بعد اجتياز الحارة، حيث عرفنا في الحال أننا في ميدان بريستلي بعد أن وقعت انظارنا على التمثال البرونزي الضخم لذلك الشاعر الذي رفع شفته العليا كقرد وانغرس غليون في فمه العتيق... وبعد مسيرة قليلة شمالًا وصلنا إلى موقع السينما المكشوفة الضخمة التي بدأت تتقادم وتتآكل لقلة من يرتادونها سوى أمثالي ورفاقي في بعض المناوشات أو المطارحات الغرامية في الظلام... وشاهدنا على اللوحة الاعلانية القائمة أمام الواجهة والملوثة بالبقع إعلانات عن أفلام رعاة البقر المعتادة التي ينتصر فيها أفراد الأمن الأمريكيون على رجال العصابات إلى آخر هذا الكلام الفارغ... وكانت السيارات المرابطة في الموقف ليست كلها جديدة، ولكن كانت بينها سيارة من طراز (دورانجو ٩٥) أكثر جدة وبدا لي إنها أكثر ملاءمة لنا وكان مع جورجي مجموعة مفاتيح للطوارئ، وهكذا دلفنا إلى داخل السيارة دون عناء، فجلس ديم وبيتر في المقعد الخلفي وهما ينفثان دخان السجائر الفاخرة بعظمة، بينما توليت أنا ادارة المحرك، وخرجت بها من الموقف وانطلقنا دون أن يفطن إلينا احد...

وقد أخذنا نتسكع فيما يعرف بأطراف المدينة بعض الوقت، ملقين الفزع في قلوب كبار السن من الجنسين وهم يعبرون الطريق ومطاردين القطط ونحو ذلك... ثم اتجهنا إلى الجانب الغربي حيث تخف حركة المرور واطلقت العنان للسيارة التي ذهبت تنهب الطريق نهبًا... وبعد فترة لم تطل لاحت لنا أشجار الشتاء والظلام، وريف مظلم داست السيارة في جانب منه كائنًا كشر عن أنيابه وعلا صراخه في ضوء مصابيح السيارة الأماميّة مما جعل ديم يضحك مقهقها في مقعد السيارة الخلفي... وبعدها لمحنا فتى مع فتاته يتطارحان الهوى في ظل شجرة، فتوقفنا برهة نهلل لهما، ثم استأنفنا مسيرتنا فجأة على قيد شعرات منهما حتى علا صراخهما، وعلى الأثر تابعنا طريقنا!..

كان ما نهدف إليه الآن هو القيام بزيارة مباغتة... فهذه هي المغامرة الكبرى التي نطلق عليها وصف (قمة العنف)... وقد وصلنا أخيرًا إلى ما بدا أنه قرية وعند أطرافها فيللا صغيرة تقوم أمامها حديقة أصغر... كان القمر قد ارتقى الآن كبد السماء حتى تهيأ لنا أن نبصر الفيللا بوضوح وأن أوقف السيارة على بعد كاف منها ورفاقي يتضاحكون من الترقب والتشوف... فنزلت من السيارة آمرًا رفاقي بالكف عن الضحك والتزام الجد، ثم فتحت بوابة الحديقة الصغيرة وتقدمت إلى الباب الأمامي وبرفق وتلطف طرقت الباب، فلم يجب أحد... فكررت الطرق، وفي هذه المرّة سمعت صوت أحد قادم أعقبه إزاحة مزلاج ثم فتح الباب قدر بوصة أو نحوها، وسمعت صوتًا نسائيًا في مقتبل العمر يقول:

- نعم؟.. من هنا..

فقلت بلهجة مهذبة رقيقة:

- معذرة يا سيدتي... آسف كل الأسف للإزعاج، لكنني كنت مع صاحب لي نتمشى، ولكن صاحبي أصيب بنوبة مفاجئة وهو الآن ممدد في الطريق يتلوى من الالم معرضًا للموت... فهلا

تكرمت وسمحت باستعمال التليفون لطلب سيارة إسعاف!..

فقالت السيدة:

- ليس عندنا تليفون بكل أسف لابد لك أن تطرق مكانًا آخر...

ومن داخل الفيلا سرى إلى سمعي صوت آلة كاتبة تدق دقاتها المعهودة، ثم توقف الدق وسمعت صوت رجل يقول:

- من القادم يا عزيزتي؟..

وعندئذ قلت للسيدة:

- هل تسمح انسانيتك بكوب ماء لصاحبي.. إنه في حالة إغماء من تأثير النوبة!..

بدا كأن السيدة في حالة تردد، وما لبثت أن قالت:

- انتظر...

ثم غابت، فيما هبط رفاقي الثلاثة من السيارة لائذين بالصمت والسكون واقتربوا خفاف الوطء، وهم يلبسون أقنعتهم، فلبست قناعي بالمثل، ومددت يدي المدربة لرفع السلسلة التي كانت تشد الباب، اذ كانت لهجتي المهذبة الرفيقة قد خدعت السيدة فلم تغلق الباب وهو ما كان يجب أن تفعله إزاء طارقي الليل الأغراب... وفي لحظات خاطفة اقتحمنا الباب دفعة واحدة وديم كعادته يتراقص ويتواثب متفوهًا بألفاظه النابية.. واتجهنا مباشرة إلى الغرفة المضاءة، حيث وقفت تلك المرأة في شبه جزع، وكانت مليحة في سن الشباب بارزة النهدين، ومعها ذلك الرجل الذي بدا أنه زوجها، وكان في مثل سنها وقد لبس نظارة ذات إطار عظمي، وفوق منضدة عن كثب آلة كاتبة وأوراق مكتوبة فرغ من كتابتها توًا فيما يظهر... فهذا إذن شخص آخر متنور من أرباب الكتب مثل ذلك الشخص الذي تلاعبنا به منذ ساعات، لكن صاحبنا الحالي كاتب لا قارئ!، ومهما يكن فإنه قال:

- ما هذا؟!.. من تكونون؟! كيف تجرأتم على دخول بيتي بغير استئذان؟!

وفي كلامه هذا كان راعش الصوت مرتعد اليدين وهكذا قلت له:

- لا تخف أبدًا!.. إذا كان في قلبك أي خوف يا أخي، فابعده عن خاطرك!..

وخرج بيتر وجورجي للبحث عن المطبخ، بينما توقف ديم انتظارًا للأوامر وقد وقف إلى جانبي منفرج الفم...

ثم تناولت بعض الأوراق المكتوبة وقلت للرجل:

- ما هذا إذن؟..

فقال الرجل ذو النظارة محتدمًا:

- هذا هو ما أريد أن أعرفه... ما هذا، وماذا تريدون.. أخرجوا حالًا قبل أن ألقي بكم إلى

الخارج!.

وما إن سمع ديم هذا الكلام وهو بقناع الشاعر شيللي حتى ضج بالضحك والقهقهة عاليًا فكان مثل حيوان صاخب... وقلت الرجل:

- هذا كتاب أرى أنك تكتبه... إنني كنت دائمًا أكن الإعجاب الشديد لأولئك الذين يقدرون على تأليف الكتب!..

ثم نظرت إلى الصفحة العلوية، وقرأت فيها عنوان الكتاب هكذا: «برتقالة بقلب ساعة»... وقلت هذا عنوان جميل... من سمع في حياته عن برتقالة بهذا الوصف؟!.. ثم أخذت اقرأ عبارات من الكتاب بصوت مسموع وبلهجة خطابية «... إن محاولة أن يفرض على الانسان - ذلك المخلوق المتنامي القادر على الإجداء والابداع - قوانين وأحوال لا تلائم سوى الكائن الآلي، بقصد أن تتقاطر منه العصارة الحلوة - أقول إنني في مواجهة هذه المحاولة أشهر قلبي سيفًا مشرعًا»...

... فما كان من ديم وهو يسمع هذا الا أن أرسل من شفته موسيقاه المعتادة، ولم يكن أمامي إلا أن ابتسم... وقد سرعت بتمزيق الأوراق وبعثرة القصاصات على الأرض، فجن جنون الرجل، وهجم نحوي وهو يشد على أسنانه ويلوح بأظافره كالمخالب وهكذا جاء دور ديم الذي كان هجوم الرجل بمثابة اشارة له، فانقض عليه يعاجله بلكمات متلاحقة على وجهه يمينًا ويسارًا حتى تغطى بالدم الأحمر القاني، يا إخواني، وأخذ يتساقط على الأرض ملونًا السجادة النظيفة وقصاصات الأوراق التي كنت لا أزال أعمل فيها تمزيقًا.. وخلال هذا كله كانت الزوجة المحبة الوفية واقفة كتمثال بجانب المدفأة، ثم بدأت الصراخ وكأنما أرادت أن تتزامن موسيقي صراخها مع عملية ديم وبعد برهة عاد بيتر وجورجي من المطبخ وهما يقضمان ويمضغان وقد حمل بيتر في يديه رغيفًا محشوًا وزجاجة بيرة نزع غطاؤها توًا والزبد يفور منها، وحمل جورجي شطائر وبعض الكعك والحلوى، وكان شاهدًا المعمعة الدائرة حتى انبعثت قهقهتهما عاليًا وأخذ فتات مضغهما يتناثر على الأرض... والواقع أنني لم أستطب هذا وبدا في نظري مجافيًا للأصول، وهكذا قلت لهما:

- كفا عن الأكل!.. لم أعط إذنًا بهذا!.. امسكا بهذا المخلوق حتى يمكنه أن يرى كل شيء ولا يهرب!..

فوضعا غنيمتهما على المنضدة بين الأوراق المتناثرة ثم اتجها نحو الكاتب الذي تحطمت نظارته ولكن كانت لا تزال مدلاة من وجهه بينما كان ديم العتيد ما فتئ يتراقص بحركاته البهلوانية مما جعل الزخارف التي كانت فرق رف المدفأة تهتز وتتأرجح (فطوحتها جميعًا بحركة واحدة يا إخواني حتى يبطل الاهتزاز والتأرجح!) وإن كان لم يكف عن كيل لطماته على وجه المؤلف مما جعله محتقنًا ونازفًا بالدم مثل عصارة فاكهة منتفخة وعندئذٍ قلت له:

- كفي يا ديم... الآن لنبدأ المهمة الثانية، بعون الشيطان!.

وهكذا اتجه إلى المرأة التي كانت ماضية في الصراخ، فأمسك يديها من الخلف، بينما شققت ملابسها فيما كان الباقون يهللون طربًا...

ومهما يكن من شناعتنا فإنني أعفي القارئ من تفصيلات ما حدث بعد ذلك...

وفي النهاية جعلنا نحطم ما يمكن تحطيمه وتهشيمه من الآلة الكاتبة إلى المصباح، إلى المقاعد، وبال ديم على نار المدفأة حتى أطفأها، بل هم أن يتبرز على السجادة، لولا أنني صرخت فيهم قائلًا:

- إلى الخارج!.. إلى الخارج!..

وفي هذه الأثناء كان المؤلف وزوجته شبه غائبين عن الوعي وهما يتوجعان، لكنهما سوف يبقيان على قيد الحياة ما في ذلك شك...

وأخيرًا عدنا إلى السيارة وتركت لجورجي عملية القيادة بعد شعوري بشيء من الإرهاق، ورجعنا إلى المدينة دائسين على كافة الكائنات الصغيرة الصارخة التي كانت في طريقنا...

الفصـل الثـالث

عدنا يا إخواني بالسيارة في اتجاه المدينة، ولكن عند مشارفها فقط، فيما يسمّونه منطقة القناة الصناعية، عندما رأينا مؤشر البنزين يشير إلى التناقص، كما تناقصت حرارة نشاطنا، وبدأت السيارة (تسعل)... لكن هذا لم يكن يدعو إلى القلق، بعد أن شاهدنا أنوار محطة سكة حديدية قريبة.. غير أن المشكلة هي فيما إذا كنا نترك السيارة حتى يعثر عليها رجال الشرطة، أو ندفع بها إلى مياه النهر للتخلص منها... ثم استقر رأينا على هذا الحل، وهكذا ترجلنا منها نحن الأربعة تاركين (الفرامل) مرسلة، واشتركنا في دفعها إلى حافة المياه حيث انزلقت وتوارت على الأثر بعد أن شيعها جورجي بكلمة وداع وأطلق ديم قهقهته الصاخبة البهلوانية... وبعد هذا قصدنا إلى المحطة لركوب القطار إلى وسط المدينة في سفرة قصيرة دون توقف.. وقد اشترينا التذاكر بأدب ووقفنا على الرصيف بهدوء، وإن ذهب ديم إلى أحد أكشاك الحلوى الآلية بما معه من نقود نثرية كثيرة للحصول على قطع من (الشكولاتة) ومستعدًا لتوزيعها على الفقراء والجوعى إذا لزم الأمر، وإن لم يكن أحد منهم عن كثب، إلى أن جاء القطار هادرًا فصعدنا إليه في الحال..

وبدا القطار شبه خال من الركاب ولتمضية فترة الثلاث دقائق التي تستغرقها الرحلة القصيرة فقد رحنا نعبث بالمقاعد الجلدية تمزيقًا ونزعًا لأحشائها، وأخذ ديم يطوح بسلسلته المعدنية حتى تشقق زجاج النوافذ وبدأ يتلألأ في هواء الشتاء، ومع ذلك كنا شاعرين بإنهاك يا إخواني لما أنفقنا من الطاقة، باستثناء ديم الذي كان بسبب طبيعته الحيوانية مليئًا بالابتهاج والحيوية، وإن بدا متسخًا عارقًا، وهو ما كنت آخذه على ديم...

وهبطنا من القطار في قلب المدينة وسرنا الهوينى عائدين إلى بار اللبن كوررفا فلمّا دخلنا اليه وجدناه أكثر امتلاء عما وجدناه عندما انصرفنا منه قبل ذلك... وكان المخلوق الذي صادفناه من قبل في الباب غائبًا في عالمه الأخير لا يزال موجودًا ومستمرًا في هذيانه؛ والغالب أنه كان في المرحلة الثالثة أو الرابعة من سكوته، إذ لاحت عليه تلك المسحة الشاحبة الإنسانية وبدا فمه مثل قطعة طباشير مشقوقة والحقيقة أنه لو أراد أن يبقى مثل هذا الوقت في دنياه تلك، لكان الأحرى به أن يجلس في إحدى المقاصير الخاصّة الخلفيّة، لا أن يبقى في الصالة العامة، تفاديًا لتحرش أحدهم به وإن كان ذلك من النادر لوجود بعض المأجورين الأشداء مختبئين في أقصى البار لكي يبادروا بوقف أعمال الشغب... ومهما يكن فان ديم انحشر بجانب هذا الشخص الغائب عن دنياه وداس بقوّة على قدمه بحذائه الغليظ، ولكن هذا الشخص يا إخواني لم يحرك ساكنًا!.

كان أغلب رواد المشرب من المراهقين الذين يُطلق عليهم اسم (نادسات)، يشربون اللبن والكوكا ويتعابثون، ولكن كان هناك أيضًا عدد قليل من الرواد الأكبر سنًا ومقامًا من الجنسين يتبادلون الضحك والحديث لدى المقصف... وكان بإمكانك أن تقدر من طريقة قص شعرهم وملابسهم أنهم كانوا يقومون ببروفات في استديوهات التليفزيون القريبة... وكان للنساء بينهم تلك الوجوه المليئة بالحيوية والأشداق الكبيرة القانية الحمرة التي تكشف عن أسنان ضاحكة لا تحفل بأي شيء في هذه الدنيا الشريرة!..

وما لبث (الستيريو) أن دار عاليًا متجاوبًا، وكانت الاسطوانة بعنوان (فقط يوم بعد يوم)

للمغني جوني زيفاجو... وفي الفترة التي جاءت بين اسطوانة وأسطوانة، سمع فجأة غناء لم يدم سوى لحظات صدر عن واحدة من النساء والصاحبات للرجال لدى المقصف، وكأنما أرادت فقط أن تقدم نموذجًا لشيءٍ كانوا يناقشونه... أواه يا إخواني، كان هذا المقطع الغنائي القصير في سمعي مثل طائر عظيم حلق فجأة في المشرب، حتى شعرت بشعر جسدي يقف آخره وبالقشعريرة تسري فيه سريانًا... ذلك لأنني أعرف ما غنته تلك المرأة، وهو مقطوعة من أوبرا (الفريدريك جيتر فنستر) وهي المقطوعة التي قامت بها وهي تلفظ أنفاسها مذبوحة... هكذا رحت أرتعد...

غير أن ديم ما أن سمع هذه المقطوعة حتى صفر استهزاء وأعقب ذاك (بهوهوة) كلب ثم بقهقهة تهريجية.. وسرعان ما انتابني شعور المحموم وغلا الدم في عروقي لهذه البذاءة من جانب ديم، حتى قلت له:

- يا قذر!.. يا ابن الزنا!.. يا عديم الادب!..

وشفعت هذا بميلة نحو جورجي الذي كان يجلس بيني وبين ديم وعاجلته بلكمه على فمه.. فنظر ديم بدهشة شديدة وقد فغر فاه ورفع يده لمسح الدم الذي بدأ ينزف وهو مذهول يقلب النظر بين الدم وبيني... وما لبث أن قال لي:

- لأي سبب فعلت هذا؟!

إن ما فعلته لم يسترع نظر الكثيرين، ومن شاهدوه لم يعبأوا بما حدث.. وكان (الستيريو) قد استأنف دورانه بعزف جيتار تافه... فرددت عليه قائلًا:

- لأنك ابن زنا ولا أخلاق عندك ولا فكرة عن السلوك في مكان عام يا أخ...

فقال ديم وقد شفت نظراته عن الشر:

- لست أخًا لك ولا أريد أن أكونه بعد الآن... وما كان يجب أن تفعل هذه الفعلة بأي حال!..

وأخرج من جيبه منديلًا كبيرًا وأخذ يجفف به الدم وهو ينظر إليه مقطبًا وكأن الدم ليس دمه وإنّما دم أحد غيره... ومن عجب أن تلك السيدة راحت تضحك الآن مع أصحابها لدى المقصف دون أن تلاحظ سوقية ديم وبذاءته... وهكذا كان ما فعله ديم هو اساءة لي... وقلت:

- إذا كنت لا تحب هذا ولا تريد ذاك، فأنت تعرف ما الذي يجب أن تفعله!..

وعندئذ قال جورجي بحدة جعلتني أتطلع إليه:

- لا بأس... دعونا من الخصام...

فقلت:

- المسألة متروكة لديم.... لا يصح لديم أن يستمر في تصرفاته كطفل صغير...

وشفعت هذا بنظرة حادة إلى جورجي فقال ديم وقد بدأ نزيف الدم يتوقف:

- أي حق طبيعي له لكي يظن أنه يمكنه اعطاء الأوامر ويلطمني وقت ما نحب؟! بإمكاني أن الطم عينيه بالسلسلة اذا فعلها مرة ثانية!

فقلت له وقد بدا صوت (الستيريو) يتماوج فيما بين الجدران والسقف:

- حاسب على كلامك!.. حاسب يا ديم!..

فقال ديم:

- سحقًا لهذا!.. إن ما فعلته لا حق لك فيه!.. سوف أواجهك بالسلسلة أو المطواة أو قرن الغزال في أي وقت تشاء، ولن أقبل منك تكرار ما فعلت!..

فرددت عليه بشراسة قائلًا:

- لتكن المطواة.. في أي وقت تحب...

فقال بيتر:

- كفي الآن يا رفاق... ألسنا أصحابًا وأحباء؟!.. لا يليق أن يتصرّف الأصحاب هكذا!.. انظروا!.. هناك بعضهم ينظرون إلينا ساخرين!.. لا يجب أن نتحامل على بعضنا!..

فقلت؟

- أن على ديم أن يعرف وضعه... مضبوط؟.

فقال جورجي:

- مهلًا... ما هذا الذي يُقال عن وضع أحد؟.. هذه أول مرة أسمع فيها عن رفاق يلقنون درسًا عن وضعهم!..

فقال بيتر:

- إذا اردت الحقيقة يا أليكس، فما كان يجب أن توجه إلى ديم تلك اللكمة التي لم يكن لها لزوم... سأقولها لك مرة واحدة، وأقولها بكل احترام: لو كنت أنا الذي وجهت إليه لكمتك، لكان لابد من محاسبتك!.. ولا كلام لي بعد ذلك...

قال هذا ودس فمه في كوب اللبن...

شعرت بالغيظ في دخيلتي، غير أنني تمالكت نفسي، وقلت بهدوء:

- لابد من وجود زعيم... ولابد من النظام... صح؟..

لم يفه أحد منهم بكلمة، ولا حتى ايماءة... فزاد غيظي، لكنني حافظت على هدوئي الظاهري، ومضيت اقول:

- إنني كنت المسئول عن زعامة الفريق طول هذا الوقت.. إننا جميعًا أصحاب، لكن لابد من وجود مسئول... صح؟.. صح؟..

أومأوا جميعًا برؤوسهم، ولكن في حذر... وأخيرًا قال ديم وهو يجفف آخر قطرات الدم:

- صح... صح... ربما كان هذا من تأثير المجهود الذي بذلناه...

لقد أدهشني أن رأيت ديم هو الذي يتصرّف هكذا وينحو إلى المهادنة... غير أنه مضى يقول:

- إن الفراش هو الألزم والأسلم لنا الآن... واذن فالأفضل أن نذهب الآن إلى بيوتنا... صح؟..

لقد زادت دهشتي فعلًا، بيد أن الزميلين الآخرين أومأ مؤمنين على رأي ديم... فقلت:

- أنت تفهم حكاية الضربة التي وجّهتها إلى فمك يا ديم... كانت الموسيقى هي السبب... إنني أفقد صوابي عندما يتدخل أي شخص لمقاطعة سيدة تغني!.. كما حدث الآن...

فقال ديم:

- الأفضل أن نذهب إلى بيوتنا ونأخذ حظنا من النوم... الفتيان الناشئون بحاجة إلى طول النوم.. صح؟..

وعندما أومأ الاثنان الآخران ايجابًا قلت:

- أظن أن الأفضل هو أن نذهب إلى بيوتنا الآن كما اقترح ديم... واذا لم نتقابل في النهار يا إخواني، فإن لقاءنا سيكون في نفس الوقت ونفس المكان غدًا؟..

فقال جورجي:

- نعم ويمكن أن نتفق على هذا بسهولة...

وعاد ديم يقول:

- ربما أتأخر بعض الوقت، لكن مؤكد أننا سنلتقي في نفس المكان ونفس الوقت تقريبًا...

وكان لا يزال يجفف فمه، ولكن الدم قد توقف الآن، وقد تابع كلامه قائلًا:

- والمأمول ألا توجد هنا بعد الآن أية واحدة تغني!..

وشفع هذا بقهقهته الصاخبة البهلوانية، وبدا وكأنه بلغ من كثافة الحس بحيث لا تؤثر فيه أية إهانة...

وهكذا تفرقنا كلٌ إلى وجهته وأنا اتجشأ من الكوكا المبردة التي شربتها... وقد حرصت على أن أجعل مطواتي (قرن الغزال) في متناول يدي احتمالًا لوجود أحد من عصابة بيليبوي أو غيرها من العصابات المتنافسة المقتتلة متربصًا قرب محل اقامتي...

كنت أقيم مع أبي وأمي في الوحدة رقم ١٨ - ايف بمساكن البلدية، فيما بين (كنجسلي أفنيو) و (ويلسنسواي).. وقد وصلت إلى الباب الرئيسي الكبير دون متاعب، وإن مررت بشاب منبطح على الأرض يصرخ ويتوجع في الوحل وهو مثخن بالجراح.. لما وقع نظري في ضوء المصباح على بقع من الدماء متناثرة هنا وهناك وكأنها يا إخواني توقيعات تركها أبطال المعارك الليلية

المعهودة شاهدًا عن حسن بلائهم!..

وقع بصري أيضًا قرب مدخل الوحدة السكنية على ملابس نسائية ممزقة كانت دليلًا ولا شك على وقوع مناوشات غرامية عامّة وكثير من أمثال ذلك يا إخواني!.

وفي مدخل الوحدة مررت باللوحة التشكيلية البلدية المرسومة على الحوائط والتي تمثل أفرادًا من الجنسين في المصانع - رمزًا لكرامة العمل - مجردين من الملابس ابرازًا للقوة ومتانة العضل، ولكن اللوحة الوقورة اضيفت إلى مواطن معينة فيها بأقلام الرصاص والأقلام الملونة ما جعلها تبدو فاحشة نابية عن دواعي الادب والحشمة، ناهيك بتلك العبارات البذيئة الدنسة التي سجلت بتلك الأقلام في دوائر مرسومة على أفواه الشخوص الوقورة المحتشمة.. ومهما يكن فقد اتجهت إلى المصعد، لكن لم تكن ثمّة حاجة للضغط على الزر لمعرفة إن كان يعمل أو لا يعمل... فقد وجدت سلاسل معدنية متينة أمام أبواب المصعد هذه الليلة، وهكذا كان عليّ أن أصعد عشرة أدوار على القدمين!.. انني فعلتها وأنا ألهث وألعن، بسبب تعبي البدني وان لم يكن العقلي... لقد كنت في حاجة ماسة إلى الموسيقى هذه الليلة، وربما لأن غناء تلك المرأة ومشرب اللبن قد أذكى مشاعري.. والواقع أنني كنت أريد وجبة كبيرة بل وليمة حافلة من الموسيقى قبل أن أدلف إلى الفراش يا إخواني!..

فتحت باب المسكن بمفتاحي الصغير الخاص، فكان كل شيء في الداخل هادئًا تمامًا بعد أن استغرق أبي وأمي في نومهما العميق تاركة لي امي عشائي على المائدة - وكان مؤلفًا من بعض قطع اللحم المعلب وشريحة خبز بالزبد وكوب من اللبن البارد - لبن غير مسكر ولا مزيج من تلك الأخلاط الجهنمية التي عهدتها في البار، فيا لقسوة هذا اللبن البريء الآن يا إخواني!.. ومع ذلك فقد شربت وأكلت متذمرًا، لشعوري بجوع شديد لم أشعر به من قبل.. ثم أخذت من دولاب المؤونة قطعة من الفطير بالفاكهة وحشوت بها فمي النهم.. وبعد أن نظفت أسناني دلفت إلى غرفة نومي الصغيرة أو (جحري) وأنا أتخفف من ملابسي... هنا كان فراشي و(الستيريو) الخاص بي، أعز ما امتلك في هذه الدنيا، مع مجموعة أسطواناتي في دولابها المخصص لها، إلى جانب أعلام وشارات فوق الجدران، هي تذكارات من مدرستي الإصلاحية منذ أن كنت في السابعة من عمري...

كانت مكبرات (الستيريو) مرتبة حول الغرفة، على السقف والحوائط والأرض، بمعنى أنني وأنا ممدد في الفراش استمع إلى الموسيقى، كنت كما لو كانت الأوركسترا تسري في كياني من كل جانب.. وكان ما استهواني قبل غيره في هذه الليلة هو اسطوانة كونشرتو الكمان الجديدة للأمريكي (جوفري بلاوتوس)، تعز فها فرقة (الفيلهارمونيك) المعروفة باسم (اوديسيبوس كوويريلوس) وهكذا سحبت الاسطوانة من مكانها المرتب وأدرت (الستيريو) وانتظرت..

ثم جاءت الموسيقي يا إخواني نشوة سماويّة لا حدود لها!..

لقد تمددت على ظهري، مسندًا رأسي بين يدي فوق الوسادة، مغمض العينين، منفرج الشفتين انتشاء، أنصت إلى أعذب النغم... كان الجلال مجسمًا، متجسدًا، متجاوبًا في كل موضع من فوقي ومن تحتي وعن يميني وشمالي كان عجيبة العجائب.. وبين دق الطبول وعزف الأبواق، سرى عزف الكمان متفردًا فوق كافة الأوتار الأخرى، حتى لاح لي كأنه قفص من حرير التف حول فراشي.. وفي جو النشوة الفياضة هذا الذي حف بي من كل جانب، درج أبي وأمي، يا إخواني،

على عدم دق الحائط الفاصل بيني وبينهما للشكوى مما يصفونه بالضوضاء!.. فقد تعلما الدرس مني!.. وصارا يتناولان أقراصًا منومة!.. وأغلب الظن أنهما تناولاها هذه الليلة قبل حضوري، ادراكًا منهما لمدى نشوتي بموسيقى الليل هذه... ويا لتلك الصور والأخيلة التي كانت تتراءى لي وأنا ممدد هكذا أستمع مغمض العينين سابحًا في سماء النغم... أهي صور حوريات بلغن الأوج في الفتنة والجمال والسحر؟! أهي مجامع عشاق ينهلون من ينابيع الهوى رحيق الحب عذبًا مصفى آنًا، وفائرًا جياشًا آنة أخرى؟.. لا أدري... ولكن الذي أدريه أنه ما إن بلغت الموسيقى ذروتها ثم أذنت ببلوغ ختامها، حتى ندت مني آهة جياشة ملتاعة جوى وضنى...

بعدها أدرت أسطوانة موزار الرائعة المعروفة باسم (جوبيتر)، فكانت هي الأخرى مذكية لمشاعري مثيرة للوعة والشجون... ثم تراءى لي أن أختتم بأسطوانة أخيرة قبل العبور إلى عالم النوم كانت أسطوانة باخ المعروفة باسم (كونشيرتو براندنبرج)... فلم تكن لوعتي بأقل مما ابتعثته في النفس سابقاتها، ولكن كان النوم رحيمًا بي وأسبق إليّ من كل رؤى أخرى معذبة للمشاعر مثيرة الحنين...

الفصـل الرابـع

في صباح اليوم التالي استيقظت متأخرًا في الساعة الثامنة يا إخواني ولما كنت لا زلت متعبًا منهك القوى مشوش الفكر من أثر الليلة الماضية وأجفاني مطبقة ملتصقة بغراء النوم - فقد بدا لي أنه يمكن ألا أذهب إلى المدرسة وأنال قسطًا أوفر من الراحة في الفراش مدى ساعة أو اثنتين، ثم أرتدي ملابسي بالراحة، وربما آخذ حمامًا حسب ما يحلو لي، وبعد ذلك أعد كوبًا من الشاي القوي مع بعض (التوست)، وأخيرًا أفتح الراديو أو أتصفح الجريدة بغاية التمهل والاسترخاء، وربما يبدو لي أيضًا، إذا صفا مزاجي أن أخرج وأعرج على المدرسة العتيدة وأنظر ما يلقون فيها من تلك الدروس العقيمة.. عندئذٍ سمعت يا إخواني صوت أبي يزمجر ويخطو جيئة وذهابًا ثم يخرج إلى مصنع الصباغة الذي يعمل فيه، وبعدها نادتني أمي بصوت كله احترام لشخصي كما أصبح دأبها معي الآن وأنا أكبر وأزيد امتلاء وقوة:

- الساعة الثامنة يا ولدي.. لن تحب أن تتأخر مرّة أخرى...

وهكذا رددت عليها من مكاني:

- أشعر بوجع في رأسي.. اتركيني في حالي. وسأحاول أن أخفف منه شيء من النوم، وبعدها سأتعافى وأرى ما يكون!..

فسمعتها تتنهد وقالت:

- سأضع طعامك في الفرن إذن يا ولدي.. لابد لي من الخروج الآن أنا أيضًا..

وكانت على حق.. فهناك ذلك القانون الذي يحتم على كل من ليس طفلًا أو لا يرعى طفلًا أن يخرج للعمل.. وكانت أمي تعمل في أحد محال (السوبر ماركت) التابعة للبلدية لتعبئة الأرفف بمعلبات الحساء والفاصوليا وما إليها.. وقد سمعتها بعد ذلك تضع طبقًا في فرن الغاز، ثم تلبس حذاءها وتأخذ معطفها من خلف الباب، وقالت بعد أن تنهدت مرّة أخرى:

- حان موعدي الآن يا ولدي.. أنا خارجة..

لكنني تظاهرت بالنوم، وعلى الأثر غالبني النوم فعلًا، وتراءى لي في المنام حلم غريب مضحك، بدا لي فيه رفيقي جورجي وقد كبر كثيرًا وصار انسانًا عصبي المزاج صعب الشكيمة يفرض النظام والطاعة حتى أصبح له أناس تحت إمرته يخفون لتلبية أوامره ونواهيه ويؤدون له التحية العسكرية كما لو كانوا في الجيش، وأنا فرد منهم في الصف ألبي بنعم يا سيدي ولا يا سيدي، ثم تبينت بوضوح أن جورج يحمل نجومًا على كتفيه مثل جنرال.. ثم أنه جاء بزميلنا ديم العتيد يحمل كرباجًا، ولاح ديم وهو أوفر وجاهة وقد شاب شعره واختفت بعض أسنانه كما تجلى لي وهو يبتسم عندما رآني، وبعدئذ قال رفيقي جورجي وهو يشير إليّ: «أنّ هذا الرجل تعلوه القذارة من رأسه إلى قدمه».. وكان صادقًا.. ثم سمعتني أصرخ: «لا تضرب... لا تضربوا يا إخواني!».. وأخذت أجري.. وكنت أجري فيما يشبه الدائرة، وكان ديم يطاردني وهو يفرقع

بكرباجه، وكنت في خلال ذلك أسمع مع فرقعة الكرباج صوت جرس يرن عاليًا، وكان هذا مبعث إيلام لي أيضًا..

ثم صحوت من نومي على الأثر وقلبي يدق عنيفًا، وإذا صوت جرس يرن حقيقة. وكان جرس باب مسكننا فتظاهرت بأنه لا أحد في البيت، غير أن رنين الجرس لم ينقطع، وفي اللحظة التالية سمعت صوتًا يصيح من خلال الباب: «هيا قم ودع عنك هذا... أعرف أنك في الفراش!..»

عرفت في الحال صوت المتكلم.. كان صوت السيد (دلتويد) الذي يسمّونه المشرف الاصلاحي المختص بمتابعتي.. فرددت على الأثر بأنني قادم توًا، وأسرعت بمغادرة الفراش وارتداء ملابسي، وكانت في الحق يا إخواني (روبًا) فاخرًا من الحرير المزركش بصور مدائن، و(شبشبًا) من الصوف اللين، وبعد أن مشطت شعري الغزير فتحت الباب للسيد دلتويد.. فدخل هادرًا بملابسه المشعثة وقبعته العتيقة ومعطفه الواقي من المطر ملوثًا.. ابتدرني قائلًا:

- آه يا أليكس يا ولد!.. إنني قابلت أمك... وقد أخبرتني أنك تشعر بألم في مكان ما!.. ولهذا لم تذهب إلى المدرسة..

فأجبت بلهجتي المهذبة:

- هو ألم لا يطاق في رأسي يا سيدي.. وأظن أنه سيزول بعد الظهر ...

فقال دلتويد:

- أو مؤكد في المساء... المساء هو الوقت الرائع، أليس كذلك يا أليكس يا ولد؟.. اجلس اجلس.. اجلس...

وكأنما كان البيت بيته وأنا ضيفه!..

ثم جلس في الكرسي (الهزاز) الذي يجلس فيه أبي وبدأ يتأرجح وكأنما جاء لهذا الغرض...

قلت له:

- فنجان شاي يا سيدي؟..

- لا وقت عندي..

ومضى يتأرجح وهو يرمقني بنظراته اللامعة المعهودة تحت حواجب مقطبة.. وكرر كلماته قائلًا:

- نعم لا وقت عندي..

- فهل يتفضل سيدي بتعريفي عن دواعي تشريفي بهذه الزيارة الكريمة.. أهناك شيء خاطئ يا سيدي؟..

- خاطئ؟..

قالها بسرعة وهو ينظر إليّ في دهاء متابعًا تأرجحه في الكرسي.. ثم وقع نظره على اعلان

منشور في الجريدة التي كانت فوق المائدة، الفتاة جميلة باسمة الثغر بارزة النهدين تعلن عن نوع من خوخ يوغسلافي أخذت منه قضمتين تأكيدًا لجودته الفائقة ثم عاد بنظره إليّ قائلًا:

- لماذا يخطر ببالك وجود شيء خاطئ؟.. هل كنت تفعل شيئًا ما كان يجب أن تفعله؟.. نعم..

فأجبت قائلًا:

- هو مجرد أسلوب في الكلام يا سيدي..

فراح دلتويد يقول:

- لا بأس... وأنا اقول بأسلوبي الكلامي يا صغيري أليكس: أن عليك أن تحاذر، لأنّه في المرّة القادمة - كما تعرف جيدًا - لن تكون هناك مدرسة اصلاحية بعد ذلك.. في المرّة القادمة سيكون المكان المشبك بالقضبان، ويكون بهذا ضياع لكل ما عملته من أجلك.. وإذا لم يكن لديك تقدير لشخصك البشع، فيجدر، على الأقل، أن يكون هناك بعض التقدير لشخصي: أنا الذي جاهدت وعرقت من أجلك... وأقولها لك بصراحة بيني وبينك، إنها لنقطة سوداء كبيرة تحسب لكل مشرف لا يثمر عمله الإصلاحي، وتعد اعترافًا بفشله، عن كل فرد منكم ينتهي به الأمر إلى الجحر المشبك بالقضبان!..

فقلت له:

- لم أفعل شيئًا يا سيدي أعني يا سيدي أن رجال الشرطة لا يأخذون عليّ شيئًا...

فقال دلتويد بإعياء تام وإن كان مازال يتأرجح:

- دع عنك هذا الكلام الناعم الماكر عن حكاية الشرطة.. لا يعني مجرد أن رجال الشرطة لم يقبضوا عليك مؤخرًا، كما تعرف تمامًا، أنك لم تكن متورطًا في عمل منحرف قبيح.. لقد حدث في الليلة الماضية بعض الاشتباكات، أليس كذلك.. كانت هناك اشتباكات بالأسلحة البيضاء والسلاسل الحادة وغير ذلك.. وقد نقلت سيارة الإسعاف زميلًا لفتى سمين في ساعة متأخرة قرب محطة توليد الكهرباء وهو مصاب بجروح كثيرة!.. وورد اسمك مقترنًا بالحادث.. ونُقل إليّ الخبر عن طريق القنوات المعروفة كما وردت أيضًا أسماء زملاء لك.. والظاهر أنه حدثت قبائح منوعة في الليلة الماضية أنه ليس بوسع أي أحد أن يثبت شيئًا ضد شخص معين كما هي العادة، لكنني أحذرك يا صغيري أليكس، لكوني صديقك المخلص على الدوام: والوحيد في هذه البيئة المريضة المنكودة، الذي يريد انقاذك من نفسك!..

فقلت له:

- إنني أقدر كل هذا يا سيدي؛ بكل إخلاص..

فقال في لون من السخرية:

- نعم تقدره، أليس كذلك؟.. عليك أن تحاذر، وهذا كل ما هناك.. اننا نعرف أكثر مما تظن يا صغيري أليكس...

ثم تابع كلامه بصوت يشف، عن شدّة الكرب والمعاناة:

- ما الذي دهاكم جميعًا؟.. أننا ندرس المشكلة، ولبثنا ندرسها منذ ما يقرب من قرن من الزمان... نعم!.. لكننا لا نتقدم خطوة بكل دراساتنا!.. أنت تنعم ببيت طيب هنا، وأبوين محبين لك، ولك عقليّة ليست رديئة فهل هناك شيطان يتسلل إلى داخلك؟..

فقلت:

- لا أحد له أي مأخذ عليّ يا سيدي.. إنني لبثت بعيدًا عن أيدي الشرطة مدة طويلة..

فتنهد السيد دلتويد قائلًا:

- وهذا هو ما يقلقني.. فهي مدة كافية لإصلاحك.. وفي تقديري أنّ هذا أوان الفصل في أمرك.. لذلك فإنني أحذرك يا صغيري أليكس لكي تبعد أنفك الصغير الجميل عن التدنس في الأوحال فهل تراني أوضحت غرضي؟..

فقلت:

- أوضحته يا سيدي كما لو كان بحيرة غير عكرة.. أو كسماء صافية الزرقة في عز الصيف.. ولك يا سيدي أن تعتمد عليّ..

وشفعت كلماتي هذه بأعذب ابتسامة..

بيد أنه بعد انصرافه والتفرغ لإعداد الشاي القوي الذي كنت أريده، لم أتمالك من الابتسام لنفسي عندما فكرت في هذا الذي يشغل بال السيد دلتويد المبجل وزملائه الأفاضل!.. لا بأس اذن.. إنني أفعل القبيح، ناهيك بالتضارب والتقاتل بالمدي وما إليها، فضلًا عن التهجم على الأعراض.. وإذا تعرضت للمؤاخذة كانت العاقبة وخيمة كما يقولون.. لا يستطيعون إدارة دفة الحكم في البلاد كما يجب إذا كان كل فرد فيها يفعل القبائح كما أفعلها ليلًا... ثم أنني إذا قُبض عليّ وأمضيت ثلاثة أشهر في هذا المحبس أو ستة أخرى في ذاك، وبعدها - كما ينذرني السيد دلتويد بعطفه ورقته - لا يكون أمامي سوى حديقة الحيوان الجهنمية أو السجن الكبير ذاته! اذا كان كل هذا يا إخواني، فإنني أقول: «كلام جميل!».. لكن شيئًا من الترفق يا سادتي الأكابر: اذ لا يمكنني وحسب أن أطيق تقييد حريتي أن كل نشاطي سوف ينحصر - في المستقبل الممدود أمامي بأحلامه الوردية قبلما أتعرّض لضرب مطواة أو دق عظام بسلسلة أو في سيارة مهشمة على الطريق السريع - هو في ألا أتعرّض للاعتقال والمؤاخذة.. ولكن وخزهم هذا أو تشديد الوطأة بالأقدام فيما هو سبب أفعال الفساد والسوء، إنّما يثير ضحكي!.. فهم لا يبحثون فيما هو سبب الصلاح، واذن فعلام البحث في سبب الفساد.. إذا كان الناس صالحين فلأنّهم يحبون هذا، وما يكون لي أن أتدخل فيما هو مناط ارتياحهم، وهذا يجب أن ينطبق على الجانب الآخر... وأنا من أنصار هذا الجانب... وأكثر من هذا فان الفساد هو فساد الذات، ذاتي أو ذاتك فيما يعني كلامنا وحده.. وفساد الذات هو الفطرة التي ينشأ الانسان عليها.. لكن الفساد لأنهم لا يبيحون الحرية المطلقة.. وإذن فإن ما أفعله إنّما أفعله بدافع من ذاتي، ولأنني أحب أن أفعله!..

والآن: أعود إلى هذا الصبح الشتوي الباسم، فأراني أشرب الشاي القوي باللبن مع ملعقة بعد ملعقة بعد ملعقة من السكر، وأخرج من الفرن الإفطار الذي أعدته لي أمي المسكينة، وكان بيضة مشوية لا أكثر، ولكنني أعددت (التوست) وأكلته بالمربى مع البيضة، متلمظًا به وأنا أتصفح

الجريدة.. كانت أخبار الجريدة عن الحوادث المعتادة مثل أعمال العنف والسطو على البنوك، والاضرابات، وكرة القدم، وتهديدات لاعبيها التي تلقي الفزع في نفوس الجماهير بالتوقف عن اللعب إذا لم ترفع أجورهم، أولئك اللاعبون الخبثاء... كما كان في الجريدة أيضًا الكثير عن رحلات الفضاء، وعروض التليفزيون الموسيقية الكبيرة، وجوائز الصابون المبشور المغرية القائمة على جمع قسائم الاعلانات - مما أثار ابتسامي!.. ثم كانت هنالك مقالة طنانة من (الشباب الحديث) - تعنيني طبعًا، مما جعلني أضحك سلفًا بقلم كاتب أصلع متحذلق، ولكنني رحت أقراؤها باهتمام يا إخواني، وأنا استمتع بشرب الشاي متمهلًا واقضم (التوست) بالمربى هانئًا.. وكان هذا الكاتب اللوذعي يردد الكلام المعتاد، عن انعدام التوعية من جانب الوالدين، ونقص العدد الكافي من المعلمين الذين يتعين عليهم انتزاع الافكار الضارة من عقول النشء البريء واجبارهم على الاستعطاف!.. كل هذا جعلني ابتسم تفكهًا، ولكنّه كان شيئًا لطيفًا دعاني إلى متابعة القراءة لعلمي أنني وأمثالي نقدم مادة دسمة مجددة الأخبار والمقالات كل يوم!.. فيومًا بعد يوم يا إخواني كان يُنشر شيء عن (الشباب الحديث)، ولكن كان قصارى جهدهم هو نشر مقالات من هذا القبيل بقلم بعض ذوي الياقات المنشاة يؤكدون فيها أنّ هذه آراؤهم بعد الدرس والتمحيص، وأن هذا الفساد هو من عمل (الشيطان)، الذي ينخر طريقه إلى داخل النفوس الغضة البريئة، وأن واجب الكبار أن يضطلعوا بمسئولياتهم إلى جانب اهتمامهم بمشاكل الحروب والقنابل النوويّة وما إليها من هذا اللغو الذي لا ينقطع!.. وفي هذا ما يرفع التبعة والملام عنا نحن النشء البريء، وهي مقولة صحيحة، صحيحة، صحيحة...

ومهما يكن فبعد أن امتلأت معدتي البريئة بدأت في اخراج ملابسي للنهار من دولاب ملابسي الخاص وأنا أدير الراديو كان هناك يا إخواني عزف موسيقي وترية لـ (كلوديوس بيردمان) وكنت أعرفه جيدًا.. ورغم هذا لم أتمالك من الابتسام عندما فكرت فيما قرأته ذات مرة في إحدى تلك المقالات عن (الشباب الحديث): من أنّ هذا الشباب الحديث يمكن أن ينصلح حاله إذا تيسر الأخذ بأسلوب نشط لتشجيع (الفنون).. فقد ورد في ذلك المقال أن الموسيقى الراقية والشعر المجود يمكن أن يثمرا في تهدئة وتهذيب مشاعر الشباب الحديث، ويجعل الشباب الحديث أكثر تحضرًا.. يا للسخرية!.. إن الموسيقى كانت دائمًا تلهب حواسي وتثير غرائزي!..

وبعد أن ارتديت ملابسي (أعني ملابس النهار، وهي زي الطلبة المؤلف من البنطلون الأزرق والسويتر) بالإضافة إلى حرف ألف رمزًا لاسمي أليكس، خطر لي أنه لا يزال أمامي وقت لكي أذهب إلى (بوتيك الاسطوانات) وكانت جيوبي عامرة بالنقود للسؤال عن اسطوانة طال طلبها وانتظارها وهي اسطوانة بتهوفن رقم ٩ المعروفة باسم (سيمفونية الكورال).. وهكذا خرجت لهذا الغرض يا إخواني..

كان النهار مختلفًا تمامًا عن الليل.. إن الليل ملكي وملك رفاقي وكل من ينتمون إلى طوائف (النادسات) أو المراهقين، أمّا النهار فهو لكل الناس العاديين، وكان يكثر فيه رجال الشرطة متفرقين هنا وهناك طوال ساعات النهار.. وقد ركبت الاتوبيس من الناصية حتى وسط المدينة، ثم عدت سيرًا مسافة قليلة إلى (تايلور بليس)، حيث يوجد (بوتيك الاسطوانات) الذي اخترته لمعاملاتي الكريمة يا إخواني.. وكان له اسم رنان هو (ميلوديا) وكان سريعًا في تلبية الطلبات أكثر الوقت وخاصّة الأسطوانات الجديدة.. وعندما دخلت لم يكن به من الزبائن أكثر من صبيتين تلعقان (الآيس كريم) مع إننا في صميم الشتاء البارد، وبدا أنهما تقلبان في اسطوانات أغاني (البوب) الأكثر ذيوعًا في تلك الفترة..

لم تكن الصبيتان تجاوزان سن العاشرة، وبدا بوضوح أنهما قررتا، مثلي، قضاء الفترة الصباحية بعيدًا عن المدرسة.. ولك أن تدرك أنهما نظرتا إلى نفسيهما كما لو كانتا في سن المراهقة فعلًا.. على أي حال فإنني اتجهت إلى (الكاونتر) مبتسمًا أحلى ابتسامة وردية لأندي العتيد خلفه (وهو نفسه دائمًا مؤدب ومقبل على زبائنه، أي الرغم من أنّه كان أصلع شديد النحافة).. وقد بادرني قائلًا:

- أهلًا.. أنا أعرف طلبك.. عندي أخبار طيبة.. أخبار طيبة.. الأسطوانة وصلت!..

وبحركات موزونة من يديه كيدي قائد أوركسترا اتجه لإحضار الاسطوانة وفي هذه اللحظة بدأت الصبيتان تتضاحكان كمن هما في مثل سنهما، فرمقتهما بنظرة باردة.. وعاد آندي سريعًا وهو يلوح بالأسطوانة العتيدة التي يحمل غلافها الأبيض صورة بتهوفن ذاته، قائلًا لي:

- إليك هي!.. هل نديرها للتجربة؟..

لكنني كنت أريد أخذها معي للاستمتاع بها في بيتي متلذذًا بها وحدي، وعندما أخرجت النقود من جيبي لدفع ثمن الاسطوانة سمعت إحدى الصبيتين تقول:

- من تكون يا فتى؟.. إلى هذا الحد تتطاول إلى عالم كبار الموسيقيين؟

وتضاحكتا مرة أخرى مهتزتين.. وبسرعة البرق خطرت لي فكرة طارئة، فقلت بابتسامة ناصعة من أسناني الحديثة التنظيف:

- وأنتما أيتها الأختان الصغيرتان، ما الذي ستأخذانه إلى البيت لتصديع سمعكما به؟.. أراهن أنها مجرد أسطوانات أغاني (البوب) التافهة التي لا تشبع عشاق الموسيقى الحقيقية!.. تعاليا مع عمكما!.. واستمعا إلى روائع النغم.. هذه دعوة مني لكما...

وشفقت كلماتي بانحناءة.. فتضاحكتا من جديد، وقالت إحداهما:

- آه.. لكننا جائعتان جدًّا!..

وقالت الثانية:

- نعم.. لها أن تقول هذا بحق...

وهكذا قلت لهما:

- كُلا مع عمكما!.. اذكرا اسم المطعم!..

وهنا تصورتا أنهما كالسيدات الوجيهات وأخذتا تستعرضان أسماء المطاعم الفخمة مثل ريتز وبريستول وهيلتون و(رستورانتو جرانتوركو) غير أنني وضعت حدًا لهذا بقولي:

- اتبعا عمكما!

وقدتهما إلى مطعم (باستا بارلور) القريب وتركتهما تحشوان فميهما بالسباجتي والسجق وشرائح الموز بالكريم وأكواب الشيكولاتة الساخنة - حتى كدت أتقزز يا إخواني بهذا الخليط

كله!.. وكانت هاتان أفكارهما متماثلة، إن كانت لهما أفكار، وشعرهما مصبوغ بلون يميل إلى الشقرة وعلى أي حال فإنهما سوف تكبران هذا اليوم الذي سيكون حافلًا بالنسبة إليهما، لأنني سأجعل منه يومًا مشهودًا... لن تذهبا إلى المدرسة بقية اليوم، لكن سيكون فيه تعليم حقًّا وصدقًا، والمعلم هو أليكس ذاته!.. وكان اسمهما مارتي وسونيتيا، وهما اسمان على مسمى واحد، صبياني...

وقلت لهما أخيرًا:

- كله تمام يا مارتي وسونيتيا.. الآن جاء الوقت للاستماع إلى روائع الموسيقى..

ولما خرجنا إلى الشارع البارد بدا لهما ألا تركبا الأوتوبيس، بل تستقلان التاكسي يا إخواني!.. وهكذا تركت لهما الحبل على الغارب، وان تبسمت مخفيا شعوري، وناديت سيارة تاكسي في الساحة القريبة، وقال لنا السائق وكانت له (سوالف) وملابسه مبقعة:

- لا تمزيق للمقاعد!.. إنها مكسوة منذ فترة قصيرة...

فأذهبت مخاوفه وطمأنته، واتجهت بنا السيارة شطر العمارة السكنية رقم ١٨ – ألف.. وعند وصولنا ظلتا طول الصعود إلى الدور الثامن وهما تلهثان وتتضاحكان وعندما قالتا إثر دخولنا أنهما تشعران بالعطش الشديد أسرعت إلى صندوق مشروباتي الثمين في غرفتي وقدمت لهاتين الصبيتين اليافعتين كأسي ويسكي ممزوجتين بالصودا اللاذعة.. فجلستا على فراشي الذي لم يكن مرتبًا وأخذتا تشربان وهما تهزان السيقان ولا تكفان عن الضحك، بينما أدرت لهما اسطوانات (البوب) التي تفضلانها من خلال (الستيريو) وهما تزيدان مرحًا وطربًا.. وفي هذه الاثناء رحت أشجعهما على شرب كأسين اخرين، فلم تمانعا.. وهكذا ما أن أتممت دورتين للأسطوانات حتى كانت الصبيتان في شبه هستيريا وراحتا تتواثبان فوق فراشي، فما بالك بوجودي في الغرفة معهما!..

وبعد ذلك سحبت اسطوانة بتهوفن التاسعة من غلافها ووضعتها في(الستيريو).. يا لتلك العذوبة التي سرت في الغرفة على الأثر... كانت الأنغام الساحرة تنساب في كافة أنحاء الغرفة سقفًا وجدرانًا وأرضًا حتى شعرت بقمة النشوة وكأنني في حلم.. وكانت الصبيتان قد بلغتا الآن حد السكر، وتلاشى عندهما كل تحفظ!..

وبعد يا إخواني.. إنني في غير حاجة إلى بيان ما حدث بعد ذلك.. ولكن ما أن ثابت الصبيتان إلى الوعي حتى راحتا تصرخان وتنعتانني بالوحش الدنس... وهكذا أخليت سبيلهما وخرجتا تتوعدان بالشكوى إلى الشرطة... ولكن النوم كان أغلب لي من كل شيء..

الفصـل الخـامس

أن ما حدث بعد ذلك هو أنني صحوت متأخرًا (قرب السابعة والنصف حسب ساعتي)، لم يكن هذا فطنة مني، كما تبينت بعد ذلك.. فلعلك ترى أن كل شيء في هذه الدنيا القاسية مرتبط بعضه ببعض، وأن الشيء الواحد يفضي إلى شيء آخر فعندما غلبني النوم كان (الستيريو) دائرًا، ولكنّه كان الآن ساكتًا واذن فلابد أن أحدا أوقفه، ولابد أن يكون (بابا) أو (ماما)، وأنهما قد فهما شيئًا مما دار في البيت في غيبتهما.. فقد سمعت صوت الأطباق وهما يتناولان وجبتهما المكدودة بعد عمل اليوم في المصنع لأبي ومتجر المعلبات لأمي.. يا لهما من مسكينين جديرين بالعطف... على أي حال فقد لبست ردائي وأطللت برأسي كإبن وحيد محب وقلت:

- سلامًا!.. أنا أحسن كثيرًا بعد راحة النهار.. وأنا مستعد الآن للعمل الليلي لكسب ما تيسر من النقود..

ذلك لأن هذا ما كان يعتقدان أنني أفعله في تلك الأيام!..

ثم أردفت على الأثر:

- هل لي نصيب عندكم؟..

وكان يبدو أنها فطيرة باردة سخنتها أمي ولم تكن مشهية، كان لابد أن أقول ما قلته..

وقد رمقني أبي بنظرة غير راضية ومستريبة، غير أنه لم يقل شيئًا، لعلمه أنه لا يجسر على هذا، ونظرت إلى أمي بابتسامة يسيرة مكدودة، أنا فلذة كبدها ووحيدها!.. ومهما يكن فقد ذهبت إلى الحمام بخطى راقصة واغتسلت جيدًا من أدراني، ثم عدت على الأثر إلى (وكري) لارتداء ملابس المساء وبعد تمشيط وتلميع لشعري الغزير جلست إلى المائدة لتناول فطيرتي..

ثم قال أبي:

- ليس معني سؤالي يا بني أنني أريد التطفل، لكن أين تذهب بالضبط للعمل في لياليك؟..

فأجبت وأنا أمضغ:

- آه.. هي غالبًا أعمال متنوعة بسيطة، هنا وهناك (وصوبت إليه نظرة شذراء مباشرة وكأنني أطالبه بأن يقتصر على ما يعنيه ويتركني لما يعنيني).. أنا لا أطلب منك نقودًا، لا للملابس ولا للفسحة.. أليس كذلك؟.. فلماذا السؤال؟..

كان أبي أسرع إلى الامتثال، حتى قال:

- آسف يا ولدي لكنني أقلق أحيانًا.. أحيانًا أرى أحلامًا في المنام ولك أن تضحك إذا شئت، لكن الأحلام تنبئ عن الكثير وفي الليلة الفائتة حلمت حلمًا كنت أنت فيه ولم أسترح اليه ببال..

قلت وقد أمسكت عن المضغ:

- بحق؟

فقال أبي:

- كان الحلم واضحًا.. رأيتك فيه ممددًا في الشارع مضروبًا من أولاد آخرين.. أولاد يشبهون أولئك الأولاد الذين اعتدت أن تخرج للتجول معهم قبل ارسالك إلى المدرسة الإصلاحية في المرّة الأخيرة..

قابلت كلامه بالابتسام إذ ألفيته يعتقد أنني (انصلحت) فعلًا.. أم تذكرت بدوري الحلم الذي رأيته في منامي صباحًا، عن جورجي وهو يصدر إليّ أوامره كجنرال، وديم وهو يبتسم عن فم بلا أسنان ويلوح بكرباجه.. لكن الأحلام تتحقّق معكوسة كما قيل لي ذات مرة.. وهكذا قلت لأبي:

- لا تقلق يا أبي على ولدك ووريثك الوحيد!.. ولا تخف بإمكانه أن يرعى نفسه تمامًا!.

غير أن أبي تابع كلامه قائلًا:

- .. ثم انك ظهرت كما لو كنت عاجزًا تتخبط في دمائك ولا تستطيع الدفاع عن نفسك!..

كان هذا الوصف يعكس الواقع، فابتسمت لنفسي مرّة أخرى، أخرجت من جيوبي كل ما معي من نقود ورننتها على مفرش المائدة المبقع، قائلًا:

- انظر يا أبي.. إنها ليست بالكثير.. وهي ما كسبته في الليلة الماضية.. لكنّها ربما تنفع في ثمن مشروب لك ولأمي في البار القريب...

فقال:

- شكرًا يا ولدي.. لكننا لا نخرج كثيرًا في الوقت الحالي.. إننا لا نجسر على الخروج كثيرًا والشوارع على ما هي عليه الآن بسبب المعتدين الشبان ومن اليهم.. ومع ذلك شكرًا لك.. إنني سأحضر لها زجاجة غدًا!..

وجمع النقود التي كانت ثمرة الغصب والسلب والنهب ودسها في جيوب بنطلونه، في حين كانت أمي تغسل الأطباق في المطبخ وانصرفت أنا في النهاية مودعًا بابتسامات المحبة والإعزاز..

وعندما هبطت إلى قاع سلالم العمارة تملكتني الدهشة.. بل أكثر من هذا فغرت فمي على اتساعه.. فقد جاء رفاقي لمقابلتي كانوا ينتظرون لدى حائط المدخل في ظل تلك اللوحة التشكيلية الكبيرة المرسومة على الحائط رمزًا لتكريم العمل والتي دنستها تلك الاضافات النابية بالقلم الرصاص كما ذكرت آنفًا.. بل كان ديم نفسه ممسكًا بإصبع غليظ من الشحم الأسود يخط به عبارات بذيئة في ثنايا اللوحة وهو يرسل قهقهته الحيوانية، غير أنه استدار عندما رحب بي جورجي وبيتر بالتحية المعهودة، وصاح هو قائلًا:

- ها هو قد وصل!.. مرحبًا مرحبًا!..

وشفع هذا برقصة من رقصاته.. بينما قال جورجي:

- إننا قلقنا.. جلسنا في البار ننتظر ونشرب اللبن الناري فلم تحضر!.. وهكذا فكر بيتر أنك ربما تكون قد تضايقت من شي ما، ولذلك حضرنا إلى مسكنك أليس هذا بالضبط يا بيتر؟..

فأجاب بيتر:

- تمام!.. تمام!..

وقلت في حذر:

- شعرت بوجع في رأسي ولهذا اضطررت للنوم ولم أتمكن من الاستيقاظ في الوقت الذي أمرت أن أستيقظ فيه.. وعلى أي حال فنحن هنا جميعًا الآن، على استعداد لكل ما تقدمه لنا هذه الليلة مفهوم؟..

فقال جورجي وكأنه يقولها مشفقًا:

- نأسف لحكاية وجع الرأس، التي تستخدمها ربما أكثر من اللازم... ومثل ذلك اعطاء الأمر والتنظيمات.. مؤكدًا أن الوجع زال؟.. ومؤكدًا أنك لن تكون أسعد بالرجوع إلى الفراش؟.

وعلى أثرها بدا عليهم الابتسام!..

فقلت:

- مهلا.. لنضع كل شيء في النور.. إن هذه السخرية، إذا جاز أن اسميها كذلك، لا تليق بكم يا أصحابي الصغار!.. لعلكم كنتم تتفقون من خلف ظهري لتدبير (مقالبكم) الصغيرة وما إليها!.. وبما أنني زميلكم وزعيمكم فمؤكد أن من حقي أن أعرف ماذا يجري، هيه؟.. والآن يا ديم، ما معنى هذه الابتسامة الواسعة، العريضة كأنها من فم حصان، وما دلالتها؟..

فقد رأيته قد فغر فاه عن آخره في ضحكة ساخرة متحفزة ولكن جورجي سارع يقول:

- لا بأس.. لا لزوم للغمز واللمز يا ديم يا أخي.. هذا جزء من الخُطة الجديدة..

فقلت:

- خطة جديدة؟! ماهي حكاية الخُطة الجديدة هذه؟.. لا شك عندي الآن أنه حدث كلام كثير من وراء ظهري النائم... أريد أن اسمع أكثر وأكثر...

وشبكت يدي واستندت مسترخيًا إلى السور (الدرابزين) المكسور لكي استمع، وفي هذه الوقفة كنت أعلى منهم وهم وقوف إلى الدرجة الثالثة للسلالم..

وقال بيتر:

- لا مساس بأحد يا أليكس.. إننا أردنا أن تسير الأمور بشكل أكثر ديمقراطية، لكن ليس كما تفعل أنت إذ تأمر بما يجب أن نفعله وما لا يجب أن نفعله!.

فقال جورجي:

- ليست المسألة مسألة مساس أو غيره.. إنّما هي مسألة من تكون عنده أفكار.. فما هي الافكار التي تطلع بها علينا؟..

وركز نظرات جريئة على شخصي وهو يتابع كلامه:

- كلها أفكار عن عمليات صغيرة.. عن أشياء مثل ما كان في الليلة الماضية.. إننا نكبر الآن يا إخواني!..

فقلت دون أن أتحرك في مكاني:

- هل من مزيد؟.. دعوني أسمع المزيد!..

فقال جورجي:

- لا بأس.. إن كان لابد أن تعرف، فلتعرف إذن.. إننا ندور هنا وهناك، نكسر المحلات وغيرها، ثم نخرج بنصيب قليل من النقود لكل واحد منا.. وهناك (ويلي الإنجليزي) في مقهى (موزلمان) يقول انه على استعداد لتصريف أية مسروقات ذات قيمة إذا عرضت عليه نظير مبالغ كبيرة جدًّا..

فقلت بهدوء ظاهري ولكنني كنت أغلي في داخلي:

- كذا؟! ومنذ متى كنتم تتصلون وتتشاورون مع (ويلي الانجليزي)؟..

فأجاب جورجي:

- بين وقت وآخر.. إنني أجرى اتصالاتي شخصيًا، كما يوم السبت الماضي.. بإمكاني أن أعيش حياتي الخاصّة يا زميلي، أليس كذلك؟!..

والواقع يا إخواني إنني لم أكترث بكل هذا، وقلت له:

- وما الذي ستفعله بتلك المبالغ الكبيرة جدًّا التي تشير إليها؟.. ألا تنالون كل شيء تحتاجون إليه؟.. إذا احتجتم إلى سيارة، تلتقطونها من الشارع!.. وإن احتجتم إلى نقود كثيرة، تأخذون ما تريدون!.. فلماذا هذا التطلع المفاجئ إلى الانتشار والتضخم على هذه الصورة؟..

فقال جورجي:

- آه.. إنك تفكر وتدبر أحيانًا مثل طفل صغير..

وهنا قهقه ديم عاليًا، بينما تابع جورجي كلامه:

- في هذه الليلة ننوي أن نقوم بعملية رجال...

إذن فقد تحقق الحلم الذي رأيته في منامي، فهذا هو جورجي (الجنرال) يقول ماذا يجب أن نفعل وماذا يجب ألا نفعل.. وهذا هو ديم يدمدم مثل كلب بولدوج وإن لم يظهر كرباجه بعد!.. غير أنني أدرت (اللعبة) بحرص وحذر، إذ قلت باسمًا:

- جميل... الهمة تهبط على من ينتظر.. إنني علمتك الكثير أيها الزميل الصغير.. الآن قل لي ماذا عندك يا جورجي يا ولدي...

فقال جورجي بابتسامة دهاء ومكر:

- آه.. البداية في (اللبن المقوى)، ألن نقول هذا؟.. شيء يشحذ حواسنا، أليس كذلك؟..

فقلت بمثل ابتسامته:

- انك قرأت أفكاري!.. كنت أنوي أن أقترح عليكم مشرب كوروفا العتيد جميل!.. جميل!.. افتح الطريق أمامنا يا صغيري جورجي!..

وانحنيت له امتثالًا وأنا أبتسم، ولكنني كنت أفكر في هذه الأداء.. وعندما سرنا في الشارع بدا لي أن الأسرع في التفكير والعمل هو الأسبق والأغلب وحالفني الحظ بمرور سيارة سمعت من داخلها عزف المقطع الأخير من (كونشرتو) الكمان لبتهوفن، فكان بمثابة إلهام لي فيما ينبغي أن أفعل.. فقلت بصوت عميق وأنا أشهر مطواتي قرن الغزال الفتاكة بسرعة البرق:

- حسنًا يا جورجي!.. استعد!..

فقال جورجي:

- هكذا؟!..

ولكنه كان سريعًا في سحب مطواته واخراج نصلها الحاد، وتحفزنا متواجهين، فيما راح ديم يقول:

- آه!.. لا.. ليس هذا من الصواب...

وهم أن يفك سلسلته الكبيرة من حيث كانت ملتفة حوله، غير أن بيتر قال له وهو يضع يده عليه بحزم:

- دعهما!.. الأصح أن يكونا هكذا!..

وهكذا بدأت المناوشة بين جورجي وبين شخصي الضعيف هادئة حذرة بأسلوب القطط، وكلانا يحاول أن يجد منفذًا في دفاع صاحبه وفي غضون ذلك كان بعض المارَّة يسيرون عن كثب ويرون هذا المشهد، ولكنهم كانوا منصرفين إلى ما يعنيهم، وربما لأن هذا كان من مشاهد الشارع المألوفة وكنت لا أكف لحظة عن إدارة مطواتي في كل اتجاه ولكن بعيدًا عن وجه جورجي أو عينيه، مستهدفًا فقط يده الممسكة بمطواته.. وفعلًا لم تمض لحظات حتى طارت المطواة من يده بحركة مفاجئة من جانبي وهوت على الأرض في رنين مسموع، بعد أن جرحت أصابعه بمطواتي، وبدا الدم ينزف منها في ضوء مصباح الشارع وعلى الأثر عاجلت ديم قائلًا له:

- الآن يا ديم، هيا نسوي الموقف بيننا نحن الاثنين...

فأسرع ديم يفك السلسلة من حول وسطه بخفة تدعو إلى الإعجاب وهو يهمهم بأصوات

حيوانية مبهمة.. والآن فإن الأسلوب الأمثل لي في هذه المناوشة الجديدة هو أن التزم الانحناء مثل ضفدعة في تواثبها حماية لوجهي وعيني، وهو ما فعلته حقًّا يا إخواني، إلى درجة أن ديم بدا عليه شيء من الدهشة اذ كان يعتمد في هجومه على الضربات المتلاحقة على وجه خصمه.. ولابد أن أعترف أن ضرباته جعلت تنهال على ظهري حتى أوجعتني، ولكن الألم حفزني على سرعة العمل والحركة، وهكذا وجهت طعنتين واطئتين بالمطواة إلى ساقه اليسرى مزقتا ملابسه وأرسلتا نقطتين من الدم، وشفعت هذا بضربة علوية غرست المطواة في رسغ ديم حتى أسقط السلسلة وأخذ ينهنه كطفل وبعدها راح يحاول امتصاص الدم من معصم يده وهو ينوح في نفس الوقت.. ولما رأيت الدم يسيل بغزارة بادرتهم قائلًا:

- صح؟!.. يا رفاق!!

فرد بيتر قائلًا:

- أنا لم أقل أي شيء!.. أنا لم اقل كلمة واحدة!.. انظر... إن ديم يسيل دمه حتى الموت...

فقلت:

- مستحيل!.. الانسان لا يموت الا مرة واحدة.. ان ديم مات قبل أن يولد!.. سيتوقف هذا الدم حالًا..

ذلك لأنني لم أطعن يده في موضع الشرايين الرئيسية.. ولم ألبث أن أخرجت منديلًا من جيبي لتضميد يد ديم (المائت) الذي كان يتوجع ويولول، وفعلًا توقف مسيل الدم كما قلت.. نعم يا إخواني، فهكذا عرفوا الآن من هو السيد والزعيم - هؤلاء النعاج!

ولم يطل الوقت لتهدئة روع هذين المجندين الجريحين في بار دوق نيويورك، ناهيك بما قدم لهما من كؤوس البراندي المضاعفة (المشتراة من نقودهم الخاصّة، بعد أن أعطيت كل نقودي لوالدي) ثم زال الروع عنهما تمامًا بعد تنظيف الجروح بمنديل من ماء الدورق..

وكانت النساء العجائز اللاتي قابلناهن في المشرب في ليلتنا الفائتة موجودات، وقد بادرننا بعبارات:(شكرًا لكم يا فتيان!.. بارك الله فيكم يا أولاد!).. ذلك وإن كنا لم نكرر عملية الكرم السالفة.. غير أن بيتر قال لهن:

- ماذا تطلبن يا بنات؟..

وأمر لهن بمشروب إذ بدا أن جيوبه عامرة بالنقود، وهكذا ارتفعت أصواتهن أكثر وأكثر لاهجات بالشكر والدعاء، مختتمات بقولهن: أبدًا لن نخون عهدنا معكم، ولن نشي بكم!

وقلت لجورجي في النهاية:

- الآن قد عدنا إلى سابق عهدنا، وتناسينا كل شيء.. صح؟..

فقال جورجي:

- صح!.. صح!.. صح!..

غير أن ديم العتيد الذي كان في شبه ذهول قال وكأنه كان يقتتل مع شخص آخر وليس معي:

- كان بإمكاني أن أحطم (ابن الحرام) بسلسلتي، لولا أن أحدكم اعترض طريقي!..

قلت مرّة أخرى:

- حسن يا جورجي يا فتاي.. ما الذي تفكر فيه لنا؟..

فرد جورجي قائلًا:

- آه.. ليس الليلة ليس هذه الليلة من فضلكم...

فقلت:

- أنت شاب قوي كبير مثلنا كلنا.. نحن لسنا أطفالًا صغارًا، أليس كذلك يا جورجي يا فتاي؟.. فما الذي تفكر فيه لنا؟..

وعاد ديم يقول:

- كان بإمكاني أن أفقأ عينيه بالسلسلة..

ولم يلبث جورجي أن قال:

- كنت أفكر في ذلك البيت.. البيت الذي أمامه مصباحان.. البيت الذي يحمل اسمًا مثل أسماء القصور وأظنه (مانشن)..

- ماذا تقصد؟

- ... هو البيت الذي تقيم فيه امرأة غنية جدًّا مع قططها وأشائها الثمينة..

- مثل؟..

- مثل الذهب والفضيات والجواهر.. إن (ويلي الانجليزي) هو الذي قال هذا..

فقلت وقد عرفت موقع المكان الذي اشار اليه:

- بديع جدًّا يا جورجي!.. فكرة طيبة.. وتستحق أن ننفذها فلنذهب في الحال!..

وفي خروجنا من المشرب قالت النسوة العجائز:

- لن نقول شيئًا أيها الفتيان!.. كنتم هنا معنا طول الوقت!..

فقلت لهن:

- يا للبنات الطيبات!.. وسنعود بعد عشر دقائق لشراء مزيد لكن من المشروبات!..

وهكذا تقدمت رفاقي الثلاثة في عملية كان فيها القضاء المبرم عليّ!..

الفصـل السـادس

كانت تمتد شرقًا بعد حانة دوق نيويورك سلسلة أبنية للمكاتب ثم المكتبة البلدية، وبعدها عمارة سكنية باسم (فكتوريا فلاتبلوك) وفيما وراءها منطقة بيوت الأغنياء القديمة التي يقطنها عادة الضباط المتقاعدون والأرامل العجائز اللاتي تقتنين القطط.. وكانت هذه البيوت تضم حقًّا تحفًا وأشياء ثمينة تدر نقودًا كثيرة في أسواق السياحة والسياح، مثل اللوحات الفنية والجواهر والتحف النادرة وما اليها..

وهكذا وصلنا في هدوء ويسر إلى البيت المعروف باسم (مانشن)، الذي قامت أمام بابه الخارجي كرتان مضيئتان فوق عمودين حديدين كأنهما ديدبانان.. ولاح لنا ضوء في نافذة إحدى حجرات الطابق الأرضي، فتقدمنا أولًا إلى بقعة منعزلة للمراقبة من خلال النافذة واستطلاع ما يدور بداخلها وكانت النافذة شبكة لقضبان حديدية وكأن البيت سجن، ولكننا استطعنا أن نرى ونراقب بما يجري بكل وضوح..

وقعت أنظارنا على امرأة عجوز ذات شعر أشيب ووجه كثير التجاعيد وكانت تصب من زجاجة في يدها لبنًا في أطباق صغيرة ثم تضعها على الأرض، وهو ما دلنا على وجود قطط كثيرة تموء وتتواثب في الحجرة.. وكان بوسعنا أن نبصر تلك العجوز وهي تخاطب القطط وتزجرها في نفس الوقت.. ولمحنا في الحجرة صورًا نفسية معلقة على الحوائط وساعات مزخرفة ثمينة، وزهريات ومقتنيات كثيرة غالية القيمة، حتى أن جورجي همس قائلًا:

- ياله من مال كثير نناله في مقابل هذه الأشياء يا إخواني... إن (ويلي الإنجليزي) ينتظرها بفارغ الصبر!..

فقال بيتر:

- وكيف الدخول؟..

كان الرد من اختصاصي، وقبل أن يفوه جورجي بكلمة قلت بصوت خفيض:

- أول شيء هو أن نجرب الطريقة المعتادة.. الباب الأمامي سأتقدم بكل أدب وأقول أن أحد أصحابي أصيب بنوبة اغماء في الشارع، ويكون جورجي مستعدًا للظهور عندما تفتح العجوز الباب. ثم أطلب منها كوب ماء أو الاتصال تليفونيًا بطبيب ومسألة الدخول بعد ذلك سهلة..

فقال جورجي:

- ربما لا تفتح الباب...

- سوف نجرب..

ثم قلت لبيتر وديم:

- أنتما يا إخواني ستقفان على جانبي الباب.. صح؟..

فأومآ إيجابًا في الظلام.. وفي الحال تقدمت بشجاعة إلى الباب الامامي وضغطت على جرس الباب حتى سمعت الرنين يتردد في الردهة.. ولما لم اسمع مجيبًا أدنيت فمي من فتحة صندوق البريد وناديت من خلالها بصوت مهذب:

- النجدة يا سيدتي من فضلك!.. لي صاحب أصيب بنوبة في الشارع، فأرجو تمكيني من الاتصال تليفونيًا بطبيب!..

وبعد قليل رأيت ضوءًا ينبعث في الردهة، ثم سمعت وقع خطي المرأة العجوز في (الشبشب) وهي تقترب من الباب الأمامي، ولا أدري لماذا خطر لي أنها جاءت تحمل قطتين كبيرتين تحت إبطيها وأخيرًا نادت بصوت قوي قائلة:

- ارجع!.. ارجع والا أطلقت النار!..

كاد جورجي يضحك عندما سمع هذا، أمّا أنا فقلت بلهجة الملهوف وبنفس النبرات المهذبة:

- أرجو المساعدة يا سيدتي!.. إن صاحبي في حالة سيئة جدًّا..

فجاء ردها قائلة:

- إذهب... أنا اعرف خدعكم القذرة، تجعلونني أفتح الباب ثم تبيعون أشياء لا أريدها.. قلت لك اذهب وأبتعد، والا اطلقت عليك قططي!..

في هذه اللحظة لاحت مني نظرة إلى نافذة علوية فوق الباب الأمامي، ورأيت أنّ هذه وسيلة سريعة للتسلق والدخول من هذه النافذة، والا أمضيت الليل كله في مجادلة العجوز وهكذا قلت لها:

- حسن يا سيدتي.. ما دمت لا تقدمين المساعدة فلابد لي من أخذ صاحبي المريض إلى مكان آخر..

واشرت إلى زملائي أن يلزموا الهدوء ورفعت صوتي في اتجاههم قائلًا:

- لا بأس يا صاحبي!.. سوف نجد بالتأكيد شخصًا خيرًا في مكان آخر.. ربما لا يمكن أن نلوم هذه السيدة المسنة لشكها، وهناك أشقياء وأشرار كثيرون يتجولون ليلًا!..

وانتظرنا قليلًا في الظلام، ثم قلت لهم همسًا:

- لا بأس اقتربوا من الباب سأصعد على كتفي ديم وافتح هذه النافذة وادخل منها.. وعندها سأسكت تلك العجوز وافتح لكم الباب.. لا صعوبة أبدًا!..

بهذا أردت أن أبين لرفاقي من هو الزعيم الفعلي وصاحب الافكار النيرة.. وقد قلت لهم:

- انظروا إلى هذا الا فريز فوق الباب!.. هو خير موطئ القدمي!..

فنظروا، وأعجبوا بالفكرة، وأومأوا برؤوسهم مؤيدين كان ديم هو أقوانا، وهكذا رفعني

جورجي وبيتر إلى كتفيه العريضين دون أن يفطن أحد إلى شيء غير عادي، لخلو المنطقة من المارَّة وقلة رجال الشرطة.. وكان الإفريز متينًا يحتمل ثقلي وكانت النافذة العلوية مغلقة، ولكنني أخرجت مطواتي الحادة وشققت الزجاج بمقبضها العظمي، ورفاقي يراقبون من تحتي محتبسي الأنفاس.. ولم ألبث أن مددت يدي من خلال الشق وأنزلت نصف النافذة السفلي بسهولة، ثم انزلقت إلى الداخل كما كنت أنزلق إلى (البانيو)، حتى لقد وقف رفاقي فاغري الأفواه مبهورين يا إخواني...

الفيتني في ظلام نسبي ومن حولي أسرة ودواليب ومقاعد ثقيلة، وأكوام من العلب والكتب.. بيد أنني تقدمت بجرأة إلى الباب.. وكان للباب صرير خافت عندما فتحته، ثم ألفيتني في ردهة متربة بها أبواب أخرى.. إن كل هذا الإسراف كان معناه يا إخواني، أنه ليس هناك سوى مخلوقة عجوز وقططها، أن القطط تنام منفردة في كل غرفة قطة، تعيش على اللبن ورؤوس السمك وكأنها ملكات أو أميرات!.. وكان بوسعي أن أسمع صوت العجوز في الداخل وهي تناجي القطط اذ تموء طلبًا لمزيد من اللبن..

ورأيت أمامي سلالم تهبط إلى الردهة، فبدا لي أن أثبت لرفاقي التافهين هؤلاء أنني أقدر من ثلاثتهم جميعًا ومثلهم معهم، وأن بوسعي أن أتم العملية كلها وحدي دون مساعد ولا نصير.. سأهجم على العجوز وقططها هجمة مباغتة، ثم أملأ يدي بما خف حمله وغلا ثمنه، وبعدها أعود إلى الباب الأمامي بحملي الثمين وأريهم الغنيمة بذهبها وفضتها تخطف أبصارهم وتذهب بألبابهم، وعندها يعرفون كل شيء عما هي الزعامة الحقيقية!..

هكذا أخذت أهبط برفق ومهل، معجبًا بلوحات معلقة من العهد القديم تمثل نساء مرسلات الشعر بياقات عالية، وحقولًا مخضرة ذات أشجار باسقة تتوسطها جياد مطهمة ونفذت الي أنفي روائح عطنة لقطط ورؤوس أسماك وجو معفر بالغبار.. وبعد هبوطي إلى الدور الارضي كان بوسعي أن أبصر الضوء في تلك الغرفة الأماميّة التي كانت فيها العجوز توزع اللبن على قططها - هذه القطط التي رأيتها الآن عن كثب تروح وتشدو محركة أذيالها متمسحة بعتبة الباب.. ووقع نظري في الردهة المعتمة على صندوق خشبي كبير علاه تمثال لطيف بارق في الضوء لفتاة نحيلة القوام واقفة على ساق واحدة ويداها مبسوطتان إلى الامام، وبدا لي أنه مصنوع من الفضة، فقررت أن آخذه لنفسي، وحملته معي وأنا أتقدم إلى الغرفة المضاءة قائلًا:

- ها ها!.. ها نحن قد تقابلنا!.. الظاهر أن حديثنا من خلال فتحة البريد لم يكن مرضيًا؟.. فلنعترف بهذا أيتها العجوز العجفاء العطنة!

قلت هذا وأنا أطرف بعيني في ضوء الغرفة والقطط تحوم أمامي فوق السجادة ونثار شعرها يملأ طبقة الهواء الأرضية وهي من كل الأشكال والألوان والأعمار والأمزجة..

وما لبثت العجوز آن رمتني بنظرة شزراء كأنها رجل وبادرتني قائلة:

- كيف دخلت إلى هنا؟.. مكانك أيها الوغد الشرير، والا اضطررت أن أضربك!..

لم أتمالك الابتسام لهذا التهديد وكانت ممسكة في يدها المعروقة بعصا خشبية تتوكأ عليها وقد رفعتها نحوي متوعدة ولكنني تقدمت نحوها متمهلًا، وفي طريقي لمحت فوق دولاب جانبي شيئًا صغيرًا بالغ الإبداع - بل هو أبدع شيء تهيأ لمن كان مثلي متيمًا بالموسيقى أن تكتحل عيناه

برؤياه، إذ كان تمثالًا نصفيًا للموسيقار الأكبر بتهوفن: ازدان بشعره المرسل وربطة عنقه الضافية.. وسرعان ما اتجهت إلى مكان التمثال بعينين مشغوفتين ويدين ممدودتين، وفي ذلك لم أبصر أطباق اللبن المنشورة على الأرض فزلت قدمي في واحد منها وفقدت توازني.. ولما حاولت التمالك كانت العجوز الماكرة قد جاءت من خلفي بأسرع مما يسمح به سنها وأخذت تنهال بالعصا على رأسي، حتى ألفيت نفسي ملقى على يدي وركبتي وأنا أردد:(يا شريرة يا شريرة يا شريرة!) بيد أنها لم تكف، ومضت تهوي على رأسي بعصاها وهي تقول: «يا أحقر وأحط مخلوق في الدنيا، تقتحم بيوت الناس الأكابر هكذا!؟»..

ولما تضايقت من هذا الضرب الموجع عالجت أن أمسك بطرف العصا وهي تهوي على رأسي مما أدى إلى أن تفقد العجوز توازنها هي الأخرى، وفي محاولة منها للاستناد إلى المائدة جذبت المفرش الذي يعلوها، فتدلي بقوّة وطوح معه بإبريق وزجاجة لبن انسكب ما فيها وتناثر في كافة الأنحاء، وهوت العجوز بدورها على الأرض وهي تزمجر: «لعنة الله عليك يا شقي، سوف تنال جزاءك!». عندئذ هبت القطط مذعورة تتواثب في كل مكان وهي تموء مواءً مؤثرًا وترتطم بعضها ببعض في هرج ومرج بالغين!..

وعالجت للوقوف على قدمي في اللحظة التي كانت فيها تلك العجوز الكريهة الحقود تحاول النهوض بدورها وهي تزمجر وتدمدم، فما كان مني الا أن رفستها بقدمي في وجهها المعروق المبقّع مما زاده تبقعًا وهي لا تكف عن الصراخ.

وفي تراجعي إلى الخلف بعد هذه الركلة لابد أنني دست بقدمي على إحدى القطط، اذ سمعت مواءها شرسًا، وأحسست بأسنان ومخالب تطبق على ساقي، فأخذت ألعن وأسب محاولًا تخليص ساقي.. وفي غضون ذلك كنت لا أزال ممسكًا في يدي بالتمثال الفضي محاولًا أن أخطو فوق العجوز اللعينة وهي على الأرض للوصول إلى مكان تمثال بتهوفن النصفي ولكن مرّة أخرى وجدتني وقد زلت قدمي في طبق آخر مليء بالكريم، واذا بي أتطاوح مرة ثانية في الهواء في منظر يثير الضحك لمن يرقب عن بعد، لولا أنه منظر محدثكم المتواضع!.. واستطاعت العجوز وهي على الأرض أن تمد يدها. من فوق القطط وتمسك بقدمي، فهويت على الأرض هذه المرّة، فيما بين رشاش اللبن والقطط المزمجرة، وانشأت العجوز تضربني بقبضتيها على وجهي وكلانا ممدد على الأرض وهي تصرخ: في قططها: «أضربوه!.. انهشوه!.. انزعوا أظافره!.. ابن الخنفساء السامة!».. وكأنما سمعت القطط وفهمت وأطاعت، فقد وثب فوقي قطان كبيران شرسان وأخذا يخمشانني فأثارني ذلك يا إخواني وجعلت أوجه ضرباتي إليهما ولكن العجوز اللعينة صاحت قائلة: «لا تلمس قططي يا سافل!..» وخدشتني في وجهي وعندئذٍ ثارت ثائرتي ورفعت التمثال الفضي وأنا أسبها سبًا قبيحًا وأهويت به على رأسها، فخرست تمامًا...

وما أن نهضت قائمًا من بين القطط المهتاجة حولي حتى سمعت - ويا لي سمعت! - دوي صوت (سرينة) الشرطة على البعد، فتبينت الآن في بارقة فكر خاطفة أن العجوز الخبيثة اتصلت بالشرطة تليفونيًا، وكنت أتوهم أنها تناجي قططها حالما دققت الجرس بإلحاح مما أثار شكوكها... وهكذا أسرعت إلى الباب الأمامي وأنا أتعثر في فتح كافة الأقفال والسلاسل والزلاجات التي كانت تحصن الأبواب... ولما فتحت الباب أخيرًا، فمن تظنون أنه كان واقفًا أمامه سوى ديم؟!!.. ولمحت بنظرة خاطفة رفيقي الآخرين يلوذان بالفرار!..

وقتها صرخت في ديم قائلًا:

- ابتعد بسرعة!.. الشرطة في الطريق!.

فرد ديم مقهقهًا:

- انتظرت أنت لمقابلتهم!..

ولمحت السلسلة في يده... وعاجلني بضربة أهوى بها على جفوني، ولولا أنني أغمضتها بسرعة لفقدت البصر... ثم ألفيتني أدور حولي صارخًا من فرط الالم وأنا لا أكاد أبصر وعاد ديم يقول:

- ما لم أكن أحب أن تفعل بي ما فعلت أيها الزميل الحميم... ولم يكن من المناسب أن تهاجمني كما هاجمتني يا حقير!..

وعلى الأثر سمعت وقع حذائه الثقيل وهو يركض مبتعدًا في الظلام ولا يكف عن القهقهة... ولم يمض أكثر من ثوان معدودة حتى كانت سيارة الشرطة تتوقف عن كثب بعد ان أرسلت سرينتها عويلًا مشئومًا...

وكنت أتخبط بين جدران المدخل مغمضًا وعيناي تسحان سحًا عندما داهمني رجال الشرطة واطبقوا عليّ وحملوني إلى الخارج وكان بوسعي أن أسمع صوت أحدهم وهو يقول من داخل الغرفة التي كنت فيها مع القطط:

- إنها مضروبة ضربًا مميتًا... لكنّها تتنفس...

وسمعت صوتًا آخر وهو يدفعني بغلظة وعنف إلى قلب السيارة قائلًا:

- هذا من دواعي سرورنا العظيم، يا أليكس الصغير!..

فلم أتمالك أن صرخت:

- أنا عميت، أهلككم الله، يا أولاد الحرام!..

فسمعت من يقول ويده تلطم فمي:

- تهذب!.. تهذب...

غير أنني لم أصمت، ورحت أقول:

- يا ملاعين... أين الآخرون؟.. أين زملائي الخونة الأوساخ.. إن واحدًا منهم ضربني بالسلسلة على عيني!... الحقوهم قبل أن يفلتوا!.. كانت كلها فكرتهم يا إخواني!.. انهم أجبروني على أن أفعل هذا!.. أنا بريء، قاتلكم الله!..

راحوا يبتسمون بمنتهي الاستخفاف وهم يدفعونني إلى داخل السيارة في المقعد الخلفي، لكنني تابعت الحملة على أصحابي المزعومين، وان بدا لي أنه لا فائدة من هذا، لأنهم لابد قد عادوا الآن إلى بار دوق نيويورك وأخذوا يتحفون أولئك النسوة العجائز بالشراب وهن لا يشبعن من ترديد هذه العبارات: «شكرًا يا فتيان!. بارك الله فيكم يا أولاد!. كنتم هنا طول الوقت يا شباب!.

ولم تغيبوا عن أنظارنا لحظة واحدة!.»..

وفي خلال ذلك كانت سيارة ماضية في طريقها إلى قسم الشرطة وسرينتها الزاعقة لا تكف عن الولولة وأنا محشور بين اثنين من رجال الشرطة كانا لا يكفان عن اسكاتي بأيديهما الغليظة كلما تماديت في الاحتجاج وعندما استطعت فتح عيني في النهاية رأيت من خلال الدموع مدينة تنطوي تباعًا والأنوار تتلاحق بعضها أثر بعض والشرطيين اللذين انحشرت بينهما لا يكفان عن الابتسام والسائق النحيل الدقة عاكف على عجلة القيادة وإلى جانبه آخر غليظ الرقبة هو الذي كان يوجه الكلام إليّ قائلًا:

- حسن يا أليكس يا بني... إننا جميعًا مشتاقون إلى أمسية سارة معك، أليس كذلك؟..

- كيف تعرف اسمي يا شبيه الثور؟.. أدعو الله أن يطوح بك في قرار الجحيم!.

فتقبلوا هذا بمزيد من الابتسام مع ما تيسر من الوكز من قبل الشرطيين اللذين حشرت بينهما، بينما رد الشرطي غليظ الرقبة قائلًا:

- كل الناس تعرف أليكس الصغير ورفاقه.. إن أليكس قد أصبح شخصيّة مشهورة جدًّا!.

فصحت قائلًا:

- إنهم هم المذنبون!.. جورجي وديم وبيتر... إن اولاد الحرام هؤلاء ليسوا أصحابي!

فقال غليظ العنق:

- لا بأس... أمامك الليل بطوله لكي تحكي حكايتك كلها ومغامراتك الجريئة مع هؤلاء السادة الفتيان، وكيف قادوا أليكس الصغير البريء إلى طريق الفساد...

وعندئذ ترامى إلى سمعي صوت (سرينة) سيارة بوليسية أخرى، ولكنّها كانت تسير في الاتجاه الآخر، فقلت:

- هذه السيارة من أجل أولاد الحرام هؤلاء؟.

فأجاب غليظ العنق:

- هذه سيارة اسعاف... هي بلا شك في الطريق إلى ضحيتك العجوز، أيها الوغد البشع...

فصرخت قائلًا وأنا أطرف بعيني الموجوعتين بشدة:

- الذنب ذنبهم!.. إنهم يشربون الآن في بار دوق نيويورك!.. اقبضوا عليهم، لعنة الله عليكم...

ومرة أخرى كان الابتسام يا إخواني والوكز على الفم... ولما وصلنا إلى قسم الشرطة ساعدوني على النزول من السيارة وصعود درجات السلم بالدفع والركل، وأيقنت أنني لن أنتظر أدنى رحمة ولا ترفق من هؤلاء الزبانية، قبحهم الله!..

الفصـل السـابع

سحبوني إلى داخل هذه (المضيفة) ذات الطلاء الأبيض الزاهي، وكانت تفوح منها رائحة نفاذة هي خليط من روائح القيء والمراحيض والأفواه المخمورة والمطهرات، تنبعث كلها من الزنزانات المشبكة بالقضبان عن كثب: ممتزجة بأصوات الشباب والغناء الصادرة من نزلائها... ولكن كان يتخللها أصوات رجال الشرطة وهم ينتهرونهم لكي يخرسوا، بل سمعت خلال هذا كله أصوات من يُضربون لخروجهم على النظام، وخيل إليّ أن من بين هؤلاء صوت امرأة سكرانة...

وكان معي في المكان الذي أدخلت اليه أربعة من رجال الشرطة جلسوا إلى طاولة يشربون شايًا من إناء كبير وهم يمصمصون ويتجشأون تلذذًا ومتاعًا... وهم لم يقدموا لي شيئًا مما يحتسون، كل ما قدموه لي هو مرآة متآكلة يا إخواني لكي أنظر فيها!.. وحقًا لم أكن ما أبصرته هو وجه محدثكم المتواضع، بل كان مشهدًا مؤثرًا لسحنة بدا فيها الفم مورمًا والعينان حمراوين والأنف أفطس ولم يتمالك رجال الشرطة من الابتسام عندما شاهدوا جزعي وارتياعي حتى قال قائل منهم متفكهًا: «أرأيت جمال محياك»؟!..

وبعد قليل جاء ضابط تعلو كتفيه نجوم لامعة لبيان قدره ومنزلته بينهم، وعندما رآني لم يزد عن قوله:

- ابدأوا...

فقلت:

- لن أقول كلمة واحدة ما لم يحضر معي محامي.. أنا أعرف القانون يا ملاعين!..

ابتسموا جميعًا ابتسامات عريضة لهذا الكلام، وقال الضابط:

- صح صح صح يا أولاد!.. سنبدأ معه بأن نريه أننا أيضًا نعرف القانون... لكن هذه المعرفة بالقانون ليست كل شيء..

كانت لهجة الضابط رقيقة مهذبة، ولكنّها كانت تنبئ عن التعب والتبرم.. وما لبث أن أومأ برأسه بابتسامة إلى شرطي ضخم سمين... فنزع هذا الشرطي الضخم السمين كسوته حتى بدا كرشه في مثل ضخامته. ثم تقدم منى غير متعجل ورائحة الشاي باللبن الذي كان يشربه تفوح قوية من فمه المنفرج سخرية مني... ولم يكن حليق الوجه تمامًا كما ينبغي لرجل الشرطة، وبدت بقع من العرق الجاف تحت إبطي قميصه... وما أن اقترب مني حتى أطبق يده المحمرة الزنخة وسدد ضربة في صميم بطني مما لم يكن من العدل في شيء، فتلقي زملاؤه هذا بالابتسام فيما عدا رئيسهم الضابط الذي لم تفارق وجهه ابتسامة التعب والتبرم.. تأثير الضربة أنني استندت إلى الحائط المطلي حتى التصق الطلاء الابيض بملابسي في محاولتي لالتقاط أنفاسي في ألم وكرب بالغين، ووقتها أردت أن أقيء الفطيرة التي كنت قد تناولتها في مستهل الأمسية، لكنني لم أحتمل

أن أقيء على الأرض، وهكذا تماسكت... وعندما لمحت هذا الشرطي الضخم السمين يستدير مواجهًا زملاءه بابتسامة عريضة رضاء عما فعله، رفعت قدمي اليمنى، وقبل أن يحذروه رفسته رفسة قوية في قصبة الساق، فصرخ عاليًا وأخذ يحجل دائرًا على نفسه...

لكن بعد هذا تداولوني جميعًا كل بدوره، يتقاذفونني بينهم مثل كرة صماء... آه يا إخواني... لقد انهالت لكماتهم أسفل بطني وفمي مشفوعة بركل الأقدام، حتى لم أتمالك أن تقايأت على الأرض، وإن رحت اقول لهم: «آسف يا إخواني، لم يكن هذا لائقًا مني!.. آسف... آسف...».. لكنهم أعطوني قصاصات جريدة وجعلوني أمسح القيء، وانثر بعد المسح نشارة الخشب.. وبعد ذلك قالوا لي متوددين كما لو كنا اصحابًا أن أجلس ليدور بيننا حديث هادئ...

ثم جاء السيد دلتويد المشرف الإصلاحي وكان مكتبه في نفس المبنى وهو بادي التعب والضيق، فبادرني قائلًا:

- إذن فقد حدث ما كنت اتوقعه يا أليكس يا ولد؟! يا خسارة!..

ثم التفت إلى رجال الشرطة قائلًا:

- مساء الخير أيها المفتش مساء الخير أيها الرقيب... مساء الخير لكم جميعًا... لا بأس... هذه خاتمة المطاف فيما تختص بي... يا ألف خسارة!.. كم يبدو هذا الولد في أشنع حال.. انظروا إلى شكله!.

فقال الضابط بصوت رصين:

- العنف يولد العنف... لقد قاوم معتقليه الشرعيين..

فقال دلتويد مرّة أخرى:

- هذا خاتمة المطاف فيما يختص بي!

ونظر إليّ بعينين باردتين جدًّا كما لو كنت قد استحلت إلى جماد ولست بشرًا مثخنًا بالضرب مضعضعًا داميًا، ثم قال:

- أظن أنه لابد أن أوجد في المحكمة غدًا...

عندئذ قلت له وأنا أقرب إلى البكاء:

- لم أكن أنا السبب يا سيدي الأخ... إن غدر وخيانة الآخرين هو ما استدرجني إلى هذا يا سيدي..

فقال الضابط ساخرًا:

- يا للكلام المعسول!..

وقال السيد دلتويد ببروده البالغ:

- سوف أتكلم سأكون هناك غدًا، فلا تقلق...

فقال الضابط:

- إن أردت يا سيدي أن تتحفه بشيء من عندك فلن نمانع... بالإمكان أن نمسك به لك... لابد أنه كان مصدر خيبة أمل كبرى لديك!..

وهنا أقدم السيد دلتويد على شيء لم أتصور قط أن رجلًا مثله، يفترض فيه العمل على اصلاح المنحرفين، أن يقدم على مثله، خصوصًا في حضور أفراد الشرطة!.. فقد اقترب مني وبصق.. بصق على وجهي بملء فمه... ثم مسح فمه المبلل بظهر يده!.. أمّا أنا فقد رحت أمسح وجهي مرة وثانية وثالثة بمنديلي الملوث بالدم وأنا أقول:

- شكرًا لك يا سيدي... شكرًا جزيلا يا سيدي!.. هذا لطف عظيم منك يا سيدى، شكرًا لك!

ثم خرج السيد دلتويد دون كلمة أخرى..

واستعد رجال الشرطة لإعداد المحضر المطلوب وتوقيعي عليه، فقلت لنفسي: سحقًا لكم جميعًا!.. اذا كنتم بهذه النذالة وأنتم في جانب الصلاح، فكم يسرني أن أكون في الجانب الآخر!..

وهكذا قلت لهم بصوت مرتفع:

- لا بأس يا ملاعين!.. خذوا عني ما تريدون!.. لن الجأ إلى الاستعطاف أمامكم والزحف على ركبتي!.. من أين تريدون أن أبدأ يا حيوانات؟.. من فترتي الاصلاحية؟ هاكم اذن كل ما تريدون!.

وهكذا رحت أسرد أمامهم كل شيء، وأمامي كاتب الاختزال الرسمي.. ذلك المخلوق الناحل البائس يدون صفحة بعد صفحة منذ بداية المغامرات الليلية الأخيرة، من ضرب وتحطيم وسطو واغتصاب، إلى اقتحام بيت العجوز صاحبة القطط المتواثبة وقد حرصت على بيان دور أصحابي المزعومين في كل تلك الأفعال.. وما أن انتهى المختزل البائس من تدوين كل وقائع المحضر حتى بدا أقرب إلى الإعياء... فقال له الضابط متلطفًا:

- حسن يا بني... قم وخذ كوبًا من الشاي ينعشك، ثم انسخ لنا كل هذه القاذورات من ثلاث صور بعد أن تسد أنفك بمشبك غسيل... وبعد هذا هات المحضر كله إلى صديقنا الصغير ليمهره بإمضائه الكريم!..

ثم التفت إليّ قائلًا:

- وأنت... بإمكانك الآن أن تذهب معهم إلى (جناح الزفاف) ذي المياه الجارية وكل وسائل الراحة!..

واختتم بصوته المكدود قائلًا لاثنين من رجاله الاشداء:

- خذوه..

وهكذا اقتادوني بالعنف والركل واللكم إلى قسم الزنزانات وأودعوني في واحدة منها تضم عشرة أو اثني عشر من المقبوض عليهم، أغلبهم من السكارى... كان بينهم أنواع الحيوانات... منهم مخلوق متآكل الأنف وفمه مفغور مثل جب مظلم، وآخر ممدد على الأرض يغط غطيطًا

عاليًا وفمه يسح لعابًا ملتاثًا... وثالث بدا وكأنه تغوط في بنطلونه... ثم كان بينهم اثنان راحا ينظران إليّ نظرات غريبة وعندما حاول أحدهما الاقتراب مني اعترضه الثاني لكي يسبقه، فتماسكا وتضاربا وكان لهما صياح استقدم اثنين من رجال الشرطة انهالا عليهما بعصي غليظة قصيرة حتى ارتدا خافين مقهورين ولزما السكون مكانهما، وان بدت قطرات الدم تنحدر من فم أحدهما...

وكان في الزنزانة دكك ذات سطحين، قائمة على أربعة عمد، ولكنّها كانت مشغولة... فتسلقت الى سطح إحداها وكان بها سكير يغط بصوت عالٍ، ولعل الشرطة هم الذين طوحوا به عاليًا.. فما كان مني إلا أن جذبته إلى أسفل إذ لم يكن ثقيلًا، فهوى فوق سكير سمين آخر كان على الأرض، ولكنهما أفاقا وأخذا في الصراخ وتبادلا الوكز بصورة مؤثرة.. وهكذا تمددت يا إخواني فوق سطح هذه الدكة الكريهة الرائحة، وسرعان ما غلبني الاعياء والضنى واستسلمت لنوم بدا وكأنني انتقلت به إلى عالم آخر أفضل... وفي هذا العالم الأفضل رأيت يا إخواني وكأنني في حفل كبير تتخلّله الأشجار والأزهار وبه ما يشبه عنزة بوجه رجل يعزف على مزمار... ثم بزغ أمامي كما تبزغ الشمس وجه بتهوفن ذاته: وسمعت السيمفونية التاسعة تعزف في مقاطعها الأخيرة... فما أفقت من نومي الرحيم بعد دقيقتين أو عشر أو عشرين ساعة أو أيام أو سنوات إلا على صوت يوقظني بعنف... وإذا شرطي أسفل مني بما بدا أنه مسافة أميال ينخسني بعصا مدببة في طرفها شوكة ويقول لي:

- اصح يا ابني... اصح يا (حليوة)!.. أصح لمواجهة المتاعب!.

- لماذا؟.. من؟.. أين؟.. ماذا جرى؟!..

وتلاشى من داخلي عزف النغم العذب ثم عاد الشرطي يقول:

- انزل واعرف بنفسك... هناك أخبار سارّة لك يا بني..

وهكذا رحت انزل متصلبًا موجعًا وأنا في نصف يقظة وما لبث هذا الشرطي الذي كانت تفوح منه رائحة الجبن والبصل أن أخذ يدفعني من الزنزانة القذرة المتجاوبة بالغطيط عبر ممماش وما زالت أصداء السيمفونية الساحرة مترددة في وجداني... ووصلنا إلى غرفة نظيفة بها آلات كاتبة وزهور فوق المكاتب وقد جلس الضابط إلى المكتب الكبير وعلى وجهه ملامح الجد والخطورة مركزًا نظرات باردة جدًّا على وجهي، فقلت له:

- حسن، حسن، حسن!.. ماذا جرى في الدنيا..

فقال لي:

- سأمهلك عشر ثوان فقط لكي تزيح عن وجهك تلك البسمة الغبية.. وبعدها أريد أن تنصت...

فقلت باسمًا:

- حسن... ماذا؟.. ألم يكفكم أنكم ضربتموني ضربًا مهينًا وجئتم بمن يبصق على وجهي وأجبرتموني على الاعتراف بجرائم استغرقت ساعات بطولها، ثم طوحتم بي بين أحقر المجرمين في هذه الزنزانة العفنة!!.. هل عندكم عذاب جديد لي أيها الملاعين؟.

فقال بلهجة الجد:

- سيكون العذاب منك واليك... أدعو الله أن يوصلك العذاب إلى الجنون...

وعندئذ، وقبل أن يفضي إليّ بما يقصد، علمت من تلقاء نفسي بما جاء به... فإن المرأة العجوز صاحبة القطط قد انتقلت إلى عالم آخر أفضل في أحد مستشفيات المدينة... والظاهر أنني وجهت إليها ضربة كانت القاضية!.

هكذا حرمت القطط من ربتها الحانية التي كانت تسقيها اللبن!..

وكنت أنا القاتل، ولم أتجاوز الخامسة عشرة بعد!..

القســم الثـاني

الفصـل الأول

ماذا سيكون إذن، يا ترى؟..

أعود الآن إلى استئناف سرد قصتي، يا إخواني وأصدقائي الوحيدين، وهو الجانب المبكي والمأساوي في القصة، بدءًا من السجن العمومي... وقد لا تكون لديكم رغبة في الاستماع إلى هول الصدمة التي جعلت أبي يضرب يديه في الجدران حتى أدماهما، وأفضت بأمي إلى التواء فكيها توجعًا وأنينًا في تفجعها لما انتهى إليه وحيدها وفلذة كبدها من مصير مشئوم ولن أفيض كثيرًا في الحديث عما فاه به قاضي الإحالة من تلك الكلمات القاسية في حق صديقكم ومحدثكم المتواضع، في أعقاب ما نالني قبلها من بصق السيد دلتويد على وجهي وإذلال رجال الشرطة لي... ثم كانت المحاكمة في المحكمة العليا أمام القضاة والمحلفين وما أقترن بها من تلك الأقوال اللاذعة والنعوت الدامغة تفضلوا بها بكل رصانة ووقار... ثم صراخ أمي عند صدور الحكم بالإدانة والسجن لمدّة أربع عشرة سنة!..

أواه يا إخواني!.. وهأنذا الآن وقد انصرم عامان منذ اليوم الذي أدخلت فيه إلى السجن العمومي تركلني الاقدام وتعلوني كسوة السجن طبقًا لآخر صيحة في عالم الأزياء: بذلة من قطعة واحدة ذات لون بشع، مزدانة برقم خيط على الصدر فوق موضع القلب الخفاق وعلى الظهر أيضًا، وهكذا لا أروح ولا أغدو الا معروفًا برقم ٦٦٥٥٣٢١، وليس صاحبكم الصغير أليكس الذي لم يبق لاسمه وجود!..

لم يكن من المجد في شيء أن أحل على مدار عامين في ذلك الجحر من الجحيم أو (حديقة الحيوان البشريّة) أتلقى فيها الضرب والركل على أيدي حراس قساة غلاظ الأكباد وأخالط حثالة المجرمين ومنهم عتاة معتادي الاجرام يتحفزون للانقضاض على فتى غض مثل راوي هذه القصة لكم!.. ثم كان هناك ذلك الشغل الإجباري في ورش السجن لصنع علب الكبريت وما إليها، وبعدها الدوران إلى ما لانهاية في ساحة السجن فيما يسموّنه التمارين الرياضية، ثم نقاد في بعض الأمسيات كالقطيع للاستماع إلى بعض الأساتذة المتحذلقين يحدثوننا أحاديث غريبة عن الخنافس أو (درب اللبانة) أو عجائب رقائق الثلوج... وفي الحق إنني لم أتمالك من الابتسام عند سماعي اسم هذه الرقائق، فقد ذكرتني بتلك المناسبة التي لم أنسها عندما قمت مع رفاقي السابقين بالاعتداء بالضرب الوحشي ليلًا على ذلك المدرس الذي كان خارجًا لتوه من مكتبة البلدية متأبطًا كتبه المستعارة - حين كان أولئك الرفاق على ولائهم لي وبعدهم عن خيانة عهد الزمالة وكنت أنا سعيدًا حرًا.. وعن أولئك الرفاق فلم أعد أسمع شيئًا، إلا عندما زارني أبي وأمي في السجن وقيل لي أن جورجي قد لقى حتفه.. نعم يا إخواني. لقى حتفه وأصبح مثل جيفة كلب ميت على قارعة الطريق.. فإن جورجي أغرى رفاقه بالسطو على بيت رجل موسر حيث اعتدوا عليه بالضرب وأخذ جورجي ينزع الستائر والطنافس وانهمك ديم في البحث عن التحف والنفائس، غير أن صاحب البيت هاله ما حدث واستعان بقضيب حديدي مدافعًا عن نفسه وماله، فهرب ديم وبيتر من النافذة، ولكن جورجي تعثر في السجادة، وعندها هوى الرجل على رأسه بالقضيب الحديدي، فكانت هذه نهاية جورجي الخائن!.. وقد أُخلي سبيل الرجل بعامل الدفاع عن النفس وهو حق

عادل ومشروع، وهكذا لقي جورجي جزاءه عما كان من خيانته لي، وهذا من تصاريف القدر، ولاشك!..

واستأنف القصة في السجن العمومي فأقول، يا إخواني ترونني في جناح الكنيسة صباح يوم أحد والقس يُلقي موعظته لقد أسندوا إليّ ادارة (الستيريو) بوضع اسطوانات الموسيقى الكنسية اللائقة للعزف مع الترانيم في مستهلها ونهايتها وفي منتصفها أيضًا.. وكان مكاني قرب موقف الحراس الغلاظ المسلحين بالبنادق، وكان بوسعي أن أرى السجناء جالسين يستمعون إلى الترانيم وهم بملابسهم الشنيعة، تنبعث منهم تلك الروائح العطنة المقززة التي لا تكون إلا من نزلاء السجون.. ولا أجزم إن كانت لي هذه الرائحة بعد أن انخرطت في زمر المجرمين، وإن كنت لا أزال في مستهل الصبا!. وهكذا كان من الأهميّة عندي أن أخرج يا إخواني من (حديقة الحيوانات) العفنة هذه بأقرب ما أستطيع ولسوف ترون وأنتم تتابعون هذه القصة أنه لم يمض وقت طويل حتى تحقق لي هذا على نحو معجز يفوق حدود التصور!..

لقد راح القس واعظ السجن يقول تكرارًا:

- ترى ماذا سيكون بعد؟.. هل يستمر الحال على هذا النمط دخولًا وخروجًا ثم دخولًا وخروجًا من المؤسسات الاصلاحية إلى ما لا نهاية، وإن كان الدخول أكثر من الخروج بالنسبة لمعظمكم؟. أم أنكم سوف تستمعون إلى كلمة الرب وتدركون العقاب الذي ينتظر الخاطئين غير التائبين في عالم الآخرة، كما في هذه الدنيا؟.

يا لأكثركم من عصبة من الحمقى إذ تبيعون آدميتكم لقاء كل رخيص وتافه - لقاء مغامرات السرقة والعنف ومفردات الحياة السهلة!.. هل يستأهل هذا منكم وأمامنا الأدلّة التي لا نكران لها وجدال فيها بأن جهنم ماثلة وقائمة؟.. إنني أعرف يا أصدقائي، وقد نبئت به في الرؤى الصادقة، أن ثمّة مكانًا هو أشد ظلمة من أي سجن، وأحر لظى من أي نار يوقدها البشر، فيه يكون لأرواح الخاطئين المجرمين وغير التائبين من أمثالكم - ولا تسخروا مني ولا تضحكوا لعنكم الله - أقول فيه يصرخون من عذاب أبدي لا يطاق، وتختنق أنوفهم بروائح الأدران، وتحشى أفواههم بجمرات النار المتقدة، وتشوى جلودهم حتى تتلاشى من الأبدان، وتنصهر أحشاؤهم من هول العذاب الأليم!..

وعند هذا الحد يا إخواني، عمد مجرم قرب الصفوف الخلفيّة إلى إطلاق موسيقى الشفاه، وإذا الحراس الغلاظ يندفعون سراعًا إلى الموضع الذي ظنوا أنه مصدر الصوت، معملين هراواتهم يمينًا وشمالًا في السجناء حيثما اتفق، ثم استخلصوا سجينًا مسكينًا راعشًا بالغ النحول وسحبوه من مكانه وهو يصرخ قائلًا:

- لست أنا!.. هو هناك!.. انظروا...

بيد أنّ هذا لم يغير من الواقع شيئًا.. فقد انهالوا عليه بالضرب المبرح، ثم جذبوه إلى خارج جناح السجن وصراخه يصم الآذان..

وقال واعظ السجن:

- والآن، انصتوا إلى كلمة الرب..

ثم تناول كتاب الترانيم الضخم وأخذ يقلب صفحاته مبللًا أصابعه وهو يفعل هذا بشفتيه.. كان رجلًا ضخم الجسم شديد احمرار الوجه، بيد أنه كثير العطف عليّ لصغر سني ولأنني الآن رحت أبدي اهتمامًا كبيرًا بكتاب الترانيم.. فقد تقرر كجزء من عملية اصلاحي أن أقرأ في هذا الكتاب، بل لقد سمح لي أن أدير (ستيريو) الكنيسة أثناء قراءتي.. وذات يوم قال لي القس وهو يشد على يدي:

- آه يا رقم ٦٦٥٥٣٢١، فكر في معاناة القديسين، وتأمل في نعيم الآخرة بعد طول المعاناة...

وفي خلال ذلك كانت تفوح منه رائحة (الاسكوتش)، وكان يدلف إلى مقصورته الصغيرة بين وقت وآخر لكي يتناول المزيد من هذا الشراب..

هكذا كنت أقرأ في الكتاب أثناء عزف الستيريو موسيقي باخ العذبة ثم أغمض عيني وأسبح في عالم الخيال حتى أتصور نفسي وقد لبست رداء الكهنوت... ومن هذا ترون يا إخواني أن وجودي في السجن العمومي لم يكن مضيعة للوقت، بل لقد ترامى الخبر إلى محافظ السجن ذاته، فأبدى سروره إذ سمع أنني أصبحت ميالًا إلى التدين وكانت هذه بداية الأمل الذي تولد في نفسي..

ومهما يكن يا إخواني فانه بعد انتهاء الوعظ يوم الاحد ذلك وانسحاب السجناء عائدين إلى زنزاناتهم في صخب وجلبة والحراس الغلاظ لا يكفون عن ملاحقتهم بالسباب والركل، وبعد أن أقفلت الستيريو في النهاية - اقترب الواعظ مني وهو ينفث دخان سيجارة كانت في ملابسه، ثم ابتدرني قائلًا:

- شكرًا لك دائمًا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ وما هي الأخبار التي عندك لي اليوم؟..

والحكاية هي أنني علمت أنّ هذا الواعظ كان يتطلع إلى الترقي في مراتب كهنوت السجون، وكان بحاجة إلى تزكية قوية من محافظ السجن، وهكذا كان يسعى إلى المحافظ بين حين وآخر خفية ويدلي إليه بأنباء المؤامرات السرية التي يديرها السجناء، وكان يستقي الكثير منها عن طريقي!.. والواقع أن الكثير منها كان مختلقًا، وإن كان بعضها حقيقيًا، مثال ذلك ما علمناه في (دوائرنا) عن طريق الدق على مواسير المياه، من أن المسجون هاريمان الضخم يدبر للهرب من السجن، إذ كان في النية أن يفاجئ الحارس وقت النوم ويأخذه على غرة ثم يخرج مرتديًا ملابسه.. ثم كانت هناك المحاولة التي تدبر في عنبر الأكل لإلقاء طعام السجناء البشع على الارض احتجاجًا وتمردًا، وهو ما أبلغت الواعظ عنه أيضًا وقد نقل الواعظ هذا كله إلى محافظ السجن وقوبل بالثناء..

أمّا الآن فقد قلت للواعظ، وهو ما لم يكن صحيحًا:

- حسن يا سيدي.. لقد تداول الخبر عن طريق المواسير بأن كمية من الكوكايين قد وصلت بطرق ملتوية، وإن إحدى الزنزانات في عنبر ٥ ستكون مركز التوزيع..

لقد اخترعت هذه القصة فيما كنت أخترع من غيرها، لكن الواعظ بدا شديد الامتنان قائلًا:

- جميل، جميل، جميل!.. سأنقل هذا إلى فخامته!..

و(فخامته) هو محافظ السجن طبعًا.. وقد قلت له:

- سيدي، إنني أديت واجبي، أليس كذلك..؟ لقد تعبت في هذا كثيرًا، ألا ترى هذا يا سيدي؟..

فقال الواعظ:

- أظن عمومًا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ أنك فعلت هذا.. في تقديري أنك أسديت مساعدة تذكر وأظهرت رغبة حقيقيّة في الصلاح وإذا استمررت في هذا النهج فسوف تفوز بالإفراج عنك دون مشكلة على الإطلاق..

فقلت له:

- لكن يا سيدي، ماذا هناك بخصوص هذا النظام الجديد الذي يتحدثون عنه.. ماذا عن تلك المعاملة الجديدة التي تؤدي إلى الخروج من السجن في فترة قليلة وتضمن ألا يعود السجين إليه أبدًا.

فأجاب في حذر وتحفظ:

- آه... أين سمعت هذا؟.. من أخبرك بمثل هذه الأمور..

فقلت:

- هذه الأشياء تتردد وتصل إلى الأسماع يا سيدي هناك حارسان قالا كلامًا، ولا يستطيع الانسان ألا أن يسمع ما يُقال وبعدها يلتقط أحدهم قصاصة جريدة في ورش السجن وينشر في الجريدة كل شيء عن الموضوع... ما رأيك يا سيدي في أن تتفضل وتخبرني بالموضوع، إذا تجاسرت وطلبت منك هذا؟..

فبدا أنه يفكر في هذا الاقتراح وهو ينفث دخان سيجارته، متدبرًا ماذا يمكنه أن يقول لي عن هذا الموضوع الذي طرقته أمامه. وما لبث أن قال وهو لا يزال على عذره:

- أفهم أنك تشير إلى (طريقة لودوفيكو)؟..

فقلت له:

- أنا لا أعرف ماذا يسمونها يا سيدي. كل ما أعرفه هو أنها تهيئ لك الخروج من السجن سريعًا وتضمن عدم عودتك اليه..

فأجاب وهو يرمقني بنظراته في شيء من القطوب:

- هو كما تقول يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ وبالطبع فإن المشروع هو في المرحلة التجريبية فقط في الوقت الراهن.. وهو مشروع بسيط ولكنّه ناجع جدًّا..

فقلت للواعظ:

- لكنه يجري استخدامه هنا الآن، أليس كذلك يا سيدي؟ هناك تلك المباني البيضاء الجديدة قرب السور الجنوبي يا سيدي.. إننا راقبنا تلك المباني وهي في دور البناء يا سيدي، ونحن نؤدي التمرينات الرياضية..

فقال الواعظ:

- إن المباني لم تستخدم بعد، ليس في هذا السجن يا رقم ٦٦٥٥٣٢١.. وفخامة المحافظ نفسه لديه شكوك قوية حول الموضوع.. ولابد أن أعترف بأنني أشاطره شكوكه.. والمسألة هي فيما إذا كان يمكن أن تؤدي هذه الطريقة حقًّا إلى جعل الإنسان صالحًا.. ان الصلاح ينبع من داخل الذات يا رقم ٦٦٥٥٣٢١... الصلاح شيء مرهون بالاختيار.. وإذا كان الانسان لا يستطيع الاختيار، فإنه لا يبقى انسانًا..

وكان يمكن أن يتوسع في الحديث عن هذه المسألة، لولا اننا سمعنا أصوات المجموعة الأخيرة من السجناء وهي تهبط في السلالم الحديدية لتلقى دورها في الوعظ وهكذا أردف قائلًا:

- سيكون لنا حديث في الموضوع في وقت آخر.. والآن يحسن أن تقوم بمهمتك..

وهكذا انتقلت إلى موضع (الستيريو) ووضعت معزوفة باخ الرعوية في الوقت الذي أقبلت فيه صفوف أولئك المجرمين بجلبتهم المدوية كأنهم أفواج من النسانيس، وسرعان ما أنشأ القس يُلقي موعظته مرة أخرى..

كانت هذه الدورات الدينية تتكرر أربع مرات أيام الأحاد، ولما انتهت هذه الدورة لم أجد عند الواعظ ما يقوله لي من جديد من (طريقة لودوفيكو) تلك، مهما يكن من كنهها!..

وعندما فرغت من مهمتي مع (الستيريو) اختصني ببعض كلمات الشكر، وبعدها أعادوني إلى زنزانتي في العنبر رقم ٦، ويا له من مباءة مكتظة عطنة إلى أبعد الحدود!.. ولم يكن الحارس الذي تلقاني مخلوقًا فظًا مثل زملائه، فلم يضربني ولم يركلني عندما فتح لي الباب، وإنّما قال لي:

- على الرحب يا بني في موطنك!..

وهكذا عدت إلى رفقة أصحابي الجدد وكانوا جميعًا من عتاة المجرمين، لكنهم والحمد لله لم يكونوا من الشواذ.. كان منهم المدعو (زوفار) فوق دكته، وهو مخلوق أسمر شديد النحول لم يكن يكف عن الكلام والثرثرة، لهذا لم يتكلف أحد عناء الاستماع اليه.. وكان منهم (وال) الذي لم يكن له سوى عين واحدة، وكان لا يكف عن قضم أظافر قدميه.. ثم كان منهم أيضًا (اليهودي السمين)، وكان مفرط البدانة والعرق يظل أكثر الوقت ممددًا فوق دكته كالأموات.. وإلى جانب هؤلاء كان هناك (جوجون) و(الطبيب).. كان (جوجون) مخلوقًا خبيثًا ماكرًا وكان تخصصه في الاعتداء على النساء.. أمّا (الطبيب) فقد كان يدعي القدرة على الشفاء من الأمراض التناسلية ولكنّه كان يعطي حقنًا من المياه، كما إنه تسبب في قتل امرأتين بعد أن وعدهما كذبًا بتخليصهما من الحمل.. كانوا جميعًا عصبة مريعة حقًّا، ولم أستطب قط وجودي بينهم.. وكان مبعث الألم والحزن يا إخواني فوق ذلك هو أنّ هذه الزنزانة كانت معدة لثلاثة نزلاء، ولكننا كنا الآن ستة، محتبسين بداخلها محشورين غارقين وكان ذلك هو الحال في كافة السجون الأخرى في تلك الأيام، وهو عار ليس بعده عار، اذ لا يملك أحد أن يجد متسعًا لكي يمد أطرافه والأدهى من ذلك أنه في يوم الاحد هذا أقحم علينا نزيل جديد.. والأغرب من كل شيء هو أنه كان البادئ بالصراخ والشكوى حتى قبل أن تتاح لنا الفرصة لرؤية الموقف فقد حاول أن يهز القضبان صائحًا:

- إنني أطالب بحقوقي المشروعة!.. هذه الزنزانة متخمة لا موضع فيها لقدم!..

ولكن الحارس اقبل ليقول له أن عليه أن يرضى بالواقع ويشارك أي واحد يسمح له بالمشاركة في دكته، وإلا فلن يكون أمامه سوى الأرض يفترشها... وأضاف الحارس قائلًا:

- وسيكون هذا أسوا.. كلكم عالم بأسره من الإجرام ولا تستحقون غير هذا!..

الفصـل الثـاني

لا بأس!..

لقد كان اقحام هذا النزيل الجديد علينا هو في الواقع بداية خروجي من السجن العتيد.. ذلك أنه كان مخلوقًا مشاكسًا إلى أبعد الحدود، منطويًا على فساد الطوية وخبث النوايا إلى حد أن المتاعب بدأت منذ ذلك اليوم ذاته.. ثم إنه كان كثير التفاخر، ممعنًا في التطاول علينا والسخرية منا بكلام طنان صاخب.. قال لنا أنه هو الوحيد المحترم دوننا جميعًا في هذه الحديقة كلها (يعني حديقة الحيوانات!)، زاعمًا أنه فعل كيت وكيت وقتل عشرة من رجال الشرطة بخبطة واحدة من يده، إلى آخر هذا الهراء..

ثم بعد هذا يا إخواني ركز اهتمامه على شخصي، باعتباري أصغر الموجودين سنًا، قائلًا إنِّه لكوني أصغرهم جميعًا فعليّ أن أكون أنا الذي ينام على الارض وليس هو.. غير أن الجميع انضموا إلى جانبي صائحين:

- دعه وشأنه يا حقيرا!..

فما لبث أن راح يشكو حظه قائلًا انه لا أحد يحبه...

وفي نفس تلك الليلة صحوت من نومي لكي أجد هذا المجرم البشع ممددًا إلى جانبي فوق الدكة، التي كانت أسفل اثنتين فوقها وضيقة جدًّا، وهو يتفوه بكلمات فاحشة ويتمسح بي.. عندئذ ثارت ثائرتي ولطمته لطمة شديدة وان كنت لا أبصر في الظلام اذ لم يكن ثمّة سوى النور الاحمر الحسير خارج الزنزانة أيقنت أنه هو ذلك المخلوق الوضيع، وبعد أن تعالت الجلبة وأضيئ النور رأيت الدم يقطر من فمه القبيح أثر اللطمة العنيفة التي أصابته، من يدي ذات الأظافر الحادة..

لكنني وما حدث بعد ذلك هو أن رفاقي في الزنزانة هبوا من نومهم وانضموا إلى الاشتباك قائمين بنصيبهم من الضرب في تلك العتمة، حتى تعالي الصياح والضجيج واستيقظ نزلاء العنبر كله وأخذوا يدقون على الحوائط بكيزانهم وكأنهم خالوا أن تمردًا شاملًا يوشك آن يبدأ في السجن..

هكذا يا إخواني أضيئت كل الأنوار وهرول الحراس بالقمصان والبنطلونات ملوحين بهراواتهم الغليظة.. وفي الضوء رأينا وجوه بعضنا البعض محمرة وأوداجنا منتفخة وأيدينا متطاوحة متوعدة وصراخنا مقترنًا بالسباب واللعنات!.. وإذ ذاك تقدمت بالشكوى مما كان، فقال الحراس جميعًا بلا استثناء أن محدثكم المتواضع يا إخواني هو المتسبب في نشوب المعركة إذ ليس في وجهي أي جروح ولا خدوش في حين أنّ هذا المسجون البشع ينزف الدم من وجهه من حيث انهالت عليه يدي المخلبية باللطمات!.. لقد استفزني هذا الكلام أي استفزاز حتى قلت انني لن أنام ليلة واحدة في تلك الزنزانة اذا كانت سلطات السجن سوف تسمح لهذا المجرم المنحرف الشنيع أن يحاول الانقضاض عليّ وأنا في وضع لا يمكنني من الدفاع عن نفسي أثناء النوم!

فرد الحراس بقولهم لي:

- انتظر حتى الصباح هل تريد فخامتك غرفة خاصة بحمام وتليفزيون؟!.. حسن.. حسن إذن.. كل هذا سوف ينظر فيه في الصباح.. أمّا في الوقت الحالي أيها الرفيق الصغير فاقتنع بالنوم على مرتبتك المحشوة بأجود القش ولا تدعنا نسمع أي ضوضاء من أي إنسان.. مفهوم، مفهوم، مفهوم؟..

وبعدها قفلوا راجعين وهم ينذرون ويتوعدون الجميع، وعلى الأثر اطفئت الانوار.. فقلت أنني سأبقى طول ليلي صاحيًا، ووجهت كلامي إلى ذلك المجرم البشع قائلًا:

- ادخل إلى فراشي إذا رغبت!.. إنني لن أطيقه بعد أن لوثته ببدنك القذر ورائحتك النتنة!.. غير أن الباقين تدخلوا..

وقال اليهودي السمين وكان لا يزال غارقًا بعد ابتلاع قطعة مخدر كنا نتداولها في الظلام:

- لن نرضى بهذا يا إخواني!.. لا تخضعوا لهذا الحيوان...

فراح ذلك المجرم الجعجاع يقول:

- اخرسوا!.. ليبلع كل منكم لسانه!..

وعندئذ تحفز اليهودي السمين لتوجيه ضربة إليه فقال (الدكتور):

- اسمعوا يا سادة!.. نحن لا نريد مشاكل!..

ولكن المجرم الوافد كان ينوي اثارة المشاكل فعلًا، اذ كان مغرورًا، متعاليًا على قبول المشاركة مع ستة سجناء في زنزانة واحدة واضطراره إلى النوم على الأرض لولا أنني أبديت استعدادي للتنازل عن الدكة له.. وحاول أن يتمادى في المشاكسة.. وهنا قال (جوجون):

- إذا كنا لا نستطيع أن نأخذ قسطًا من النوم، فلنأخذ قسطًا من التعليم... من الخير أن نلقن صديقنا الجديد هذا درسًا!.

فرد المجرم الجعجاع قائلًا:

- إنني أدوسكم تحت قدمي!..

وهكذا بدأت المعركة، ولكنّها بدأت بطريقة هادئة متخافتة، دون أن يرفع أحد منا صوته عاليًا.. وقد صرخ المجرم الوافد مرة واحدة أول الأمر، لكن (وال) عاجله بلطمة على فمه، في حين شده اليهودي السمين إلى قضبان باب الزنزانة حتى. يمكننا أن نبصره في الضوء الأحمر المعتم المتسرب من الخارج، وكل ما بدر منه كان تأوهات خافتة.. والواقع أنه لم يكن موفور القوة، وبدا أضعف ما يكون وهو يحاول أن يرد الضربات التي أخذت تتوالى عليه، ولعله كان يعوض هذا بالجمجمة والمفاخرة بنفسه.. وعلى أي حال فإنني عندما رأيت الدم القاني يتساقط منه في الضوء الأحمر، سرت بين جوانحي حمية العنف السالف، وقلت لهم:

- اتركوه لي يا إخواني!.. دعوه لي الآن...

وقال اليهودي السمين محبذًا:

- نعم، نعم يا أولاد!.. هذا هو العدل!.. أعطه الدرس يا أليكس...

وهكذا تخلو عنه، وسرعان ما هجمت عليه ألاحقه باللكمات في كل مكان وأنا أتواثب من حوله، ثم عاجلته بحركة (مقص) هوى على إثرها إلى الأرض وأخيرًا رفسته رفسة شديدة على رأسه حتى انبعث أنينه محتبسًا قبلما غاب عن الوعي.. وقال (الدكتور):

- حسن جدًا.. أظن أنّ هذا الدرس يكفيه.. دعوه يحلم بأنه سيكون ولدًا صالحًا في المستقبل!...

وهكذا عدنا جميعًا كل إلى دكته لكي ننام، لفرط ما كنا نشعر به من التعب والجهد..

وقد حلمت في نومي يا إخواني وكأنني فرد في فرقة أوركسترا كبيرة تضم مئات ومئات من العازفين الأقوياء، وكان قائد الأوركسترا خليطًا من بتهوفن وهاندل، أصم وأعمى معًا، تلوح عليه أمارات الإعياء من الدنيا كلها.. وكنت عضوًا في فريق آلات النفخ، ولكن ما كنت أعزف عليه كان أقرب إلى بوق من اللحم البشري ينتفخ منبثق من بدني في وسط البطن، وعندما كنت أنفخ كنت أضحك عاليًا لأن العزف كان كأنه يدغدغني، وما لبث بتهوفن - هاندل أن أنتابه القيظ والضيق، ثم اقترب مني وصرخ عاليًا في أذني، وعندها صحوت من النوم والعرق يتفصد من جسدي.. طبعًا كان الصراخ هو جرس السجن يتردد ايقاظًا للنيام.. كان الوقت صباح يوم شتاء، وشعرت بأنني لا أكاد أفتح جفوني الملتصقة من النوم في الضوء الكهربائي الذي غمر (حديقة الحيوانات).. ولما نظرت إلى تحت وقع نظري على السجين الجديد ممددًا على الأرض داميًا ومرضوضًا ولا يزال غائبًا عن الوعي وهنا تذكرت ما حدث في الليلة الماضية، مما جعلني أبتسم يسيرًا..

ولكن عندما نزلت من الفراش وحركت السجين بقدمي الحافية شعرت بجسم متصلب بارد، وهكذا اتجهت إلى فراش (الدكتور) وهززته، إذ كان يستيقظ بطيئًا في الصباح غير أنه ترك دكته رعبًا هذه المرّة، وحذا الاخرون حذوه، فيما عدا (وال) الذي كان ينام كجثة. وقال (الدكتور):

- يا لسوء الحظ!.. لابد أنه أصيب بنوبة قلبيّة!..

وثم أردف وهو ينظر إلينا جميعًا:

- في الحقيقة ما كان يجب أن تجابهوه بمثل هذه الكيفية كانت هذه خطوة تدلّ على سوء التفكير والتصرف!..

فقال (جوجون):

- خل عنك هذا يا (دكتور)!.. أنت نفسك لم تتأخر عن توجيه لكمة غادرة..

وعندئذٍ واجهني اليهودي السمين قائلًا:

- يا أليكس!.. أنت أيضًا كنت شديد العنف!.. ان الرفسة التي وجّهتها إليه كانت قاتلة!

إذ ذاك تملكني الغضب ورحت أقول:

- من الذي بدأ بالضرب؟.. أنا لم أتدخل إلا في الآخر!..

واستدرت إلى (جوجون) وقلت له:

- كانت الفكرة كلها من عندياتك...

وقاطعني لحظتها غطيط (وال)، فقلت:

- ايقظوا هذا الحيوان!.. انه هو الذي كان ينهال على فم القتيل باللكمات بينما كان اليهودي اليمين محاصرًا له عند الباب..

فقال (الدكتور):

- لا أحد ينكر ان كل واحد منا اشترك في توجيه ضربة خفيفة له لكي نعطيه درسًا على حد قول القائل لكن الواضح هو أنك أنت يا عزيزي الصغير، بما فيك من فورة الشباب واستهتاره) قد أهويت عليه بالضربة القاضية!..

فقلت:

- يا خونة!.. يا خونة وكذابين!..

فقد بدا لي أنه ما أشبه الليلة بالبارحة، عندما تخلى عني رفاقي المزعومون منذ عامين لكي أقع في أيدي رجال الشرطة فهكذا لا ثقة في الدنيا كلها يا إخواني، كما تجلى هذا لعيني تمامًا!.. واتجه (جوجون) وأيقظ (وال)، فكان (وال) مبادرًا إلى الحلف بأن محدثكم المتواضع هو الذي أهوى بالضربات الوحشية!.. ولما قدم الحراس ثم كبيرهم، ثم محافظ السجن ذاته، راح رفاق زنزانتي هؤلاء يتسابقون في سرد مختلف الروايات عما فعلته بهذا المجرم الصريع الذي تمددت جثته المخضبة بالدماء على الأرض..

كان يومًا غريبًا مشهودًا يا إخواني فقد نقلت جثة القتيل؛ وصدر الأمر باحتجاز كافة المسجونين في زنزاناتهم تحت القفل حتى صدور أوامر أخرى، ولم يوزّع شيء من التموين على أحد، حتى ولا كوز شاي.. كل ما حدث هو أننا قبعنا جميعًا في أماكننا، وكان الحراس يسيرون جيئة وذهابًا، وهم يصيحون بين وقت وآخر أن (أخرسوا) أو (اقفلوا أفواهكم) كلما سمعوا ولو همسًا من إحدى الزنزانات..

وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا حدث هرج ومرج خارج الزنزانة، ثم وقعت أنظارنا على محافظ السجن ورئيس الحراس وعدد من الشخصيات الهامة يسيرون مسرعين يتحادثون باهتمام متجهين إلى نهاية الممشى، ثم سمعناهم يعودون أدراجهم بخطى بطيئة هذه المرّة، وكان بوسعنا أن نسمع صوت محافظ السجن وهو رجل بدين عارق أشقر الشعر يردد كلمات مثل: «لكن يا سيدي؟»... وبعد ذلك توقف الجميع عند زنزانتنا وفتح رئيس الحرس بابها وكان في الإمكان معرفة صاحب الشخصية الهامة بين القادمين، وكان طويل القامة أزرق العينين فاخر الثياب، اذ كان يرتدي أجمل بدلة رأيتها في حياتي... كانت تمثل قمة (الموضة)، وقد تنازل وشملنا نحن المسجونين بنظرة عامّة، قائلًا بصوت عذب ولهجة راقية:

- إن الحكومة لا يمكنها أن تحصر اهتمامها بعد الآن في نظريات عقابية للإجرام عفا عليها

الزمن.. كدس المجرمين جنبًا لجنب معًا، ثم انظر ماذا يحدث.. النتيجة هي أفعال جنائية مركزة، وجرائم في صميم العقوبة.. ثم لن يمضي وقت طويل حتى نحتاج إلى كافة مواقع السجون لاستيعاب المذنبين السياسيين..

إنني يا إخواني لم أفهم هذا الكلام بتاتًا، لكن مهما يكن فإنه لم يكن يوجه كلامه إليّ شخصيًا..

وما لبث أن مضى يقول:

- إن المجرمين العاديين من أمثال هذا الجمع الكريه (وهو يعنيني يا إخواني ورفاقي هؤلاء المجرمين الخونة) يمكن التعامل معهم على أساس علاجي صرف... نقتل النزوع الإجرامي في نفوسهم هذا كل شيء.. انجاز شامل في ظرف عام.. إن العقوبة لا تعني شيئًا عندهم، وهو ما يمكنهم رؤيته بسهولة.. إنهم لينعمون بالعقوبة المزعومة.. إنهم يبدأون بقتل بعضهم البعض..

واتجهت عيناه الزرقاوان إليّ بنظرة صارمة وهو يقول هذا، وهكذا قلت له بجرأة:

- مع الاحترام يا سيدي، إنني أعارضك بكل قوة فيما قلته!.. أنا لست من المجرمين العاديين يا سيدي ولست كريهًا!.. إن الآخرين يمكن أن يكونوا كريهين، ولكنني لست كذلك!..

وهنا صعد الدم إلى وجه رئيس الحراس حتى احتقن وصاح بي قائلًا:

- اقفل فمك يا هذا... ألا تعرف مع من تتكلم؟!.

فقال صاحب الشخصية الكبيرة:

- لا بأس.. لا بأس...

ثم التفت إلى محافظ السجن وقال:

- يُمكنك استعماله رائدًا في التجربة.. هو فتى، وجريء، وشرير... إن (برودسكي) سوف يتعامل معه من باكر، وله أن تستعد وتراقب برودسكي.. إن العملية سوف تنفذ بنجاح، فلا تقلق بشأنها.. إن هذا الحدث الشقي سوف يتحول إلى كينونة أخرى لا تكاد تعرفها..

وحقًا يا إخواني، لقد كانت هذه الكلمات الصارمة بداية حريتي!..

الفصـل الثـالث

في نفس هذا المساء قادني الحراس الغلاظ بكل ترفق إلى مكتب محافظ السجن أو قدس الأقداس.. وقد نظر إليّ المحافظ في إعياء وقال لي:

- لا أظن انك تعرف من كان ذلك الضيف صباح اليوم، هل تعرف يا رقم ٦٦٥٥٣٢١؟..

وقبيل أن ينتظرني لكي أقول لا عاجلني قائلًا:

- لم يكن صاحب تلك الشخصية أقل من وزير الداخلية، وزير الداخلية الجديد، وهو ما يسمّونه (المكنسة الجديدة).. لا بأس اذن.. إن تلك النظريات الجديدة المضحكة قد جاءت أخيرًا، والأوامر هي الأوامر، وان كنت أقول لك فيما بيني وبينك انني لا أوافق عليها.. إنني بكل تأكيد لا أقرها.. العين بالعين هي شريعتي.. اذا لطمك أحد ترد له اللطمة، أليس كذلك؟.. فلماذا إذن لا تعمل الدولة عندما تضربونها بوحشية يا معشر المجرمين العتاة على أن ترد لكم الضربة بمثلها أو أشد منها؟.. لكن النظرية الجديدة تقول (لا).. النظرية الجديدة هي أن نعمل على تحويل الفاسد إلى صالح وكل هذا يبدو لي ظلمًا فاحشًا...

فقلت له محاولًا أن أبدو في مظهر الاحترام والمجاراة:

- سيدي..

وهنا صرح رئيس الحراس الذي كان واقفًا خلف مقعد محافظ السجن محمرًا منتفشًا:

- اقفل فمك القذر يا حشرة!..

فقال المحافظ الذي ظل. على اعيائه:

- لا بأس.. لا بأس.. أنت يا رقم ٦٦٥٥٣٢١، لقد تقرر اصلاحك.. غدًا سوف تذهب إلى هذا الرجل برودسكي.. وأعتقد أنه سوف يُمكنك الخروج من السجن رسميًا بعد فترة أسبوعين تقريبًا.. بعد فترة أسبوعين تقريبًا سوف تعود من جديد طليقًا في الدنيا الواسعة، ولا تصبح بعد مجرد رقم..

وخالجت لهجته نبرة تهكم وهو يقول:

- أظن أن الأمل المرتقب سوف يسرك؟..

لم أقل شيئًا.. وهكذا صرح رئيس الحراس قائلًا:

- رد، أيها الخنزير الصغير القذر، عندما يوجه المحافظ سؤالًا اليك...

وهكذا رحت أقول:

- آه، نعم يا سيدي!.. أشكرك شكرًا جزيلًا يا سيدي!.. إنني بذلت أفضل ما عندي هنا، حقًّا

وصدقًا.. إنني شديد الامتنان لكافة الأطراف المعنية..

فأوشك المحافظ أن يتنهد وهو يقول:

- لا لزوم لهذا ليس هذا من قبيل المكافأة.. بل أنه أبعد ما يكون عن المكافأة.. والآن، هنا استمارة ستوقع عليها بإمضائك وهي تنص على رغبتك في ابدال المدة الباقية من العقوبة المحكوم بها عليك بقبول ما هو مدون هنا طبقًا للتعبير المضحك باسم في (العلاج الاصلاحي).. فهل توقع الاستمارة؟..

فقلت:

- بكل تأكيد يا سيدي، سأوقع!.. وشكري لا حدود له...

وهكذا اعطوني قلم حبر، فوقعت باسمي بخط جميل منتشر..

فقال المحافظ:

- لا بأس هذا كل شيء، فيما أظن..

فقال رئيس الحراس:

- إن قسيس السجن يود أن تكون له كلمة معه يا سيدي..

وهكذا اقتادوني في الردهة إلى جناح الكنيسة الصغيرة، وكانوا ينخسونني طول الطريق على ظهري ورأسي، ولكن بكيفية روتينية.. وعند وصولنا إلى مقصورة القس تركوني ادخل، فكان القس جالسًا إلى مكتبه تفوح من حوله رائحة بنية للسجائر الفاخرة و(الإسكوتش)، وقال لي:

- آه يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ يا صغير.. اجلس!..

وخاطب الحراس قائلًا:

- انتظروا في الخارج..

فامتثلوا... ثم راح يقول لي بلهجة يغلب عليها الجد الكبير:

- شيء واحد أريدك أن تفهمه يا ولد، وهو أنّ هذه المسألة لا صلة لها بي شخصيًا.. لو أنها كانت متصلة بالمصلحة الشخصية لقابلتها بالاعتراض، لكنّها ليست كذلك.. هناك اعتبار وضعي المهني، وهناك اعتبار ضعف صوتي إذا قورن بعناصر أشد قوة في الدولة.. هل تراني أوضحت لك الموضوع؟..

إنه لم يوضح شيئًا يا إخواني، ولكنني أومأت برأسي مبديًا أنه اوضح الموضوع فعلًا، فاستطرد يقول:

- هناك اعتبارات أخلاقية عويصة مرتبطة بالموضوع قدر أن يجعلوا منك شخصًا صالحًا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١.. وأبدًا لن تتهيأ لك الرغبة لارتكاب أعمال العنف أو الاعتداء بأية كيفيّة مهما كانت على أمن الدولة واستتباب الأمن عمومًا.. ورجائي أن تضع هذا نصب عينيك وأن تستوعبه

تمامًا.. وأملي أن تفهم هذا كل الفهم وأن يكون واضحًا في ذهنك كل الوضوح..

فقلت له:

- آه!.. إنه لشيءٍ جميل يا سيدي أن يكون الانسان صالحًا..

قلتها وأنا ابتسم في دخيلتي يا إخواني فقال لي:

- قد لا يكون شيئًا محببًا أن يكون الإنسان صالحًا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١، قد يكون شيئًا مريعًا أن يكون الانسان صالحًا.. وعندما أقول لك هذا فإنني مدرك كيف أبدو في هذا شديد المناقضة لنفسي.. وأنا أعرف أنني سأمضي ليالي كثيرة مؤرقًا مسهدًا في صدد هذا.. ماذا يريد الرب؟.. هل يريد الصلاح، أو اختيار الصلاح؟.. وهل الانسان الذي يختار الفساد ربما كان في ناحية ما أفضل من الانسان الذي يكون الصلاح مفروضًا عليه فرضًا؟؟ هذه أسئلة عميقة وصعبة يا رقم ٦٦.. لكن كل ما أريد أن أقوله لك الآن هو هذا: إذا أنت رجعت بنظرك في المستقبل في أي وقت إلى هذه الفترة وتذكرتني - أنا أدنى وأكثر خدام الرب اتضاعًا - فرجائي ودعائي ألا تسيء الظن بي في ضميرك وقلبك، ظنًا بأنني متورط بأي شكل من الأشكال فيما يوشك الآن أن يحل بك أو يحدث لك.. والآن، على ذكر الدعاء، فإنني أدرك بحزن أنه لا جدوى من الدعاء.. وهذا شيء مريع، مريع جدًّا يتدبره الانسان.. ومع ذلك، وعلى نحو ما، فإن في اختيار المرء الحرمان من القدرة على اختيار أخلاقي، يدل في معنى من المعاني على اختيارك الصلاح فعلًا.. هذا، سوف أذهب اليه في تفكيري وليشملنا الرب بعونه جميعًا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١..

وعندئذٍ أخذ يبكي، بيد أنني لم أحفل بهذا كثيرًا، وأن تبسمت في دخيلتي، اذ كان واضحًا أنه تعاطى الويسكي كثيرًا.. وما لبث الآن أن أخرج زجاجة من الدولاب وبدا يصب قدرًا كبيرًا منها في كأس يعلوها كثير من الشحم.. وقد تجرع الشراب كله ثم عاد يقول:

- كل شيء قد يمضي بخير، فمن يدري؟.. الرب يدبر الأمور بكيفية لا نعلم سرها المغيب عنا..

ثم بدأ يترنم بترنيمة في صوت مرتفع.. وبعدها فتح الباب ودخل الحراس لكي يعيدوني إلى زنزانتي الزنخة، بيد أن القس المسن مضي في ترنمه..

لا بأس.. وفي صباح اليوم التالي كتب عليّ أن أودع السجن العتيد، وقد خامرني شيء من الاكتئاب كما يحدث للإنسان دائمًا إذا أريد له أن يفارق مكانًا اعتاد عليه.. لكنني لم أبتعد كثيرًا يا إخواني، وإنّما اقتادوني بالنخس والدفع إلى المبنى الابيض الجديد المجاور للساحة التي كنا نمارس فيها التمرينات الرياضية.. هذه البناية حديثة جدًّا لا تكاد تدلف إليها حتى يتملكك نوع من القشعريرة، اذ كانت ردهتها العارية باردة وتفوح فيها روائح كروائح المستشفيات، وكان الشخص الذي سلمني الحارس إليه يرتدي معطفًا ابيض كما لو كان يعمل في مستشفى، وقد وقع ايصالًا باستلامي، وقال له أحد الحراس الذين رافقوني:

- راقب هذا المخلوق يا سيدي أنه كان مخلوقًا شرسًا لعينًا، وسوف يظل هكذا على الرغم من أنّه كان محل عطف قسيس السجن ويقرأ الكتاب المقدس..

غير أنّ هذا الشخص الذي كان أزرق العينين قابل هذا التعريف بالابتسام، ورد قائلًا:

- آه.. إننا لا نتوقع أية متاعب يا أصدقائي.. أليس كذلك؟

وافتر فمه الواسع ذو الأسنان الناصعة البياض عن ابتسامة عريضة حتى لقد أنست إليه من فوري.. ومهما يكن فقد سلمني بدوره إلى شخص آخر أدنى منه مرتبة ولكنّه كان لطيفًا مثله. فقادني إلى غرفة نوم بيضاء نظيفة جدًّا بها ستائر ومصباح بجانب الفراش، وكان سرير وحيد كله لمحدثكم المتواضع، حتى لقد تبسمت في دخيلتي لما أرى، وبدا لي أنني انسان محظوظ جدًّا.. ثم قيل لي أن أخلع ملابس السجن البشعة، وأعطيت لي بيجاما جميلة خضراء اللون يا إخواني بدت كأنها قمة (الموضة) بين ملابس النوم!.. بل أعطيت فوق هذا (روبًا) بديعًا دافئًا و(شبشبًا) أنيقًا أضع فيه قدمي الحافيتين، حتى لم أتمالك أن قلت لنفسي:

- لا بأس يا أليكس يا ولدي، يامن كنت رقم ٦٦٥٥٣٢١!.. لقد ابتسم لك الحظ بلا شك ولا مراء!.. ولسوف تستمتع حقًّا بوجودك هنا!..

وبعد أن أعطوني قهوة ممتازة وبعض الجرائد والمجلات القديمة لكي اتصفحها وأنا أشرب هانئًا، جاءني الشخص الأول وهو الذي وقع الاستلام وقال لي متطلعًا:

- ها أنت ذا هنا.. اسمي دكتور برانوم، وأنا مساعد الدكتور برودسكي وبعد إذنك سأقوم بالفحص الطبي المعتاد..

وأخرج من جيبه الأيمن السماعة المألوفة وتابع كلامه قائلًا:

- علينا أن نتأكد من تمام لياقتك البدنية، أليس كذلك؟.. نعم، لابد من هذا..

وهكذا تمددت أمامه رافعًا صدر البيجاما حيث أخذ يقوم بفحصه هنا وهناك، وبعد أن فرغ من صدري قلت له:

- ماذا هناك بالضبط يا سيدي؟ ما الذي ستفعلونه..

فأجاب الدكتور برانوم وهو يجيل سماعته الباردة فوق ظهري من أعلاه إلى اسفله:

- المسألة في منتهى البساطة فعلًا.. كل ماهناك أننا سوف نريك بعض الأفلام..

- أفلام؟!

لم أصدق سمعي حقًّا يا إخواني كما لكم أن تدركوا هذا، ومضيت اقول:

- تعني أن المسألة ستكون مثل الذهاب إلى السينما؟!..

فقال الدكتور برانوم:

- أنها ستكون أفلامًا من نوع خاص.. أفلامًا خاصة جدًّا وستكون (الجلسة) الأولى بعد ظهر اليوم..

وأضاف وهو ينهض عني:

- نعم.. إنك تبدو صبيًا في تمام اللياقة.. ربما كنت دون مستوى التغذية الواجبة إلى حد ما،

وهذا راجع إلى طعام السجن.. والان ألبس قميص البيجاما..

وأردف وهو يجلس على حافة الفراش:

- بعد كل وجبة سنعطيك حقنة في الذراع، وفي هذا ما يساعد حالتك..

والحق أنني شعرت بكل الامتنان لذلك الدكتور برانوم اللطيف وقلت له:

- أهي فيتامينات يا سيدي؟..

فأجاب وهو يبتسم في مودة ورقة:

- شيء كهذا.. مجرد رشقة في الذراع بعد كل وجبة..

ثم خرج على الأثر..

بعدها تمددت في الفراش متأملًا كأنني في السماء، ثم أخذت أقرأ في بعض المجلات التي جاءوني بها: الرياضة العالمية، سيني (وهي مجلة سينمائية)، الأهداف (مجلة كروية)..

وبعد فترة عدت إلى الاستلقاء في الفراش وأغمضت عيني أفكر في متعة الحياة التي سأعيشها من جديد، فأجد عملًا سهلًا أمارسه في النهار، بعد أن كبرت الآن بالنسبة للمدرسة، ثم أشكل عصبة جديدة للنشاط الليلي، وأول ما افعله في هذا الشأن هو البحث عن ديم وبيتر، إن لم يكونا وقعا في قبضة الشرطة.. في هذه المرحلة المقبلة سألتزم الحرص لكيلا يُقبض على.. لا شك أنهم الآن يمنحونني فرصة اخرى، أنا الذي اقترفت القتل وكل ما يتصل بهذه الأفعال، ولن يكون من الصواب أن يقبض عليّ من جديد، بعد أن يتجشموا كل هذا العناء ليروني الأفلام التي ستجعل مني شخصًا صالحًا...

وأفقت من تأملاتي تلك مبتسمًا عندما جاءوني بطعام الغداء في صحفة.. وكان الذي جاء به هو الشخص الذي قادني إلى غرفة النوم هذه عندما جئت إلى المبنى الجديد، وقد قال لي:

- شيء لطيف أن يرى الإنسان شخصًا سعيدًا..

وكان الطعام في الواقع مشهيًا.. قطع من (الروزبيف) الساخن محفوفة بالبطاطس والخرشوف، إلى جانب (الآيس كريم) وقدح شاي ساخن.. بل كان مع الطعام أيضًا سيجارة لكي أدخنها مع علبة ثقاب بها عود واحد.. هذه اذن يا إخواني هي الحياة الممتعة.. وبعد حوالي نصف ساعة أمضيتها مستلقيًا في خدر كالنوم، أقبلت ممرضة شابة جميلة ذات نهدين بارزين (وأنا لم أشهد مثلهما منذ عامين) ومعها صحفة وحقنة.. فقلت لها:

- آه!.. الفيتامينات المنتظرة...

ومصمصت شفتي أمامها ولكنّها لم تهتم.. وكل ما فعلته هو أنها دست إبرة الحقنة في ذراعي اليسرى، وسرعان ما انسابت مادة الفيتامين وعلى الأثر خرجت وهي تطقطق بقدميها ذات الكعب العالي.. ثم جاء الشخصي السالف والظاهر أنه ممرض وكان يقود كرسيًا بعجلات.. فأدهشني هذا حتى قلت:

- ماهي الحكاية يا أخ.. بإمكاني أن أمشي بالتأكيد إلى أي مكان تريدون أن أذهب اليه!..

لكنه رد بقوله:

- الأفضل أن أدفعك إلى هناك..

وفعلًا يا إخواني، ما إن نزلت من الفراش حتى ألفيتني أشعر ضعف يسير.. لاشك أن السبب هو سوء التغذية كما قال الدكتور برانوم بطعام السجن الشنيع!.. لكن من المؤكد أن حقنة الفيتامينات بعد كل وجبة كفيلة بتصحيح كل شيء.. ما من شك في هذا، كما فكرت وقدرت!.

الفصـل الرابـع

أن ما اقتادوني إليه، يا إخواني، لم يكن شبيهًا بأي سينما رأيتها في حياتي!.. صحيح أن أحد الحوائط كان مغطى كله بستار فضي، وفي مواجهته حائط به فتحات مربعة لآلة العرض، كما كان يوجد جهاز (ستيريو) له مكبرات الصوت موزعة في أرجاء المكان هذا فضلًا عن أجهزة قياس صغيرة متعددة وضعت فوق منصة لدى أحد الحوائط الأخرى، وفي وسط الأرضية وبمواجهة الستار قام كرسي طبيب الأسنان امتدت منه كل أنواع الأسلاك، وقد مرروني بصعوبة بين الأسلاك بعد انزالي من المقعد المتحرك إلى الكرسي الطبي بمساعدة ممرض آخر في رداء أبيض ولاحظت وجود شبه حائط من الزجاج الحبيبي أسفل فتحات العرض، رأيت من خلاله أخيلة رجال يتحركون وخيل إلى أنني سمعت بعضهم يسعل مرارًا هناك.. لكن الذي استرعى اهتمامي بعد ذلك شعوري بضعف متزايد وان عزوت هذا إلى الانتقال من حالة سوء التغذية في السجن إلى التغذية الصحية والفيتامينات التي حقنوني بها..

وقال المرض الذي قادني في الكرسي المتحرك:

- حسن.. الآن سأتركك.. أن العرض سيبدأ حالما يصل الدكتور برودسكي.. أرجو أن تتمتع به..

وإن أردتم الحق يا إخواني قلت أنني لم أشعر بأني أريد مشاهدة أي عرض سينمائي هذا المساء: اذ لم يكن لي مزاج لهذا وكنت أفضل كثيرًا رقادًا هانئًا هادئًا في الفراش، مع خلوة لطيفة بنفسي.. فقد كنت أحس بخدر يكاد يشل أطرافي..

وما حدث بعد ذلك هو أن أحد لابسي المعاطف البيضاء شد رأسي بسيور إلى مسند للرأس وهو يتغنى بأغنية شائعة، فقلت له:

- لم هذا؟..

فقطع أغنيته برهة وأجاب بأن ذلك من أجل تثبيت رأسي وجعل نظري موجهًا إلى الستار الفضي فقلت له:

- لكنني أريد أن أنظر إلى الستار فعلًا.. إنهم أحضروني إلى هنا لمشاهدة الأفلام، ولابد أن أشاهد الأفلام!..

وهنا قال واحد من لابسي المعاطف البيضاء باسمًا (وكانوا ثلاثة، أحدهم امرأة كانت جالسة إلى أجهزة القياس تدير بعض المقابض والأزرار):

- لا يمكن أن تتأكد من شيء!.. لا يمكن أن تتأكد من شيء!.. ثق بنا يا صديقي.. هكذا أفضل..

وعندئذٍ وجدتهم يربطون يدي بالسيور إلى ذراعي الكرسي ويثبتون قدمي في القاعدة.. لقد بدا هذا غريبًا في نظري، ولكنني تركتهم يمضون فيما يريدون بي فاذا كان يُراد أن أغدو طليق

السراح من جديد في مدى أسبوعين، فلا مفر أن أتجاوز عن الكثير في الوقت الحالي يا إخواني!.. ومع ذلك كان ثمّة شيء واحد لم استرح اليه، وذلك عندما وضعوا ما يشبه المشابك على بشرة جبيني إلى حد أن شعرت بجفني العلويين يجذبان إلى أعلى حتى لم أعد أستطيع إغماض عيني رغم كل محاولاتي فقلت وأنا أغتصب الابتسام:

- لابد أنه سيكون أحد أفلام الرعب ما دمتم مهتمين هكذا بمشاهدتي له!..

فرد أحد لابسي المعاطف البيضاء باسمًا:

- صدقت يا صاحبي.. هو عرض حقيقي للرعب والفظائع!..

ثم ألبسوني بعد ذلك ما يشبه طاقية مثبتة على الرأس تتدلى منها أسلاك كثيرة، والصقوا ببطني شبه لبادة ماصة وأخرى فوق موضع القلب، ولمحت بعد ذلك أسلاكًا ممتدة منهما..

وبعد هذا كله سمعت صوت باب يفتح، مقترنا بما ينبئ بقدوم شخصيّة هامة جدًّا، إذ وقف لابسو المعاطف البيضاء وقفة الانتباه والاستعداد وأخيرًا وقع نظري على الدكتور برودسكي هذا!.. كان رجلًا مهيبًا موفور البدانة، يكسو هامته شعر مجعد، وتعلو أنفه نظارة شديدة السمك، وكان مرتديًا بدلة بالغة الاناقة وكان في صحبته الدكتور برانوم الذي رأيته يفيض ابتسامًا وكأنما يريد بث الثقة في نفسي..

وما لبث الدكتور برودسكي أن قال في لهجة من اعتاد الإدارة والتوجيه:

- كل شيء على استعداد؟...

فسمعت أصواتًا من بعيد ومن قريب تجيب بالإيجاب، وعلى الأثر انبعث طنين هادئ كأنما اديرت أزرار ومفاتيح.. ثم انطفأت الانوار، وإذا محدثكم وصديقكم المتواضع يجلس وحيدًا في الظلام تتوزعه المخاوف ولا يستطيع أن يحرك أو يغمض عينيه.. وبعدها يا أصدقائي بدأ العرض السينمائي تسبقه موسيقى عنيفة مملوءة نشازًا من خلال مكبرات الصوت.. ثم لاحت الصورة على الستار، لكن لم يسبقها عنوان ولا تعليقات.. كان ما أبصرته شارعًا مثل أي شارع في أية مدينة، وكان الوقت ليلًا والمصابيح مضاءة وكانت الصورة جيدة جدًّا وخلوًا من النقاط والبقع التي يراها المشاهد لأحد الأفلام القذرة في بيت بأحد الشوارع الخلفيّة وكانت الموسيقى تدوي طول الوقت عنيفة وكأنها تمهد لشي مشئوم.. ثم ظهر رجل يسير في الشارع بادي الاحترام، وفجأة هجم عليه شابان بملابس الموضة في تلك الفترة (وهي البنطلون الضيق ولكن ربطة عنق عادية)، وأخذا يناوشانه، واقترن ذلك بصرخاته وتأوهاته التي كانت تسمع بوضوح إلى جانب لهث الشابين المعتديين واستحالت المناوشة إلى ضربات ولكمات عنيفة وتمزيق لملابسه ثم ركل جسمه المعرى بالأقدام وتفصد الدم القاني منه ممتزجًا بوحل الأرض، وعلى الأثر فر المعتديان ركضًا. وفي ختام المشهد بدا رأس المعتدى عليه والدم ينزف منه غزيرًا، وكأنك ترى مشهدًا في عالم الواقع..

وأثناء مشاهدتي لهذا الفيلم بدأت أشعر أنني لست على ما يرام، وعزوت هذا إلى سوء التغذية وعدم استعداد معدتي لتقبل الغذاء الدسم والفيتامينات التي أعطيت لي.. بيد أنني حاولت أن أنسى هذا وأن أركز على الفيلم التالي الذي عرض مباشرة دون أدنى تو قف يا إخواني!..

إن هذا الفيلم الثاني بدا وكأنه وثب على الستار وثبًا، وكان يمثل امرأة شابة يعتدي عليها شبان واحدًا بعد الاخر وهي تصرخ بصورة مؤثرة من خلال الموسيقى الصاخبة المنبعثة من مكبرات الصوت.. وما أن فرغ آخرهم حتى بدأت أشعر بالغثيان وبآلام شملتني تمامًا وبميل إلى القيء وبكرب عظيم يا إخواني وأنا مصلوب في هذا الكرسي!..

وعندما انتهى عرض هذا الفيلم الثاني استطعت أن أسمع صوت الدكتور برودسكي هذا وهو يقول من ناحية لوحة الازرار والمفاتيح:

- رد الفعل من درجة ١٢.٥ مبشر!.. مبشر!..

وبعد هذا انتقلنا مباشرة إلى فيلم ثالث، وكان في هذه المرّة يمثل وجه انسان - وجه ممتقع شديد الامتقاع في وضع ثابت وتتداوله عمليات بشعة مختلفة.. لقد شعرت بالعرق يسيل في جسدي بسبب ألم في أمعائي وعطش فظيع وضربات شديدة في رأسي، وبدا لي أنني لو لم أكن أستطيع اطباق عيني، وحتّى لو حاولت تحريك عيني جانبًا لما استطعت أن أحيد عن خط نار الرؤية لهذه الصورة.. وهكذا كنت مقسورًا على الاستمرار في مشاهدة ما يجري وسماع أبشع الصرخات الصادرة عن ذلك الوجه.. وكنت أعلم أن شيئًا كهذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا، بيد أنّ هذا لم يغير من الأمر شيئًا.. ولقد شعرت بأن جوفي يموج ولكن لم أستطع أن أتقيأ وأنا أبصر أول الأمر مدية تخرج عينًا من محجرها ثم تنحدر فتشق الخد شقًّا ثم تعمل في الوجه كله تمزيقًا علوًا وسفلًا، بينما كان الدم الأحمر القاني يتفجر في عدسات الكاميرا.. ثم امتدت تنزع الأسنان بزردية واحدة واحدة، فكان الصراخ والدم يملأ القلب رعبًا وبعد ذلك كله سمعت صوت الدكتور برودسكي هذا يقول مبتهجًا:

- ممتاز!.. ممتاز!.. ممتاز!..

وكان الفيلم التالي يمثل امرأة عجوزًا في دكان لها تركل ركلًا، بالأقدام على أيدي عصبة من الشبان الذين ما لبثوا أن حطموا الدكان ثم أضرموا النار فيه.. وكنت تستطيع رؤية تلك المرأة المنكودة وهي تحاول الزحف من براثن اللهب وهي تصرخ صراخًا مدويًا، بيد أن ساقيها التي كسرها الشبان من كثرة الرفس منعتها من الحركة وهكذا أحاطت بها ألسنة اللهب المستعر، وكنت تستطيع رؤية وجهها الهالع وقسماته تستعطف وتبتهل من خلال اللهيب المضطرم ثم يختفى بين أطوائه، وكنت تستطيع سماع أهول صرخات الفزع والعذاب التي تنفطر لها القلوب ويمكن أن يعبر عنها صوت بشري وهكذا شعرت هذه المرّة أنه لابد أن أتقيا، فصرخت قائلًا:

- أريد أن أتقيأ!.. أرجوكم أن تدعوني أتقيأ!.. أرجوكم احضار شيء لكي أتقيأ فيه!..

بيد أن الدكتور برودسكي هذا رد قائلًا:

- هذا تخيل فقط.. ليس بك ما يدعو إلى القلق.. الفيلم التالي جاهز!..

لعله كان يقصد المزاح بعبارته تلك، فقد سمعت صوت ضحكة صدرت في الظلام.. وعلى الأثر أجبرت على مشاهدة أفظع فيلم عن التعذيب في حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥.. فقد وقع نظري على جنود يصلبون إلى جذوع الشجر بالمسامير والنار توقد من تحتهم، وإذا خصيانهم تقطع قطعًا، وإذا رأس أحدهم تجتز بالسيف، وإذا الرأس يتدحرج على الأرض ومازالت الحياة بادية

في الفم والعينين، وإذا جسد الجندي ذاته يدور على نفسه قبل أن يخر على الأرض والدم يتدفق من عنقه مثل نافورة - وفي خلال ذلك كله لم تنقطع ضحكات الجنود المنتصرين!.. إن الآلام المبرحة التي شعرت بها الآن في بطني ورأسي والعطش المشتد كانت في الحق مروعة.. وهكذا رحت أصرخ بهذه الكلمات:

- أوقفوا الفيلم!.. أرجوكم أرجوكم أوقفوه...

لا يمكن أن أحتمل أكثر من هذا!..

وعندئذ سمعت صوت الدكتور برودسكي هذا يقول:

- نوقف الفيلم؟ قلت نوقف الفيلم؟ عجبًا! إننا لم نكد نبدأ!..

وضحك هو والاخرون ضحكًا رنانًا!..

الفصـل الخـامس

لست أود أن أصف، يا إخواني، تلك الفظائع الاخرى التي أجبرت على مشاهدتها عصر ذلك اليوم.. لقد بدا لي أن عقول الدكتور برودسكي والدكتور برانوم وغيرهما من لابسي المعاطف البيضاء - ولا أنسى تلك المرأة الجالسة إلى أجهزة القياس تدير الأزرار والمقابض - بدا لي أن عقولهم جميعًا لابد أن تكون أسوأ وأحط من عقول نظرائهم في السجن العمومي ذاته!.. ذلك لأنني لم يخطر ببالي أن يستطيع أحد أن يفكر في عمل أفلام كالتي أكرهت على مشاهدتها وأنا مقيد من قمة رأسي إلى أخمص قدمي في ذلك الكرسي وعيناي مشدودتان على سعتهما!.. وكل ما استطعته هو أن أصرخ فيهم لوقف العرض صراخًا متواصلًا غطى على أصوات العنف وصوت الموسيقى المصاحبة لها ولك أن تتصوروا كم تنفست الصعداء عندما انتهى عرض الفيلم الأخير وقال الدكتور برودسكي هذا بصوت ناعس ملول:

- أظن أنّ هذا يكفي لليوم الأول، ألا ترى هذا يا دكتور برانوم؟..

عند ذلك أضيئت الأنوار ورأسي يدق دقًا عنيفًا كآلة ضخمة تولد الألم وحلقي متيبس شديد الجفاف، وبي ميل كبير لكي أقيء كل طعام احتوته معدتي..

وقال الدكتور برودسكي مرّة أخرى:

- لا بأس خذوه إلى فراشه من جديد..

ثم إذا هو يربّت على كتفي قائلًا:

- بديع!.. بديع!.. هذه بداية مبشرة جدًّا!..

ذلك ووجهه كله ينضح بالابتسام، ثم تمطى خارجًا يتبعه الدكتور برانوم، وإن كان الدكتور برانوم قد اختصني بابتسامة ودية وعطوفة إلى أبعد حد وكأنه لا صلة له بكل هذا ولا ضلع له فيه وإنّما هو مكره مغلوب على أمره مثلي!..

ومهما يكن فإنّهم حرروا جسدي من المقعد ورفعوا المشابك التي كانت تشد جفوني حتى تهيأ لي أن أفتح واغمض عيني من جديد وقد اغمضتهما فعلًا يا إخواني لفرط شعوري بالألم والدق في رأسي، وبعدها حملوني إلى المقعد المتحرك وأعادوني إلى غرفة نومي الحبيبة، وراح الممرض الذي أدار المقعد يردد أغنية شائعة حتى قلت له بحدة:

- اسكت يا هذا!.

لكنه لم يزد أن أبتسم ورد عليّ بقوله «لا تهتم يا صاحبي»، ثم استمر في الغناء بصوت أعلى!..

هكذا أعادوني إلى الفراش وأنا لا أزال أشعر بالإعياء: وان كنت لم أستطع النوم، ولكن بدا لي أنني لا ألبث أن أتحسن عما قريب..

ثم جيء لي بشاي دافئ منعش مع لبن كثير، وبعد أن شربت كفايتي بدا لي أن ذلك الكابوس الفظيع غدا في أطواء الماضي وانتهى وولى..

لكن وأخيرًا جاء الدكتور برانوم متهلل الأسارير وقال باسمًا:

- حسن.. في تقديري أنه يتعين أن تشعر بأنك على ما يرام من جديد.. أليس كذلك؟..

ثم جلس على حافة الفراش وهو يفيض ابتسامًا، وأردف قائلًا:

- إن الدكتور برودسكي مسرور منك.. فقد تجاوبت بصورة إيجابيّة.. وغدًا بالطبع ستكون هناك جلستان، صباحية ومسائية ولا بد أن أتصور أنك وف تشعر بالإعياء في نهاية اليوم لابد لنا أن نشتد عليك، اذ لابد من علاجك وشفائك..

فقلت له:

- تعني أنه لابد من الاستمرار في ذلك؟.. تعني أنه لابد أن أشاهد تلك. آه!.. كلا!.. كانت شيئًا مريعًا، فظيعًا!..

فقال الدكتور برانوم باسمًا:

- بالطبع فظيعة!.. ان العنف شيء فظيع جدًّا.. ما تتعلمه الآن أن جسدك يتعلمه..

فقلت:

- لكن.. أنا لا أفهم.. أنا لا أفهم كيف يكون الشعور بالغثيان الذي شعرت به.. لم يسبق لي أبدًا أن شعرت بهذا.. كنت دائمًا أشعر بالعكس.. اقصد أنني كنت وأنا أفعل هذا أو أراقب حدوثه لا أشعر بذلك.. وأنا لا أفهم كيف، ولماذا، وما هو..

فراح الدكتور برانوم يقول بلهجة رصينة:

- إن الحياة شيء عجيب ورائع جدًّا.. عن عمليات الحياة، تفاعلات الكيان البشري - من يستطيع أن يفهم تمام الفهم هذه المعجزات؟.. إن الدكتور برودسكي رجل فريد.. إن ما هو حادث لك الآن هو ما كان يجب أن يحدث لأي كيان بشري، طبيعي، ومعافى يتدبر تفاعيل قوى الشر، ومعقبات أفعال الدمار.. والآن فإنه يجري تحويلك إلى كائن سوي، صحيح، معافى..

فقلت:

- هذا ما لن يحدث معي، وما لا أفهمه بأي حال!.. إن ما تفعلونه معي هو جعلي أشعر باعتلال شديد، شديد!..

فقال الدكتور برانوم وما زالت الابتسامة الودود تعلو شفتيه:

- وهل تشعر الآن بأنك عليل سقيم؟...إن شربك الشاي، والراحة، وتبادلك حديثًا هادئًا مع صديق في هذا من المؤكد أنك لا تشعر بأي شيء سوى أنك بخير.؟.

لقد رحت أتلمس الإحساس بأي ألم أو سقم في رأسي وجسدي بحذر واستشفاف، لكن شعرت

حقًّا وصدقًا يا إخواني أنني على ما يرام، بل شعرت حتى بأنني أريد طعام العشاء!.. ثم قلت:

- لا أستطيع أن أفهم لابد أنكم تفعلون بي شيئًا لكي تجعلوني أشعر بالاعتلال!..

وشفعت هذا بتقطيب كمن يتأمل ويتدبر..

فقال الدكتور برانوم:

- إنك شعرت بالاعتلال بعد ظهر هذا اليوم لأنك كنت تتحسن وتتعافى.. إننا عندما نكون أصحاء معافين فإننا نستجيب لوجود ما هو مكروه بالشعور بالخوف والغثيان.. كل ماهناك هو أنك تتماثل للصحة والسواء.. ولسوف تكون أوفر صحة وسواء في مثل هذه الفترة غدًا..

قال هذا ثم ربت على ساقي وانصرف.. وتركني أحاول أنّ أفهم هذا اللغز العجيب بقدر ما يسعفني الفهم.. وما بدا لي هو أن تلك الأسلاك وغيرها مما ثبتوه على جسدي ربما كانت هي التي جعلتني أشعر بالاعتلال، وإن كل ذلك ما هو إلا خدعة وتلاعب في الواقع!.. وكنت لا أزال أتدبر هذا اللغز وأفكّر فيما اذا كان ينبغي أن أرفض غدًا شدي إلى ذلك المقعد وأبدأ عملية عنف معهم لأن لي حقوقي - عندما دخل شخص آخر بادي الوجاهة والابتسام وقال لي انه هو ما يسمونه (بضابط الإفراج)، وكان يحمل معه أوراقًا كثيرة، وخاطبني قائلًا:

- أين تنوي أن تذهب عندما تخرج من هنا؟..

في الحق أنني لم أفكر في شيء من هذا بتاتًا، وبرقت أمامي الآن فكرة أنني سأنال حريتي عاجلًا، ورأيت أنّ هذا سيتحقق فعلًا إذا أنا جاريتهم في كل ما يطلبون ولم ألجأ إلى أي شيء من العنف أو الصراخ أو الرفض وما إلى ذلك وهكذا قلت له ردًا على سؤاله:

- آه!.. سأذهب إلى بيتي.. إلى (بي) و(مي)..

- إلى ماذا؟..

لم يفهم لغة (نادسات) تلك، وهكذا فسرت له:

- ... إلى والديَّ في مسكننا العزيز..

فقال:

- فهمت... ومنذ متى كانت زيارة والديك لك؟...

فأجبت قائلًا:

- منذ شهر.. أو حوالي هذا.. انهم أوقفوا (يوم الزيارة) لفترة لأن أحد المسجونين حاول تهريب مادة ناسفة عبر الأسلاك بواسطة صديقته... وهي خدعة حقيرة لمن هم أبرياء، وكأنما كان يراد عقابهم هم أيضًا!.. ولهذا مضى قرابة شهر منذ آخر زيارة..

فقال الرجل:

- مفهوم وهل ابلغ والديك بأمر نقلك إلى هنا والإفراج عنك قريبًا؟..

كان لكلمة (الإفراج) رنين بديع مفرح، وقد أجبت قائلًا:

- كلا.. أنها ستكون مفاجأة لطيفة لهما، أليس كذلك؟.. إذ أدخل عليهما من الباب وأقول لهما: «هأنذا عدت حرًا طليقًا مرّة أخرى!» نعم.. هذا شيء رائع فعلًا...

فقال ضابط الإفراج:

- صحيح.. سنكتفي بهذا، مادام لك مقر للإقامة.. والآن بقيت مسالة إيجاد عمل لك، أليس كذلك؟

وأراني قائمة طويلة بالأعمال التي يمكن أن التحق بها، غير أنني فكرت، ورأيت أن الوقت لا يزال أمامي لهذا الغرض.. المطلوب أولًا هو إجازة لطيفة.. بإمكاني القيام بـ(عملية) من عمليات الماضي حالما أخرج لكي أملأ جيوبي بمال وفير، ولكن يتعين عليَّ أن التزم الحد، وأن أتم العملية بمفردي تمامًا.. فلن تكون لي بعد الآن ثقة بأولئك الرفاق المزعومين.. وهكذا قلت لذلك الرجل أن نؤجل مسألة العمل بعض الوقت ويمكن أن نتداول فيها فيما بعد.. فلم يزد على قوله: صح، صح، صح!.. ثم تأهب للانصراف...

غير أنه فعل شيئًا يدل على الغرابة الشديدة، فقد تضاحك برهة ثم قال لي:

- هل تود أن تلطمني على وجهي قبل أن أذهب؟..

لا أظن أنني سمعت هذا جيدًا، ولهذا قلت له:

- ايه؟!

فتضاحك مرّة أخرى وقال:

- هل تود أن تلطمني على وجهي قبل أن أذهب؟..

قطبت وجهي لهذا الكلام وقد زادت دهشتي وحيرتي، وقلت:

- ولماذا؟..

فأجاب قائلًا:

- لمجرد أن أرى كيف تتقدم حالتك..

قال هذا وأدنى وجهه مني وقد شاعت في وجهه ابتسامة عريضة.. وهكذا ضممت قبضتي ووجهت بها لطمة على وجهه بيد أنه أزاغ وجهه بسرعة وهو لا يزال باسمًا، وهوت قبضتي في الهواء!..

يا للعجب العجاب، ويا لغرابة هذا الذي حدث!.. ولم أتمالك أن قطبت وجهي حين انصرف والابتسامة تغمر وجهه..

وعلى الأثر شعرت يا إخواني باعتلال حقيقي وغثيان مرّة أخرى كما حدث لي في فترة بعد الظهر، ولكن مدى دقيقتين أو نحوهما.. ثم زال عني هذا سريعًا، وعندما أحضروا لي طعام

العشاء وشعرت بشهية طيبة وأقبلت على نهش الدجاجة المشوية.. لكن كان من المضحك أن يطلب ذلك الرجل أن ألطمه على وجهه، وكان من الغريب أن أشعر بالاعتلال كما حدث لي!..

لكن كان الأبعث على الضحك والغرابة هو ما حدث لي أثناء النوم هذه الليلة.. فقد انتابني كابوس، وكان يدور كما يُمكنك أن تتوقع، حول تلك الأفلام التي شاهدتها عصرًا.. إن الحلم أو الكابوس هو في الواقع أشبه بفيلم يدور في رأسك، فيما عدا أنه وكأنك تمشي في ثناياه وتكون جزءًا منه وهذا ما حدث لي.. كان الكابوس يمثل لقطات من الفيلم الذي أروه لي قرب نهاية الجلسة، عن فتيان يعتدون على فتاة شابة كانت تصرخ من خلال دمائها القانية وقد مزقت ملابسها شر ممزّق.. وكنت في قلب هذا المشهد الفاجر أضحك وأتزعم هذه الزمرة مرتديًا آخر (موضة) في زي فتيان (النادسات).. وعند نهاية هذا العدوان شعرت بما يشبه الشلل والرغبة في القيء، بينما ذهب الباقون يضحكون مني وبعدها أخذت أشق طريقي إلى اليقظة وأنا ملتاث بدمي الذي كان ينسكب ويجرى غزيرًا، ثم ألفيتني في النهاية في فراشي في هذه الغرفة... لقد أردت أن أتقيأ، وهكذا نزلت من الفراش وأنا أرتعد بشدة لكي أنتقل إلى دورة المياه في الممشى، ولكن، ويا للعجب يا إخواني، كان الباب مغلقًا وعندما عدت وجدت النافذة مشبكة بالقضبان.. وهكذا لم يكن أمامي سبيل للهرب من كل هذا.. وبعد فترة شعرت أنني لا أريد الآن أن أتقيا.. وأخيرًا غلبني النوم، ولم أعد أحلم مرة أخرى..

الفصـل السـادس

- أوقفوا هذا!.. أوقفوا هذا!.. أوقفوا هذا!.. كفوا عن العرض يا أولاد الحرام، فلن أقوى على الاحتمال أكثر من هذا!..

بهذا رحت أصرخ وكان ذلك في اليوم التالي يا إخواني، وقد رحت أبذل أقصى جهدي صباحًا ومساءً لمجاراتهم فيما يفعلون بي وجلست مبتسمًا متعاونًا في كرسي العذاب، وهم يعرضون لقطات أفلام العنف على الشاشة وعيناي مشدودتان إلى أعلى ومفتوحتان على سعتهما لكي أشهد كل ما يدور، وقد شمر جسدي ويداي وقدماي في المقعد بلا مهرب ولا فكاك.. وإن ما جعلوني أشاهده الآن لم يكن في الحق شيئًا كان يمكن أن أعده بالغ السوء في الماضي، ولم يكن أكثر من ثلاثة أو أربعة فتيان يحطمون دكانًا ويملئون جيوبهم بالنقود ثم يضربون صاحبته التي تحاول الهرب والدماء تسيل منها.. لكن الدق العنيف المتواصل في رأسي، والميل إلى القيء، والعطش الشديد في فمي، والتيبس المؤلم في حلقي - كان كل أولئك أسوأ مما كان بالأمس..

هكذا رحت أصرخ:

- أواه!.. كفاية!.. ليس هذا عدلًا يا ظلمة!..

وحاولت أن أتملص من الكرسي، غير أنّ هذا لم يكن ممكنًا وإنّما سمرت فيه وغدوت جزءًا منه!..

ثم هتف الدكتور برودسكي هذا:

- درجة أولى!.. أنت تتقدم بصورة طيبة في الواقع!.. فيلم واحد فقط، ثم نفرغ منك!..

ثم عرض فيلم آخر عن حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ مرّة أخرى، وكان من الألمان، وقد بدئ بشعارات النسور الألمانية وعلم النازي ذي الصليب المعقوف الذي يشغف تلاميذ المدارس برسمه.. ظهر ضباط ألمان يمشون متعالين متغطرسين في شوارع امتلأت بالأتربة وحفر القنابل والمباني المدمرة.. ومن بعدهم ظهر أناس يعدمون رميًا بالرصاص أمام حوائط تنفيذًا لأوامر الضباط ثم تبدو جثث عارية ملقاة في الأوحال وكانت أشبه بأضلاع مجردة وسيقان منحولة بيضاء، وأعقب ذلك مشهد أناس يجرون جرًا وهم يضربون ويصرخون وإن غطى صوت الموسيقى على أصواتهم.. وقد لاحظت بين الألم والغثيان يا إخواني إن الموسيقى التي كان لها دوي قاصف هي موسيقي بتهوفن، أو بالأحرى الحركات الأخيرة من السيمفونية الخامسة، وهكذا لم أتمالك أن صرخت فيهم:

- توقفوا!.. توقفوا يا كلاب!.. هذه جريمة!.. جريمة قذرة لا تغتفر!..

إنهم لم يتوقفوا على الأثر، إذ بقيت دقيقة أو اثنتان على نهاية الفيلم - وكانت مشاهد أناس يضربون ودماؤهم تسيل، ومزيد من عمليات الإعدام رميًا بالرصاص، ثم راية النازي وكلمة (النهاية)..

ولكن عندما أضيئت الأنوار ألفيت الدكتور برودسكي هذا وكذلك الدكتور برانوم واقفين أمامي، ثم قال الدكتور برودسكي:

- ما هذا الكلام الذي قلته عن (جريمة)؟..

فقلت وأنا في شدّة الاعياء والاعتلال:

- أعني استخدام موسيقي بتهوفن بهذه الكيفية.. إنه لم يفعل أذى لأي إنسان.. بتهوفن لم يفعل غير وضع الموسيقى..

ولم ألبث أن غالبني القيء، فأحضروا لي وعاء على شكل كلية وأخيرًا قال الدكتور برودسكي متأملًا:

- موسيقى.. اذن فأنت شغوف بالموسيقى!.. أنا شخصيًا لا أعرف شيئًا عنها.. كل ما أعرفه هو أنها مفيدة في ترقية العواطف.. حسن.. حسن.. ما رأيك في هذا يا برانوم؟..

فأجاب الدكتور برانوم:

- هذا شيء لا حيلة فيه.. كل انسان يقتل الشيء الذي يحبه، كما قال أحد الشعراء.. ولعل هذا العنصر العقابي.. ينبغي الحكومة أن تسير بهذا..

أمّا أنا فقلت:

- أعطوني ما أشرب، بحق الله!..

فأصدر الدكتور برودسكي أمره قائلًا:

- فكوه.. وهاتوا له دورقًا بالماء المثلج..

وهكذا أسرع الممرضون؛ وبعد قليل كنت أعب الماء عبًا وشعرت كأنني كنت في السماء يا إخواني!.

وقال الدكتور برود سكي:

- يبدو أنك فتي موفور الذكاء.. ويبدو أيضًا أنك لست بغير ذوق وحس مرهف.. وكل ماهناك أنك اكتسبت ظاهرة العنف، أليس كذلك؟.. العنف والسرقة، والسرقة هي ظاهرة من ظواهر العنف..

إنني يا إخواني لم أفهم كلمة واحدة من هذا.. كنت لا أزال اشعر بالاعتلال والغثيان، وإن طرأ عليّ الآن شيء من التحسن لكنه كان يومًا عصيبًا مروعًا..

وعاد الدكتور برود سكي يقول:

- والآن، ما رأيك فيما يفعل بك؟.. قل لي، ماذا تظن إننا فاعلون بك..

فقلت:

- إنكم تعملون على جعلي أشعر بالاعتلال.. إنني أشعر بالاعتلال والسقم عندما أنظر إلى هذه الأفلام القذرة المنحرفة التي تعرضونها.. لكن ليست الأفلام حقًّا هي التي تفعل بي هذا.. إنني أشعر أنكم لو توقفتم عن عرض هذه الأفلام، فسوف يتوقف شعوري بالاعتلال والسقم..

فقال الدكتور برود سكي:

- صح.. هو الترابط والتداعي.. أقدم أسلوب تعليمي في العالم.. وما هو الذي يجعلك تشعر فعلًا بالاعتلال والسقم؟..

فقلت:

- هذه الاشياء البشعة التي تتولد في رأسي وجسدي نتيجة لما تفعلون بي..

فقال الدكتور برودسكي.. في شيء من الضجر:

- لا بأس.. لا بأس.. ليست الاسلاك هي التي تفعل بك هذا.. ليس لما تشكو منه علاقة بقيودك هذه إنّما هي لمجرد قياس ردود الفعل عندك.. ما هو السبب اذن؟

فجأة خطر لي أنني كنت أعمى إذ لم أفطن إلى أن الحقن التي كانوا يحقنون بها ذراعي هي السبب، وهكذا صرخت قائلًا:

- آه!.. آه!.. إنني أرى الآن كل شيء!.. هي خدعة حقيرة.. وخيانة قذرة، ولن تفعلوا هذا بي بعد الآن!..

فقال الدكتور برودسكي:

- أنا مسرور لأنك تبدي الآن اعتراضاتك.. الآن يمكن أن نكون واضحين تمامًا في كل شيء.. بإمكاننا أن ندخل تلك المادة، (مادة لودوفيكو) في تكوينك بطرق كثيرة مختلفة.. عن طريق الفم مثلًا.. لكن طريقة الحقن تحت الجلد هي الأفضل.. لا تقاوم ما يعطى لك من فضلك.. لا فائدة من أية مقاومة، فلا يُمكنك أن تغلبنا!..

فقلت في تأثر يكاد يبلغ حد البكاء:

- يا ملاعين!.. انني لا أهتم بما تعرضون من أفلام العنف وما إليها!.. بإمكاني أن أتجاوز عن هذا.. ولكن في مسألة الموسيقى ليس هذا من الإنصاف والعدل!.. ليس من الانصاف والعدل أن تسمعوني الموسيقى الجميلة لبتهوفن وهاندل وغيرهما.. كل هذا يبين أنكم عصبة من أولاد الحرام، ولن أغفر لكم هذا بأي حال...

بدا لي أن الاثنين يفكران ساهمين.. وما لبث الدكتور برودسكي أن قال:

- التحديد والتخطيط دائمًا صعب.. الدنيا شيء.. والحياة شيء آخر.. إن أحلى وأسمى النشاطات تتشارك بدرجة ما في أعمال العنف.. في الجنس مثلًا، في الموسيقى مثلًا.. لابد أن تجرب حظك يا ولد.. وكان الاختيار كله منوطًا بك.

لم أفهم كل هذا الكلام، لكنني قلت بعد أن غيرت لهجتي بعض الشيء بطريقتي الماكرة.

- لا حاجة إلى الاستمرار في هذا أكثر من ذلك.. فقد برهنتم لي أن كل أعمال العنف هذه من ضرب وقتل وغيرهما هي خطأ، وخطأ فظيع!.. إنني تعلّمت الدرس يا سادة!.. وقد تبينت الآن ما لم أتبينه من قبل أبدًا.. وقد شفيت الآن بحمد الله!..

قلت هذا وأنا أرفع عيني إلى السماء تبجيلًا واجلالًا..

غير أن الطبيبين هزا رأسيهما على نحو من الحزن، وقال الدكتور برودسكي:

- أنت لم تشف بعد.. وهناك الكثير مما لابد أن نفعله.. فقط عندما يستجيب جسدك استجابة فورية وقوية إلى العنف، كما يستجيب ازاء أفعى، ودون مساعدة اخرى من جانبنا، ودون طبيب عند هذا فقط..

فقلت مقاطعًا:

- لكن سيدي وسادتي... أرى أنّ هذا خطأ!.. هذا خط لأنه ضدّ المجتمع، وخطأ لان كل انسان على وجه الأرض له حقه في أن يحيا ويسعد دون أن يتعرض للضرب أو الاعتداء بالمدى...

غير أن الدكتور برودسكي تلقى هذا الكلام بضحكة عالية متصلة حتى بدت كل أسنانه البيضاء، وقال:

- كلام مزوق... أرى ما هو صواب وأقره، لكنني أفعل خطأ!.. كلا كلا يا ولدي.. لابد أن تترك كل شيء لنا.. لكن كن منشرحًا متفائلًا.. وعما قريب سينتهي كل شي.. وفي أقل من أسبوعين سوف تكون رجلًا حرًا..

وشفع هذا الكلام بأن ربت على كتفي..

في أقل من أسبوعين؟! أواه يا إخواني وأصدقائي!. هذه المدة كأنها دهر!.. كأنها منذ بداية الخليقة إلى نهايتها! إن اختتام الأربع عشرة سنة بقية المدة المحكوم بها عليّ بالعودة إلى السجن كان في نظري أهون من هذا!..

وعندما جاءت الممرضة المكلفة بالحقن، وإن كان ذلك بعد أربعة أيام من حديثي ذلك مع الدكتور برودسكي والدكتور برانوم، قلت لها:

- آه.. لا.. لن تفعلي هذا...

وضربتها على يدها، فهوت الحقنة برنين على الأرض.. وإنّما فعلت هذا لكي أرى ماذا هم فاعلون.. فكان أن جاء أربعة أو خمسة من الممرضين الأشداء الملاعين وألزموني الفراش وهم يضربونني ووجوههم باسمة قريبة من وجهي، وهنا قالت تلك الممرضة:

- يا لك من شيطان صغير شقي!.

وغرست حقنة أخرى في ذراعي وبها تلك المادة الكريهة الشيطانية وبعدها نقلوني في الكرسي المتحرك منهكًا إلى موقع تلك السينما الجهنمية كما كان من قبل...

وكل يوم يا إخواني كانت تلك الأفلام كمثيلاتها: اعتداء بالضرب والرفس، ودماء حمراء قانية

تقطر من وجوه وأجساد وتلطخ عدسات الكاميرا عن آخرها!.. كانت دائمًا مشاهد فتيان يبتسمون ويضحكون وهم في قمة (موضة النادسات)!.. أو مظاهر تعذيب وحشية من جنود متبربرين عملهم بقر البطون والرمي بالرصاص!.. وكل يوم كان احساسي بالرغبة في الموت من القيء، وأوجاع الرأس وآلام الأسنان، والعطش الرهيب المشتد كان احساسي بهذا يزيدني سوءًا وكربًا!.. إلى أن جاء يوم حاولت في صباحه أن أقهر أولاد الحرام أولئك بدق راسي في الجدار دقًّا متواصلًا حتى أخر مغشيًا عليه، لكن كل ما حدث هو أنني رأيت هذا النوع من العنف كان مماثلًا للعنف في الأفلام، ولم أجن من هذه المحاولة سوى الاعياء والوهن، واستمر اعطائي الحقن، واستمر نقلي بالكرسي المتحرك كما كان من قبل!..

ثم جاء صباح يوم استيقظت فيه وتناولت افطارًا من البيض و(التوست) والمربى والشاي باللبن الساخن جدًّا، وعندها فكرت: «لا يمكن أن يطول الوقت كثيرًا الآن.. لابد أن نهاية هذه المسألة أصبحت قريبة جدًّا.. إنني قاسيت إلى أبعد حد ولا يمكنني أن أقاسي أكثر من هذا!..».. وجعلت انتظر يا إخواني أن تأتي تلك الممرضة بالحقنة، غير أنها لم تحضر وبعدئذ جاءني ممرض وقال لي:

- اليوم يا صاحبي سندعك تمشي..

فقلت:

- امشي؟!.. إلى اين؟..

فأجاب قائلًا:

- إلى المكان المعتاد.. نعم، نعم.. لا تدهش هكذا.. ستمشي إلى مكان الأفلام، وأنا معك بالطبع.. لن تنقل بعد الآن في كرسي متحرك..

فقلت:

- لكن. ماذا عن تلك الحقنة الصباحية الفظيعة؟..

فقد دهشت حقًّا يا أصدقائي من هذا، بعد أن رأيتهم مهتمين إلى أبعد حد بإدخال (مادة لودوفيكو) تلك في جسدي كما أخبروني.. وأضفت قائلًا:

- ألن آخذ تلك المادة البشعة المقززة في ذراعي المعذب بعد الآن؟..

فقال الممرض باسمًا:

- بتاتًا إلى الابد والى الأبد، آمين!.. أنت الآن مستقل بنفسك يا ولدي.. تمشي بإرادتك إلى غرفة الفظائع.. لكن سوف يستمر ربطك في الكرسي وإجبارك على المشاهدة.. هيا إذن أيها النمر الصغير!..

ولم أجد بدًا من لبس روبي و(شبشبي) والمشي في الردهة إلى (دار السينما) تلك!..

والآن في هذه المرّة يا إخواني لم أكن فقط معتلًا جدًّا بل متحيرًا أيضًا.. لقد تكررت المشاهد السابقة من جديد، أعمال العنف بكل انواعها، وأناس تهشّم رؤوسهم وتسيل دماؤهم، ونساء

يصرخن مسترحمات، إلى آخر هذه القائمة من الفظائع والقبائح!.. ثم جاءت مشاهد معسكرات الاعتقال وتعذيب المعتقلين والشوارع الأجنبية الكابية المليئة بالدبابات والجنود والأسرى يتساقطون صرعى برصاص الإعدام.. في هذه المرّة لم يكن لي أن ألوم أحدًا لشعوري بالغثيان والعطش والأوجاع فيما عدا إجباري على رؤية ما أشهد، إذ ظلت عيناي مشدودتين عنوة للنظر وجسدي كله موثق في المقعد وإن كانت الأسلاك لم تعد متصلة، برأسي وجسدي.. إذن فماذا يمكن أن يكون هذا إلا أن الأفلام التي أشاهدها هي التي تفعل هذا بي؟.. وإلا أن (مادة لودوفيكو) تلك يا إخواني كانت بمثابة مصل) وها هي ذي تسري في جسدي ودمي، لكي أظل أشعر بالغثيان إلى الأبد كلما شاهدت شيئًا من أفعال العنف تلك!! هكذا اختلج فمي وانبثقت الدموع في عيني تحجب ما كنت مكرهًا على مشاهدته غير أن هؤلاء الممرضين الملاعين خفوا إليّ يمسحون دموعي قائلين:

- عيب على مثلك البكاء يا بني!..

ووضحت صور المشاهد أمام عيني من جديد... الألمان يسوقون اليهود الباكين المستصرخين رجالًا ونساء وأطفالًا إلى غرف الغاز السام... وإذا الدموع تنبثق من عيني مرّة أخرى، فيسارع الممرضون إلى مسحها لئلا يفوتني أقل شيء مما يعرضونه أمامي!.. لقد كان هذا يا إخواني وأصدقائي يومًا عصيبًا مشهودًا!..

كنت ممددًا في فراشي تلك الليلة بعد عشاء من حساء الضأن الدسم وفطيرة الفاكهة و(الآيس كريم)، وذهبت أفكر على هذه الصورة:

- سحقًا لهم!.. ربما كانت الفرصة أمامي للنجاة إذا أنا هربت الآن!...

لكن لم يكن معي أي سلاح، ولم يسمحوا لي حتى بمطواة.. وكان يحلق ذقني يومًا بعد يوم شخص سمين أصلع كان يأتي إلى فراشي قبل الإفطار بينما يقف عن كثب اثنان من الممرضين للاطمئنان إلى أنني انسان مسالم!.. وكانوا قد قلموا أظافر يدي عن آخرها لئلا اخمش أو أخدش أحدًا!.. لكنني سريعًا في الهجوم، وإن كانوا قد أوهنوا قواي يا إخواني حتى أصبحت أقرب إلى شبح مما كنته في أيام الحرية الخوالي!.. وعندما اختمرت الفكرة في ذهني هبطت من الفراش وذهبت إلى الباب الموصد وأخذت أضربه بعنف وأنا أصرخ قائلًا:

- النجدة!.. النجدة!.. أنا أموت!.. طبيب!.. طبيب.. طبيب بسرعة!..

لقد جف حلقي وبح صوتي قبلما جاء أحد.. ثم سمعت وقع أقدام آتية في الممشى وصوتًا يزمجر، وعلى الأثر تعرفت على الممرض الذي كان يأتيني بالطعام ويصحبني إلى حتفي المحتوم كل يوم.. فقال ساخطًا:

- ماذا جرى؟.. ماهي لعبتك القذرة هذه المرّة؟..

فقلت متأوهًا متوجعًا:

- إنني أموت!.. أشعر بألم مميت في جنبي!.. هي الزائدة الدوديّة!.. آه!.. آه!.. أواه...

فرد الممرض مزمجرًا:

- زائدة في عينك!..

وشد ما كانت فرحتي يا إخواني عندما سمعت صليل مفاتيح وصوته يقول:

- اذا كنت تحاول خداعنا يا صديقي الصغير فإنني وزملائي سنضربك ونؤدبك طول الليل!..

وما لبث أن فتح الباب فكان فتحه بشيرًا بقرب حريتي وكنت أسرع منه في الوقوف خلف الباب عندما فتحه، ولمحته في ضوء الممشى يتلفت حوله بحثًا عني في دهشة وحيرة.. وهنا رفعت قبضتي الاثنتين لكي ألطمه على عنقه بعنف، وأقسم لكم أنني عندما تخيلته ممددًا على الأرض سلفًا يئن من الضربة ويغيب عن الوعي حتى تملكتني الفرحة - عندها شعرت بالغثيان يرتفع في داخلي كأنه موجة، وأحسست بخوف شديد وكأنني أوشك أن أموت... وما لبثت أن عدت مترنحًا إلى الفراش، وبدا الممرض الذي لم يكن في معطفه الأبيض بل في (روب)، يفهم ما كنت انتويه، إذ قال لي:

- حسن.. كل شيء كأنه درس.. أليس كذلك؟ الانسان يتعلم في كل وقت.. هيا يا صديقي الصغير، قم من الفراش واضربني.. أريد أن تضربني حقيقة... ضربة قوية على الفك!.. إنني مشتاق لهذه الضربة وحقك!..

لكن كل ما استطعت أن أفعله يا إخواني هو أنني لبثت ممددًا في الفراش أبكي وأنتحب إلى أن قال الممر ض ساخرًا:

- يا حقير!.. يا قذر!..

ثم جذبني من ياقة بيجامتي وأنا في منتهى الضعف والاعياء، وصوب إليّ لطمة أصابتني في وجهي، قائلًا:

- هذه نظير إخراجي من فراشي، أيها الحقير الصغير!..

ومسح يديه واحدة بالأخرى ثم خرج، وسمعت صرير المفتاح في قفل الباب..

وما كان لي يا إخواني الا أن ألوذ بالنوم هربًا من ذلك الإحساس الفظيع بأنه كان خيرًا لي أن أتلقى اللطمة بدلًا من أن أعطيها بل لو أنّ ذلك الممرض قد بقي، فربما أدرت له خدي الاخر!..

الفصـل السـابع

لم أستطع يا إخواني أن أصدق ما قيل لي.. فقد بدا لي كأنني لبثت في هذا المكان اللعين دهرًا، وأنني سأبقى فيه إلى أبد الابدين... لكن الفترة كلها لم تزد عن اسبوعين، وقد أبلغوني الآن أن فترة الأسبوعين قاربت النهاية..

قالوا لي:

- غدًا، يا صديقنا الصغير، إلى الخارج، إلى الخارج، إلى الخارج!..

وأكدوا هذا التصريح برفع أصبع الإبهام، ايماء إلى الحرية...

وبعدئذ جاءني الممرض ذو المعطف الأبيض الذي لطمني والذي مازال يحضر لي الطعام ويصحبني كل يوم إلى غرفة العذاب، وقال لي:

- .. لكن لا يزال أمامك يوم حافل.. إنه سيكون جواز مرورك إلى الخارج..

وشفع هذا بابتسامة خبيثة..

وكنت أتوقع هذا الصباح أنني سأنتقل إلى (دار السينما) الرهيبة كالمعتاد بالبيجاما و(الشبشب) والروب لكن كلا..

في هذا الصباح أعطوني قميصي وملابسي الداخلية والخارجية وحذاء الرفس الضخم، وكلها مغسولة ومكواة ومصقولة.. بل انهم أعطوني مطواتي (قرن الغزال) التي كنت أستعملها في تلك الأيام الخوالي السعيدة للمعابثة والعدوان!.. وهكذا رحت أرتدي هذه الملابس وأنا عابس حيران لما أرى، غير أن الممرض لم يعد أن ابتسم ولم يشأ أن يقول شيئًا يا إخواني!..

ثم اقتادوني بترفق بالغ إلى (دار السينما) الجهنمية، لكنني ألفيت تغييرات قد حدثت بها.. فقد حجبت ستائر شاشة العرض، ولم يعد الزجاج الحبيبي أسفل فتحات العرض قائمًا مكانه، ولعلهم رفعوه أو طووه مثل ستائر النوافذ وفي المكان الذي كانت تسمع فيه أصوات السعال والتقط الأحاديث وأشباح أشخاص كان هناك الآن حشد من النظارة تبينت بينهم وجوهًا أعرفها، منها محافظ السجن، وواعظه، ورئيس الحراس، وتلك الشخصية الهامة جدًّا التي كان صاحبها يرتدي أفخر الملابس: أعني وزير الداخلية... أما الباقون فلم أكن أعرفهم.. وكان الدكتور برودسكي والدكتور برانوم بين الحضور، وإن لم يكونا الآن بالمعاطف البيضاء، بل كانا يرتديان ايضًا ملابس فخمة مثل كبار الأطباء وقد اكتفى الدكتور برانوم بالوقوف، بيد أن الدكتور برودسكي كان يخاطب المجتمعين بأسلوب المحاضرين وعندما رآني أدخل قال مواصلًا حديثه:

- آه... عند هذه المرحلة أيها السادة نقدم لكم (الموضوع) ذاته.. إنه كما سوف ترون سليم وجيد التغذية.. وهو قادم الآن بعد نوم ليلة والإفطار طيب، وهو غير مخدر ولا منوم مغناطيسيًا وغدًا نرسله في ثقة إلى العالم الخارجي من جديد، فتى مهذبًا كأي فتى تلتقون به في صباح يوم

من مايو، مبرأ من الشر والعنف، نزاعًا إلى الكلمة الطيبة والعمل الإيثاري.. ما أعظم هذا التغيير، أيها السادة، الذي طرأ عليه بعد أن كان منحرفًا منكودًا قضت عليه الدولة بعقوبة غير مثمرة منذ نحو سنتين، فلم يتغير فيه شيء خلال تلك الفترة!.. بل أن وجوده في السجن علمه الابتسامة الزائفة، والنفاق، والتمسح الساخر!.. لقد علمه السجن رذائل أخرى كثيرة، كما قوى فيه تلك الرذائل التي طالما مارسها في الماضي لكن نكتفي الآن أيها السادة بالكلام.. فالأفعال ستكون أفصح لسانًا.. إلى العمل الآن!.. لاحظوا كل ما يجري!..

في الحق يا إخواني لقد شعرت بشيء من الذهول لهذا الكلام ورحت أحاول في ذهني أن استوعب أن كل هذا كان بخصوصي وعلى الأثر أطفئت الانوار، ثم أعقب ذلك ظهور دائرتين من الضوء المنبعث من مربعات العرض السينمائي سلط أحدهما على شخص محدثكم المتواضع المعذب، وظهر في الدائرة الثانية شخص ضخم لم أره من قبل.. كان له فم غليظ وشارب وخصلات من شعر قليل التصقت في شبه خطوط على رأسه شبه الاصلع.. وكان يناهز الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، أو سنًا متقدمة في هذا المدار.. وما لبث أن اقترب مني تتبعه دائرة الضوء حتى استحالت الدائرتان إلى دائرة واسعة.. وقد قال لي مستهزئًا:

- هالو يا كوم الأوساخ!.. أف!.. أنت لا تغتسل كثيرًا كما تدلّ عليه رائحتك الفظيعة!..

ثم بدأ بحركة شبه راقصة وداس على قدمي اليسرى ثم اليمنى، ثم خدش بإظفر إصبعه أنفي خدشة عنيفة آذتني بشدة وأسالت الدموع من عيني!.. ثم فرك أذني اليسرى كما لو كان يدير مفتاح الراديو حتى سمعت ضحكًا عاليًا من الحضور!.. ومن فرط ما آلمني وجع أنفي وأذني وقدمي قلت له:

- لأي شيء تفعل هذا بي؟.. أنا يا أخي لم أفعل شيئًا خاطئًا في حقك!..

فقال ذلك المخلوق:

- آه... أنا افعل هذا (وخدش أنفي مرة ثانية) وهذا (وفرك صوان أذني) وهذا (وداس بعنف على قدمي اليمنى) - أفعل هذا كله لأنني لا أهتم بشخصك الحقير!.. وإذا كنت تريد أن تفعل أي شيء في المقابل، فلتبدأ!.. أبدأ من فضلك!

في هذه اللحظة أدركت أنه لابد أن أسرع بالعمل وأخرج مطواتي قرن الغزال الفتاكة قبلما تفارقني حماسة المعركة.. لكن آه يا إخواني!.. ما إن امتدت يدي إلى جيبي تلتمس المطواة حتى تجلت لخاطري صورة ذلك المخلوق المعتدي وهو يصرخ مسترحمًا والدم الأحمر القاني يسيل من فمه، وسرعان ما اقترنت هذه الصورة بمشاعر الغثيان والجفاف والآلام تطبق عليّ، وأدركت أنه لابد من تغيير الانطباع الذي أحسست به حيال ذلك المخلوق الكريه حتى لا تتفاقم تلك المشاعر في نفسي، وهكذا تحسست جيبي التماسًا لسجائر أو نقود، غير أني ألفيت يا إخواني جيوبي خلوًا منها.. فقلت له على الأثر متلعثمًا:

- بودي يا أخي أن أعطيك سيجارة، لكن يظهر أنه ليس معي شيء منها..

فرد عليّ قائلًا:

- عض أصابعك حسرة يا طفل، وابك بالدمع السخين...

وخدش أنفي بظفره المخلبي من جديد، حتى سمعت ضحكات المرح تتردد من صفوف الحضور.. فقلت في يأس محاولًا التلطف والاسترضاء لكي أحول دون استفحال ما ألم بي من غثيان وآلام:

- أرجوك أن تدعني أفعل شيئًا من أجلك!.. أرجوك...

وتحسست جيبي مرّة أخرى، فلم أجد سوى مطواة قرن الغزال. فأخرجتها وقدمتها إليه قائلًا:

- خذ هذه من فضلك!.. هدية صغيرة!.. خذها من فضلك!..

غير أنه قال:

- احتفظ برشوتك الحقيرة لنفسك.. لا يُمكنك أن تستغفلني بهذه الطريقة!..

ولطم يدي حتى سقطت المطواة على الأرض وهكذا رحت أقول له:

- لابد أن أفعل شيئًا من أجلك!.. هل أمسح حذائك؟ لابد أن أركع وألعقه!..

ويا إخواني صدقوا أو لا تصدقوا: فقد ركعت على ركبتي ومددت فمي لكي ألعق الحذاء القذر، لكن هذا المخلوق رفسني في فمي. وهكذا خطر لي أن الغثيان والالم لن يلما بي إذا أنا تشبثت بساقيه وطوحت بهذا المخلوق الحقير إلى الأرض.. ففعلت.. وكانت مفاجأة له أن يهوي على الأرض بين الضحك المتعالي من جمهور النظارة لكن رؤيتي له على الأرض أشعرتني بتصاعد تلك الأحاسيس الفظيعة وإطباقها عليّ، وهكذا مددت له يدي لكي أنهضه، فنهض قائمًا وفي اللحظة التي هم فيها أن يصوب إليّ ضربة عنيفة على فمي قال الدكتور برودسكي:

- لا بأس.. هذا سيثمر تمامًا..

وإذ ذلك رأيت هذا المخلوق الفظيع ينحني ثم يبتعد خفيفًا في حركات تمثيلية بينما أضيئت الانوار وأنا أطرف بعيني وفمي فاغر يوشك على الصراخ!..

وقال الدكتور بر ودسكي للحضور:

- إن (موضوعنا) قد اضطر للانحياز إلى الخير نقيضًا لاندفاعه نحو الشر.. إن نيته لعمل عنيف قد صاحبتها مشاعر قوية من الاضطراب الجسدي.. ولمواجهة ذلك كان لابد (للموضوع) أن يتحول عكسيًا إلى الحالة المضادة.. هل من أسئلة؟..

فتعالى صوت عميق عرفت فيه صوت القس يقول:

- وعامل الاختيار؟.. إنه ليس له رغبة حقيقيّة، أليس كذلك؟ إن المصلحة الذاتية والخوف من الألم البدني دفعاه إلى إذلال نفسه على تلك الصورة الشنيعة!.. وكان واضحًا عدم صدق انبعاثه لقد توقف عن فعل الشر وهو يتوقف أيضًا عن أن يكون مخلوقًا قادرًا على الاختيار الأخلاقي الفاضل!..

فرد الدكتور برودسكي باسمًا:

- هذه تخريجات تقوم على الحذلقة.. إننا غير معنيين بالدافع، بالأخلاقيات السامية!.. نحن معنيون فقط بقطع دابر الجريمة..

ورن صوت وزير الداخلية الأنيق الملبس:

- ومعنيون أيضًا بتخفيف التكدس المروع في سجوننا!..

وقال صوت من الحضور:

- اسمعوا!.. اسمعوا...

وهنا ارتفعت أصوات النقاش والمجادلة وأنا واقف مكاني يا إخواني وكأن هؤلاء الجهلاء التافهين قد تجاهلوا شخصي، وهكذا صرخت فيهم قائلًا:

- وأنا؟.. أنا.. أنا؟.. ماذا شأني؟.. أين مكاني في كل هذا؟.. هل أنا مجرد حيوان أو كلب؟..

فكان كلامي هذا باعثًا على احتدام نقاشهم وقذفهم كلمات إلى شخص.. وكذلك صرخت فيهم بأعلى من أصواتهم قائلًا:

- هل يُراد لي أن أكون فقط أشبه (ببرتقالة بقلب ساعة)؟!..

ولست أدري ما الذي جعلني أستخدم هذه الكلمات، تلك التي انبعثت في رأسي دون سؤال.. ولكنّها عقدت ألسنة الجمع لسبب ما نحو دقيقتين ثم ما لبث أحدهم وكانت تبدو عليه سمات الأساتذة الفطاحل أن نهض قائلًا وقد انتفخت أوداجه:

- لا حق لك أن تتذمر يا ولد.. إنك أديت اختيارك. وكل هذا هو نتيجة اختيارك.. وكل ما يمكن أن يترتب ويحدث بعد الآن هو ما اخترته أنت بنفسك..

وصاح واعظ السجن بدوره:

- آه لو كنت أعرف هذا!..

وقد لمحت محافظ السجن يصوب إليه نظرة كان معناها إنه لن يرقى في مراتب الوعظ في وظيفته كما كان يقدر.. وما لبث النقاش والجدل أن ارتفع مرّة أخرى، كما سمعت كلمة (الحب) تدور على الألسنة، وسمعت صوت واعظ السجن ذاته يصيح مثل غيره بعبارة أن (الحب السامي يطرد الخوف) وما إلى هذا وأخيرًا قال الدكتور برودسكي والابتسام يشيع في كل وجهه:

- يسرني أيها السادة أنكم عرضتم لموضوع (الحب) فالآن سوف نرى عمليًا لونًا من الحب كنا نظنه قد انطوى مع (العصور المتوسطة)..

وعندئذ انطفأت الأنوار وعادت دوائر الضوء مرّة أخرى، واحدة منها تشمل محدثكم وصديقكم المسكين المعذب، وسرى في الدائرة الثانية طيف أجمل وأحلى فتاة يمكن أن تقع نواظركم عليها يا إخواني مدى الحياة!.. ورغبة في الدقة أقول انها كانت ذات نهدين ترنو إليهما الأعين، وكانت ترتدي ملابس تنحدر وتنحدر وتنحدر أسفل الكتفين... وكانت ساقاها صورة لإبداع الخلق!.. وكانت تتهادى في مشيتها إلى حد يثير التنهدات، ومع ذلك كان محياها الفاتن ينضح بأحلى

ابتسامة وأعذبها.. وقد تقدمت نحوي تحف بها هالة السناء النوراني - حتى كان أول ما خطر ببالي هو أن أنقض عليها انقضاضًا، ولكن سرعان ما باغتني الغثيان وكأنه ديدبان كان متربصًا وما لبث أن وثب فجأة لاعتقالي!.. ثم أذكت رائحتها العطرة مشاعري وأثارت حواسي إلى حد تعين عليّ معه أن أجد أسلوبًا آخر للتفكير فيها قبل أن تلهمني أعراض الألم والعطش والغثيان الفظيع وتطبق على إطباقًا لا شك فيه وهكذا رحت أهتف بين يديها:

- آه يا أجمل وأبدع النساء!.. إنني لأطرح قلبي عند قدميك لكي تطئيه من كل جانب... لو كانت لديَّ وردة لقدمتها إليك!.. ولو كان المطر يهطل مدرارًا الآن على الأرض لقدمت اليك ملابسي لكي تمشي عليها لئلا تتلوث قدماك الرقيقتان بالبلل والأقذار!..

وكنت وأنا أقول هذا يا إخواني أشعر بالغثيان ينحسر عني.. وقد مضيت أهتف قائلًا:

- إنني لأعبدك وأكرس نفسي لمساعدتك وحمايتك من هذه الدنيا الشريرة!..

وفكرت لحظة في الكلمة المناسبة وقد دب التحسن إليّ، فرحت أقولها:

- دعيني أكن لك الفارس المخلص!..

وشفعت هذا بأن ركعت على ركبتي أمامها منحنيًا ومتمسحًا!..

ثم ساورني الوجوم على الأثر لما بدا لي أنه موقف تمثيلي مرّة أخرى، إذ أنّ هذه الفاتنة انحنت أمام الحضور باسمة، وانسحبت في خفة الطائر وقد أضيئت الأنوار مقترنة بالتصفيق!.. وقد بدا لي أن أعين طائفة من الحضور الأجلاء تكاد تجحظ وهي ترمق تلك الغادة الحسناء بنظرات ملتاثة ورغبة محرمة يا إخواني...

وسمعت صوت الدكتور برودسكي يدوي قائلًا:

- إنه سيكون المتدين الصالح، وعلى استعداد لكي يدير خده الآخر، وللاستشهاد بدل التعذيب، متقززًا حتى شغاف قلبه للتفكير في أن يقتل حتى ذبابة!..

وصدق الدكتور برودسكي يا إخواني، ذلك لأنّه عندما قال هذا كنت أفكر في قتل ذبابة، وعلى الأكثر شعرت بالغثيان والألم، بيد أنني دفعت عني الغثيان والألم عندما فكرت في إطعام الذبابة بفتات من السكر وعكفت على رعايتها مثل ما يرعى الإنسان حيوانًا أليفًا سال دمه، إلى آخر هذه الأمثلة!..

وفي الختام هتف الدكتور برودسكي بما هو مسك الختام:

- هذا هو سبيل الإصلاح، وأنتم على ذلك شهود..

وإذا وزير الداخلية الانيق يعقب قائلًا بجد كل الجد:

- المهم أنه أسلوب ناجح، وناجع!..

فما كان من الواعظ إلا أن تنهد قائلًا:

- لطف الله بنا!..

القســم الثـالـث

الفصـل الأول

ترى ما الذي سيكون بعد؟..

هذا هو السؤال الذي سألته لنفسي يا إخواني في صباح اليوم التالي وأنا واقف خارج ذلك المبنى الأبيض الملحق بالسجن العمومي، مرتديًا ملابسي التي كنت أرتديها ليلًا منذ سنتين في بكرة النهار الضبابية، ومعي حقيبة صغيرة بها حاجياتي الشخصية، إلى جانب نقود يسيرة تبرعت بها السلطات المجتمعة تكرمًا وتفضلًا لكي أستعين بها في استهلال حياتي الجديدة..

ولقد كنت بقية اليوم السابق متعبًا جدًّا، ناهيك عن المقابلات والأحاديث المسجلة والمصورة للصحافة والتليفزيون وغير ذلك مما يثير الارتباك والحيرة في أمثال هذه المواقف وبعدها ارتميت على فراشي منهكًا، فما استيقظت إلا على أصوات تدعوني إلى الخروج والذهاب إلى بيتي، مشفوعة بأنهم لا يريدون رؤية محدثكم الضعيف إلى الابد!.. وهأنذا الآن يا إخواني في بكرة الصباح وليس معي سوى تلك النقود النثرية اليسيرة في جيبي الأيسر اسمع رنينها في يدي وأفكّر فيما سيكون بعد يا ترى؟..

فكرت في البحث عن إفطار في مكان ما، إذ لم أتناول أي طعام في ذلك الصباح لانشغال الجميع واهتمامهم بإطلاق سراحي واخلاء سبيلي، وكل ما نلته هو قدح من الشاي لا أكثر..

كان موقع السجن في طرف كئيب من المدينة، لكن كانت تنتشر فيه مقاهي العمال، ولم يطل بي الوقت حتى وجدت واحدًا منها يا إخواني..

كان مقهى متواضعًا، لا يضيئه سوى مصباح وحيد في سقفه وقد جفت به نفايات الذباب فكادت تحجب ضوئه الكليل وكان به عمال مبكرون يتناولون الشاي وبعض السجق الشنيع المظهر وشرائح هزيلة من الخبز سرعان ما كانوا يلتهمونها طالبين المزيد.. وكانت تقوم على خدمتهم فتاة خلت من معالم الحسن إلا من نهدين بارزين، وكان بعض الآكلين يحاولون جذبها إليهم وهم يقهقهون وهي تضحك ضحكات ناعمة، غير أن مشهدهم كان يثير غثياني يا إخواني.. لكنني طلبت بعض الشاي والمربى والتوست بكل تأدب وبلغة المهذبين وجلست في ركن معتم أكل وأشرب...

وفي خلال هذا دلف إلى المشرب قزم آدمي يبيع جرائد الصباح فاشتريت نسخة، وكانت فكرتي أن أستعد للاندماج من جديد في الحياة العادية بالاطلاع على ما يجري في الدنيا والظاهر أنّ هذه الجريدة كانت حكومية، إذ كانت الأخبار الوحيدة على الصفحة الامامية عن الحاجة إلى أن يعمل كل فرد على عودة الحكومة إلى منصة الحكم في الانتخابات العامة القادمة، التي بدا أنها ستكون بعد نحو أسبوعين أو ثلاثة.. وكانت الصفحة تتضمن كلامًا فيه تفاخر بما قامت به الحكومة يا إخواني في العام الماضي أو نحوه، ناهيك بزيادة الصادرات ونجاح السياسة الخارجية وتحسين الخدمات الاجتماعية وأشياء من هذا القبيل.. لكن أشد ما كانت تفاخر به الحكومة فعلًا هو الكيفية التي أدت في تقديرها إلى إقرار الأمن في الشوارع لجميع المواطنين المسالمين الذين يسيرون في الشوارع ليلًا في مدى الشهور الستة الأخيرة، فضلًا عن تحسين مرتبات رجال

الشرطة واتخاذهم اجراءات مشددة ضدّ الشباب المنحرف واللصوص والعابثين بالأمن، وهو ما أثار اهتمام محدثكم المتواضع إلى حد ما.. وقد تضمنت الصفحة الثانية الجريدة صورة شبه مطموسة لشخص بدا مألوفًا في نظري، ثم تبينت أنّ هذه الصورة لم تكن إلا صورتي أنا.. أنا.. أنا!.. كنت أبدو في الصورة أقرب إلى الاكتئاب والوجل، ولكن هذا لم يكن الا بسبب أضواء كاميرات التصوير التي لاحقتني طويلًا.. وقد نشر تحت الصورة أن صاحبها هو أول خريج للمؤسسة الحكومية الجديدة لإصلاح الجناة، وقد أمكن شفاؤه من غرائزه الإجرامية في مدى أسبوعين فقط، وإنه الآن مواطن صالح مطيع للقانون، وهلم جرًا... ثم أطلعت على مقال حافل بالتفاخر عن تلك الطريقة المعروفة باسم (طريقة لودوفيكو)، وكيف كانت الحكومة آية في البراعة إلى غير ذلك من الكلام المنمق!.. وكانت هنالك صورة أخرى لشخص رأيت أنني أعرفه، وكان وزير الداخلية ذاته.. ووبدا في السطور المكتوبة أنه يتباهى بما حققه متطلعًا إلى عهد مشرق خال من الجريمة، ينعدم فيه الخوف من المهاجمات المتسمة بالجبن التي كان يقوم بها المنحرفون الشبان واللصوص ومعتادو الاجرام ومن إليهم.. وهكذا لم أتمالك أن ألقيت الجريدة على الارض حتى غطت بقع الشاي المسكوب والبصاق الشنيع من جانب (الحيوانات) التي كانت ترتاد هذا المشرب...

ترى إذن ما الذي سيحدث بعد الآن؟!..

إن الذي سيحدث يا إخواني الآن هو العودة إلى داري بمفاجأة لطيفة لأبي وأمي، أنا وحيدهما وولي عهدهما وربيب أحضانهما الحنونة.... وبعدها أستطيع ان استلقي في فراشي بغرفتي أو ما أسميه (وكري) الخاص وأستمع إلى شيء من الموسيقى الحبيبة، وفي نفس الوقت يتهيأ لي أن أفكر فيما أن سأفعله الآن بحياتي.. وكان ضابط (الإفراج) قد أعطاني في اليوم السابق قائمة طويلة بالأعمال التي يمكن أن أتقدم إليها، كما قام بالاتصال تليفونيًا بعدد من الأشخاص من أجلي لكن لم يكن في نيتي يا إخواني أن أذهب للعمل الآن مباشرة.. شيء من الراحة أولًا.. نعم!.. ثم تفكير هادئ في الفراش على صوت الموسيقى المحبوبة..

وهكذا ركبت الأتوبيس إلى منطقة (سنتر)، ثم الأوتوبيس إلى (كنجزلي أفنيو)، وكانت العمارة السكنية رقم ١٨ قريبة وسوف تصدقونني يا إخواني عندما أقول أن قلبي كان يدق ويدق بتأثير الانفعال.. وكان كل شيء في تمام الهدوء، إذ كان الوقت لا يزال في بكرة الصباح هذا الشتاء، وعندما دخلت إلى ردهة العمارة لم أجد أحدًا حولي، فيما عدا صور الرجال والنساء العارية المحفورة على جوانب المدخل رمزًا لكرامة العمال والعاملين.. وان ما أدهشني يا إخواني هو ما طرأ على هذا الرمز من تنظيف، فقد خلت الصور من العبارات البذيئة الفاحشة التي أضيفت على ألسنة العمال، ومحيت تلك الأجزاء القذرة التي رسمها على الأجسام العارية بالقلم الرصاص أفراد ملتاثو العقول فاسدو الطوايا!.. وكان ما أدهشني ايضًا هو إصلاح المصعد، فقد هبط إثر ضغطي على الزر الكهربائي، وكان من بواعث دهشتي كذلك أن جدران المصعد ذاته أصبحت نظيفة..

وهكذا صعد بي المصعد إلى الدور العاشر، ورأيت باب مسكني كما كان من قبل، وكانت يدي تهتز وترتعش عندما أخرجت من جيبي المفتاح الصغير الذي اعتدت أن أفتح به غير أني أدرت المفتاح بثبات في القفل وفتحت الباب ثم دخلت، فقابلت ثلاثة أزواج من الأعين تنظر إليّ بدهشة وفيما هو أقرب إلى الجزع، وكانت لأبي وأمي وهما يتناولان طعام الإفطار.. لكن كان ثمّة

شخص ثالث لم اره من قبل في حياتي، وكان مخلوقًا بدينًا بالقميص والحمالات، وقد تربع كأنه في بيته يا إخواني يحتسي الشاي باللبن ويقضم التوست والبيض.. وكان هذا الدخيل الغريب هو الذي تكلّم أولًا إذ قال:

- من أنت يا صاحبي؟ ومن أين لك بالمفتاح؟.. أخرج، قبل أن أحطم وجهك!.. اخرج أولًا ثم دق الباب!.. اشرح طلبك، بسرعة!..

جلس أبي وأمي وكأنهما سمرا في مكانهما، وقدرت أنهما لم يطلعا على الجريدة بعد، ثم تذكرت أن الجريدة لا تصل اليهما إلا بعد ذهابهما إلى العمل ولكن أمي لم تلبث أن قالت:

- أواه!.. أنت هربت!.. أنت هربت!.. ماذا سنعمل سيأتي البوليس إلى هنا، أواه، أواه، أواه، أيها الولد الفاسد الشرير، الذي فضحت عائلتك على هذه الصورة!!..

وانخرطت في البكاء وهكذا رحت أحاول الشرح والبيان، وقلت أنه يمكنهما الاتصال تليفونيًا بالسجن إذا أرادا.. وخلال هذا كله كان ذلك الغريب جالسًا في مكانه عابسًا وكأنه يفكر في تهشيم فمي بقبضته المشعرة الحيوانية..

وهكذا رحت أقول له:

- ما رأيك أنت يا أخ في أن تجيب على بعض الأسئلة؟.. ماذا تفعل هنا، وإلى متى؟.. أنا لا أهضم الكلام الذي تفوهت به الآن!.. حاسب! هيا رد!..

كانت له هيأة العمال: وكان قبيح الصورة في الثلاثين أو الاربعين من عمره، وقد جلس مكانه ينظر إليّ فاغر الفم لا يكاد يفقه كلمة واحدة مما قلت وما عتم أبي أن قال:

- هذا كله شيء محير يا بني.. كان يجب أن تدعنا نعرف أنك ستحضر.. وكنا نظن أنك ستمضي على الأقل خمس أو ست سنوات أخرى قبل أن يدعوك تخرج!..

وأضاف بلهجة شبه مكتئبة قائلًا:

- ... وليس معنى هذا أننا غير فرحين جدًّا برؤيتك من جديد ووجودك حرًا أيضًا..

فقلت:

- من يكون هذا؟..

فردت أمي قائلة:

- هذا جو.. وهو يقيم معنا الآن.. بصفة ساكن يا عيني!.. يا عيني... يا عيني...

وقال المدعو جو:

- يا هذا!.. إنني سمعت كل شيء عنك يا ولد وأعرف كل ما فعلته، وحطمت بسببه قلب أبويك المسكينين المحزونين!.. إذن فقد عدت؟!.. عدت لتجعل الحياة تعاسة وشقاء لهما من جديد، أهذا ما سيكون؟.. لن يكون هذا إلا على جثتي، لأنهما سمحا لي أن أكون مثل إبن لهما، أكثر من

مجرد ساكن!..

كدت أضحك عاليًا من هذا الكلام لولا أن شعرت بالغضب في داخلي، يثير في التهيؤ للقيء، فإن هذا المخلوق كان في مثل سن أبي وأمي، وها هو ذا الآن يحاول أن يضع يدًا حانية كابن حول أمي الباكية، يا إخواني...

قلت وأنا اشعر بأنني أكاد أنهار باكيًا:

- هذا هو الحال اذن!.. لا بأس.. انني أمهلك خمس دقائق كبيرة لإخراج حاجياتك الحقيرة من غرفتي..

وأسرعت إلى هذه الغرفة قبل أن يتحرك هذا المخلوق لكي يستوقفني لبطء حركته.. وما أن فتحت الباب حتى كاد قلبي ينخلع إذ رأيت أنها لم تعد غرفتي بحال يا إخواني!.. كانت الرايات الخاصّة بي قد رفعت كلها عن الحوائط، ووضع هذا المخلوق مكانها صور ملاكمين، وأيضًا صورة فريق جلس كالأصنام مشبك الأيدي، أمامه شبه درع فضية.. ثم أبصرت بعد ذلك ما طرأ من نقص.. فإن (الستيريو) ودولاب أسطواناتي لم يعد لهما وجود، ولا صندوق كنزي المغلق المحتوي على الزجاجات والعقاقير وحقنتين نظيفتين جديدتين وهكذا صرخت:

- هناك عمل قذر حقير تم هنا!.. ماذا فعلت بحاجياتي الشخصية يا ابن الحرام الشنيع؟..

كان الخطاب موجهًا إلى ذلك المدعو جو، غير أن أبي هو الذي تولى الرد قائلًا:

- كل هذه الاشياء قد أخذها البوليس يا بني.. تبعًا للوائح الجديدة الخاصّة بالتعويض للضحايا..

كان من أشق الأمور ألا يصيبني الغثيان، ولكن رأسي مسه صداع عنيف واشتد جفاف حلقي حتى اضطررت إلى أخذ رشفة من زجاجة اللبن التي كانت على المائدة، إلى حد أن المدعو جو قال:

- أخلاق خنازير قذرة!..

أما أنا فقلت تعقيبًا على كلام أبي:

- لكنّها توفيت.. تلك العجوز صاحبة القطط توفيت!..

فقال أبي وهو أقرب إلى الأسى:

- المسألة كانت متعلقة بالقطط، التي تركت دون أن يعني بها أحد إلى أن فتحت وصية العجوز، وهكذا تعين عليهم أن يخصصوا شخصًا لأطفالها.. وهكذا باع البوليس حاجياتك من ملابس وغيرها للمساعدة في تدبير النفقات من أجل القطط.. هذا هو القانون يا ابني لكنك لم تكن أبدًا ممن يتبعون القانون!..

اضطررت أن أجلس، بينما قال ذلك المدعو جو:

- استأذن قبل الجلوس، أيها الخنزير الصغير المجرد من الأخلاق!..

فرددت عليه بسرعة وعنف:

- سد فتحة فمك الواسعة القذرة يا هذا!..

ومن ثم حاولت أن أكون معقولًا ومبتسمًا، من أجل صحتي وهكذا قلت:

- لا بأس.. هذه غرفتي، ولا نكران لذلك وهذا بيتي أيضًا.. ماهي الاقتراحات التي عندكم يا أبي وأمي؟..

غير أنهما لزما الصمت والوجوم، وكانت أمي تهتز شيئًا ما وقد استحال وجهها إلى تجاعيد بللتها الدموع، وما لبث أبي أن قال:

- كل هذا يحتاج إلى تفكير يا ابني.. لا يمكننا أن نطرد جو هكذا.. أهذا ممكن فعلًا؟.. إن جو مرتبط بعقد عمل لمدّة سنتين، وقد رتبنا الأمور بناء على ذلك.. أعني يا ابني أننا فكرنا إنك ستمضي في السجن مدة طويلة، وغرفتك خالية (تشحذ) من يشغلها!..

بدا أبي خجلًا كما دلت على ذلك قسمات وجهه، وهكذا لم أجد إلا أن ابتسم مؤمنًا برأسي، وقلت:

- رأيت كل شيء.. انكم اعتدتم راحة البال، واستطبتم بعض النقود الاضافية!.، هذا هو الموقف!.. ولم يكن ابنكم إلا مصدر متاعب شديدة لكم!..

وصدقوني يا إخواني إذا قلت انني شعرت آن ذلك بالرثاء لنفسي والرغبة في البكاء.. وعندئذٍ قال أبي:

- ربما ترى يا ابني أن جو دفع ايجار الشهر القادم، ومهما يمكن أن نفعل مستقبلًا فلا يمكننا أن نطلب من جو أن يذهب، هل هذا ممكن يا جو؟..

- إن واجبي تجعلني أفكر فيكما أنتما الاثنين: يامن كنتما مثل أب وأم لي.. فهل من الصواب والعدل أن انسحب وأترككما تحت رحمة هذا الوحش الصغير الذي لم يكن ابنًا بارًا بأي حال!؟ إنه يبكي الآن.. لكن هذا مكر وتصنع منه!.. دعوه يذهب ويبحث له عن غرفة في أي مكان!.. دعوه يتعلم جزاء أخطائه وتصرفاته ويعرف أن ولدًا فاسدًا مثله لا يستحق أن يكون له أب وأم مثلما كنتما له!..

وهنا نهضت قائمًا والدموع لاتزال في عيني، وقلت:

- لا بأس.. قد عرفت حقيقة الموقف الآن.. لا أحد يريدني أو يحبني!.. إنني قاسيت وقاسيت وقاسيت، وكل واحد يريد أن استمر في المعاناة والعذاب!.. عرفت هذا فعلًا...

فقال ذلك المدعو جو:

- إنك جعلت الاخرين يعانون.. فمن العدل أن تعاني بالمثل.. إنهم اخبروني بكل ما فعلته في جلوسي هنا الليالي حول مائدة الأسرة، وكان شيئًا مروعًا أن أسمع ما سمعت... إنه جعلني أتقزز في الواقع!..

- يا ليتني عدت إلى السجن، أنه أرحم بي منكم!.. أنا ذاهب الآن!.. ولن تروني أبدًا بعد هذا!.. سأشق طريقي بنفسي، شكرًا لكم ثم شكرًا!.. لتقع التبعة على ضمائركم!.

فقال أبي:

- لا تنظر إلى الامور هكذا يا ابني..

ذلك وقد أجهشت أمي بالبكاء وألتوت ملامح وجهها، بينما عاد ذلك المدعو جو يضع يده حولها مربتًا عليها مواسيًا لها وهكذا اتجهت إلى الباب مترنحًا وخرجت، تاركًا اياهم يا إخواني يتحملون عواقب جرحهم الفظيع!..

الفصـل الثـاني

خرجت إلى الشارع أسير بلا هدف وعلى غير هدى يا إخواني، وأنا بتلك الملابس الليلية التي راح الناس يحدقون فيها وأنا أمر بهم في ذلك اليوم الشتوي القارس البرد، وكل ما كان يساورني هو أن أباعد بيني وبين كل هذا وألا أفكر في أي شيء على الإطلاق.. وهكذا ركبت الأتوبيس إلى منطقة (سنتر)، ومنها عدت سيرًا إلى (تيلور بليس) حيث يوجد محل بيع الاسطوانات (ميلوديا) الذي اعتدت أن أتحفه بطلباتي المتواضعة. وقد بدا لي يا إخواني كالعهد به في الماضي، ولما دخلت اليه توقعت أن أرى صاحبه (آندى) الأصلع النحيل الذي كان يخف إلى تلبية رغائبي.. لكن لم يكن هناك آندي يا إخواني، وإنّما سمعت صياحًا وضوضاء من (النادسات) المراهقين فتيانًا وفتيات يستمعون إلى أغنيات (البوب) الشنيعة الشائعة ويرقصون على نغماتها أيضًا، وكان الجالس خلف (الكاونتر) هو أحد فتيان (النادسات) ذاته، ينقر بأصابعه باسمًا متهللًا.. وهكذا تقدمت إليه وانتظرت إلى أن يتنازل لملاحظة وجودي، وعندئذ قلت له:

- أود أن أستمع إلى أسطوانة موتسارت رقم ٤٠..

ولا أدري لماذا خطرت هذه الأسطوانة في ذهني، ولكن هذا ما كان.. فقال لي:

- ٤٠ايه يا صاحبي؟.

فأجبت قائلًا:

- السيمفونية رقم ٤٠..

فتدخل واحد من فتيان (النادسات) الراقصين وكان فتي مسدل الشعر على العينين، قائلًا:

- أوه!.. (سيمفونا)؟.. ألا يبدو هذا مُضحكًا.. إنه يريد (سيمفونا)...

شعرت بالغضب يثور في دخيلتي، لكن كان لابد أن أحذر هذا، وهكذا ابتسمت للشاب الذي حل محل آندي وللفتيان والفتيات الراقصين.. فقال لي صاحب المحل:

- ادخل إلى كشك الاستماع هناك، وسأوصلك بما تريد سماعه..

وهكذا يممت شطر الكشك الذي يُمكنك أن تستمع فيه إلى الاسطوانات التي تريد شراءها، ووضع الشاب اسطوانة لي، غير أنها لم تكن اسطوانة (موتسارت ٤٠)، وإنّما اسطوانة (موتسارت براج)، والظاهر أنه وضع أية اسطوانة لموتسارت وجدها على الرف، مما كان لابد أن يثير غضبي، وتعين على أن أحذر هذا خوفًا من شعوري بالغثيان، والالم، ولكنني نسيت شيئًا ما كان يجب أن أنساه، وهو أن هؤلاء الأطباء الماكرين قد رتبوا الأمر بحيث تؤدي أية موسيقي عاطفيّة إلى أن تبتعث عندي الغثيان كلما شاهدت أو أردت ارتكاب أي عنف والسبب هو أن أفلام العنف التي شاهدتها كانت تقترن بالموسيقى، وقد تذكرت بصفة خاصة ذلك الفيلم الفظيع عن النازية وما اقترن به من موسيقي بتهوفن.. والآن ها هي موسيقي موتسارت تبدو فظيعة في

سمعي وهكذا اندفعت خارجًا من الكشك للتخلص من أعراض الغثيان والألم التي كانت توشك أن تلم بي، واندفعت إلى خارج المحل ذاته وأولئك الفتيان (النادسات) يضحكون في أثري وصاحب المحل يقول لي: ماذا؟ ماذا؟ ماذا.. غير أنني لم اعبأ بأحد وابتعدت مترنحًا كأعمى عبر الشارع واستدرت عند الناصية لكي اقصد إلى (مشرب لبن كوروفا)... فقد عرفت ما أريد..

كان المشرب شبه خاو إذ كان الوقت لايزال صبحًا.. وقد بدا غريبًا في نظري، بعد أن طلوه برسوم أبقار حمراء تخور، ومن خلف (الكاونتر) قام شخص لا أعرفه.. ولكن عندما طلبت (لبنًا مقوى كبيرًا) عرف ذلك الشخص النحيل الحليق الوجه مطلبي، فأخذت كأس اللبن المقوى الكبير إلى إحدى المقاصير الصغيرة الممتدة بدوران المحل والمحجوبة بالستائر.. حيث جلست في أحد المقاعد المحشوة ورحت أحتسي وأحتسي.. وبعد أن أتيت على الشراب كله بدأت أشعر بأن كل شيء يتغير..

الفيتني قد سمرت عيني في قطعة ورق مفضض متخلفة من علبة سجائر ملقاة على الأرض، اذ كانوا لا يعنون بالكنس في هذا المحل. وقد أخذت القصاصة المفضضة تكبر في نظري وتكبر يا إخواني، حتى استحالت إلى كتلة نارية متوهجة جعلتني أطرف بعيني.. واستمرت تكبر وتكبر حتى ملأت ليس فقط المقصورة التي جلست فيها، بل مشرب كوروفا كله، ثم امتدت فشملت الشارع، ثم المدينة بأسرها، ثم الدنيا جمعاء... ورأيتني أتفوه بكلام غير مفهوم لا أدري كنهه.. ثم استحال اللون المفضض إلى ألوان شتى لا حصر لها ولم تكتحل بها عين بشر من قبل.. ثم بدا لي أنني أبصر مجموعة من التماثيل تتراءى عن بعد سحيق ولكنّها تقترب من مكاني وانية دائبة ولها ضوء باهر يشيع فيها من أعلى وأسفل وعن يمين وشمال يا إخواني!.. كانت تبدو كأطياف سماويّة نورانية ولكن لها لحى وأجنحة تخفق من حولها فيما هو فضاء علوي، ولها أعين تتحرك وتدب فيها الحياة، وقد زاد اقتراب الأطياف مني حتى شعرت كأنها تطبق على وتكاد تهصرني.. ثم أحسست أنني أنزع عني كل شيء: الملابس، والجسد، والعقل، والاسم ـ كل أولئك قد تجردت منه وانسلخت عنه، حتى لقد أحسست كأنني في السماء!.. وبعدها خلت بكل شيء كأنه يتصدع ويتهاوى، وفي النهاية تلاشت الأضواء والاطياف واستحالت إلى برودة، واذا أنا كما كنت من قبل، أمامي كأس فارغة على المائدة، وبي رغبة جامحة للبكاء، واحساس بأن الموت هو الجواب الوحيد لكل شيء!..

وهذا هو المطلوب.. هذا هو الذي رأيت بجلاء أنه الشيء الذي يتعين أن أفعله.. لكن على أي وجه أفعله؟ ذلك مالم أعرفه تمامًا، إذ لم أفكر فيه من قبل يا إخواني... في حقيبتي الصغيرة التي بها حاجياتي كانت مطواتي قرن الغزال ثاوية، غير أنني شعرت في الحال بغثيان شديد عندما فكرت في طعن نفسي بها فيتدفق دمي القاني غزيرًا.. إن ماكنت أريده لم يكن شيئًا عنيفًا، ولكن شيئًا يجعلني أنتهي بنوم رفيق ليكون في هذا خاتمة حياة محدثكم المتواضع، فلا تحدث بعد ذلك متاعب لأي إنسان.. وقد خطر لي أنني إذا عرجت على المكتبة العموميّة القريبة فقد أجد بها كتابًا يرشدني إلى أفضل طريقة لاختتام حياتي بغير ألم وتصورت نفسي ميتًا وكيف يحزن كل أحد لنهايتي: أبي وأمي وذلك المدعو جو الحقير المغتصب وكذلك الدكتور برودسكي والدكتور برانوم ووزير الداخلية ذاك، ومن إليهم من الناس... ومن بعدهم الحكومة السنية المتفاخرة بما حققت من أعمال!

وهكذا خرجت إلى الشارع في برد الشتاء هذا القارس، وكان الوقت الآن يناهز الثانية بعد

الظهر كما رأيت بنظرة إلى ساعة الميدان، ومعنى هذا أنني كنت في عالم (اللبن المقوى) وقتًا أطول كثيرًا مما كنت أظن.. وإذن فقد رحت أقطع (مارجانيتا بوليفارد) سيرًا على القدمين ثم دلفت منه إلى (بولبي أفنيو) وانعطفت أخيرًا حول الناصية، وإذا أنا أمام المكتبة العامة..

كان المبنى متينًا ذا رواء ولم أتذكر أنني زرته منذ أن كنت صغيرًا في سن السادسة وكان منقسمًا إلى قسمين: قسم لاستعادة الكتب وقسم للمطالعة، وهذا القسم مليء بالجرائد والمجلات وقراء كثيرين من أناس مسنين تنضح أجسادهم بالشيخوخة والفاقة.. وكانوا واقفين أمام حوامل الصحف الممتدة حول القاعة يعطسون ويتجشأون ويهمهمون لأنفسهم ويقلبون الصحائف لقراءة الأخبار في كآبة، ومنهم من جلسوا إلى المناضد يتصفحون المجلات أو يتظاهرون بالاطلاع عليها، وبعضهم نائم ومنهم من يغط في النوم..

وأول الأمر لم أستطع أن أتذكر ما جئت أطلبه، ثم تذكرت مصدومًا أنني جئت إلى هنا لكي أهتدي إلى وسيلة أختتم بها حياتي دون ألم... وهكذا اتجهت إلى رف المراجع، فوجدته مليئًا بالكتب، ولكن ليس بينها يا إخواني ما فيه عنوان يرشدني إلى ضالتي المنشودة.. وتناولت كتابًا في الطب أخذت أتصفحه، غير أنه كان حافلًا بالرسوم والصور الفوتوغرافية لجروح وأمراض بشعة مما تقززت به نفسي هكذا جلست في مقعد أستريح وأنا منقبض النفس أكاد أبكي، وإذا رجل مسن في المقعد المواجه يقول لي:

- ماذا بك يا بني؟.. ماهي مشكلتك؟..

- أريد ان انتهي!.. لقد شبعت من الحياة حتى أصبحت لا تحتمل!..

فقال قارئ بجانبي كان يقرأ مجلة مليئة برسوم هندسية دون أن يرفع رأسه:

- صمتًا!..

إن المجلة والقارئ دقا جرسًا في ذهني لم أتنبه له أول الأمر، بينما قال محدثي تعقيبًا على كلامي:

- أنت صغير جدًّا لمثل ما تقول يا بني.. يا للعجب، الحياة أمامك ممتدة عريضة بها كل شيء!..

فقلت بمرارة:

- نعم.. مثل جسم أملس الظاهر متقيح الباطن!..

فقال قارئ المجلة مرة أخرى وهو يرفع رأسه هذه المرّة:

- صمتًا!

وتلاقت نظراتنا.. فعرفته على الفور.. أمّا هو فقد قال بلهجة مستطيرة:

- أنا لا أنسى أبدًا شكل أي إنسان... والله أيها الخنزير الصغير لقد وقعت في يدي الآن...

(علم البلوريات)!.. نعم كانت الكتب المصنفة في هذا العلم هي التي حملها ذلك الرجل المسن

في تلك الليلة بعد استعارتها من المكتبة!.. فحطمت أسنانه.. ومزقت ملابسه وكتبه عن علم البلوريات!..

رأيت أنه لا بد لي من الانسحاب من هنا بأسرع ما يمكن يا إخواني!.. غير أنّ هذا العجوز نهض قائمًا وراح يصرخ في أرجاء القاعة مستنجدًا بروادها جميعًا من قارئي الصحف والمجلات والمصطفين حول المنضدة والنائمين أيضًا قائلًا:

- وقع في أيدينا!.. الخنزير الصغير السام الذي أتلف كتب علم البلوريات، تلك الكتب النادرة التي لن يجود الزمان بمثلها!.. هو الآن هنا بيننا وتحت رحمتنا!.. هو وعصابة ضربوني وداسوني بالأقدام وجردوني من ملابسي وانتزعوا أسناني!.. إنهم هزأوا من دمي المسفوح وتأوهاتي الحزينة.. إنهم جعلوني أهرب إلى بيتي مشدوهًا عاريًا!..

لم يكن هذا كله صحيحًا يا إخواني كما تعرفون مما سلف، اذ كانت تستره بعض ملابسه، ولم يكن عاريًا تمامًا!..

لم أتمالك أن أخذت أصرخ مثله قائلًا:

- كان هذا منذ سنتين وبعدها نلت عقابي!.. إنني تعلّمت درسًا انظروا في الجرائد!.. صورتي فيها!.

وقال واحد منهم عليه طوالع جندي سابق:

- عقاب؟!.. أمثالكم يجب استئصالهم!.. مثل كثير من الحشرات الضارة!.. (عقاب قال)!؟..

فقلت:

- لا بأس.. لا بأس كل واحد حر في رأيه سامحوني لابد أن أذهب الآن..

وتحفزت للخروج من عش المسنين هذا وقد سطع في ذهني اسم فجأة: الاسبرين!.. نعم هذا المطلوب... بإمكاني أن أنهي حياتي بمائة قرص أسبرين.. أسبرين من مخزن الأدوية.. بيد أن صاحب علم البلوريات عاد يصرخ:

- لا تتركوه يذهب!.. سنعلمه ما هو العقاب، هذا الخنزير الصغير القاتل!.. امسكوه!..

وصدقوني يا إخواني أن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الطاعنين في السن، حوالي تسعين سنة عمرًا، أمسكوني بأيديهم المرتعشة، حتى قززتني روائح المرض والشيخوخة التي كانت تفوح منهم.. وكان أسبقهم صاحب علم البلوريات الذي راح ينهال باللطمات على وجهي وأنا أحاول الابتعاد والخروج عبثًا، لكن هذه الأيدي العتيقة التي كانت ممسكة بي كانت أقوى مما كنت أظن.. ومن بعدهم أقبل قراء الجرائد يتطاوحون لكي يأخذوا نصيبهم من تأديب محدثكم المتواضع يا إخواني!.. وراحوا جميعًا يصرخون بهذه النداءات:

- اقتلوه!.. دوسوه بالأقدام!.. انزعوا أسنانه!..

لقد فهمت السبب.. كانت هي الشيخوخة تحاول أن تنتقم من الشباب..

هكذا أطبقوا عليّ من كل جانب يا إخواني وفي طليعتهم صاحب علم البلوريات يكيل لي اللطمات تباعًا دون أن أجسر على أن اكيل لهم بنفس الكيل، وإلا تعرضت للشعور بالغثيان والألم الشنيع لكنني على الرغم من ذلك كنت أشعر والعنف يدور من حولي ويحف بي أن الغثيان آت لا محالة..

وعندئذ أقبل أحد المشرفين وكان شابًا فصاح قائلًا:

- ماذا يجري هنا.. كفوا عن هذا في الحال.. هذه قاعة للمطالعة!

لكن أحدًا منهم لم يعبأ به، فقال على الأثر:

- لا بأس سأتصل بالشرطة.. تليفونيًا..

وهكذا صرخت بدوري وكنت أظن أنني لن أفعل مثل هذا في حياتي:

- نعم... نعم!.. افعل هذا!.. احمني من هؤلاء العجائز المجانين!..

ولاحظت أن ذلك المشرف لم يكن متحمسًا للمشاركة في المعمعة وانقاذي من غضب وجنون أولئك المسنين ومن مخالبهم.. كل ما فعله هو أنه انسحب إلى مكتبه أو إلى مكان التليفون.. والآن كان هؤلاء العجائز يلهثون كثيرًا، وشعرت أن بوسعي أن أتملص منهم فيتساقطون على الأرض، غير أنني تركت نفسي مقيدًا بينهم، صابرًا إلى أقصى حد، مغمض العينين، شاعرًا بضرباتهم الواهنة على وجهي مستمعًا إلى صرخاتهم اللاهثة وأنفاسهم المتقطعة وهم يقولون:

- يا للخنزير الصغير.. يا للقاتل الوغد... يا للمجرم قاطع الطريق!.. اقتلوه قتلًا!..

وعندئذ تلقّيت لطمة أليمة على أنفي حتى لم أتمالك أن قلت لنفسي: ليذهبوا إلى جهنم!..

وفتحت عيني وأخذت أصارع لاسترداد حريتي مما لم يكن بالأمر العسير يا إخواني، وتملصت مبتعدًا عنهم إلى الردهة خارج قاعة المطالعة...

لكن هؤلاء المنتقمين العتاة جدوا في أثري وهم يلهثون ويشهقون كمن هو على وشك الموت، مشرعين مخالب أيديهم الراعشة للإطباق من جديد على صديقكم ومحدثكم المتواضع.. ثم لم ألبث أن تعثرت بسببهم وسقطت على الارض لكي يرفسوني بالأقدام، وبعدها سمعت أصواتًا شابة تصيح بهذه الكلمات:

- لا بأس!.. لا بأس!.. توقفوا الآن...

فعرفت أن رجال الشرطة قد حضروا..

الفصـل الثـالث

كنت في غاية الدهشة يا إخواني، ولم أستطع أن أبصر جيدًا، غير أنني كنت متأكدًا أنني قد التقيت برجال الشرطة هؤلاء في مكان ما قبل الآن.. إن الشرطي الذي أمسك بي لدى باب الخروج من المكتبة وهو يقول (كفى، كفى، كفى) – لم يكن معروفًا لي تمامًا، لكن بدا لي أنه صغير السن ليكون من الشرطة.. لكن الإثنين الآخرين تأكدت من ظهريهما أنني رأيتهما من قبل.. كانا يلوحان بكرباجين صغيرين تهديدًا وتخويفًا لأولئك العجائز في شبه مرح وشماتة، قائلين:

- كفى أيها الأولاد الأشقياء.. لابد أن يعلمكم هذا أن تكفوا عن الشغب ومخالفة القانون، يا أشرار ومعتدون..!

وهكذا ردّوا أولئك المنتقمين اللاهثين الشاهقين الموشكين على الموت إلى قاعة المطالعة، ثم انثنوا وهم يبتسمون سرورًا وتفكهًا للنظر إلى.. وقال أكبرهم:

- جميل!.. جميل!.. بديع!.. بديع!.. أليس هذا أليكس الصغير!؟ لم نرك منذ مدة طويلة أيها الزميل!.. كيف الحال؟..

كنت كالمشدوه، فإن الكسوة الرسمية وخوذة الرأس من الصعب أن أبصر من هو هذا، وان كان الوجه والصوت معهودين لي تمامًا.. ثم نظرت إلى زميله الذي كان مهلل الوجه، فلم يبق في نفسي أي شك.. ثم قلبت النظر مرّة أخرى إلى أولهما الذي قال (جميل وبديع) فاذا هو بيليبوي غريمي القديم، أمّا الآخر فكان بالطبع ديم، ذلك الذي كان رفيقي السالف والعدو أيضًا لبيليبوي؛ ولكنّه الآن شرطي بكسوة وخوذة وكرباج صغير لحفظ الأمن والنظام!..

قلت: آه!.. كلا!..

فهتف ديم وهو يقهقه قهقهته التي أتذكرها تمامًا:

- مندهش؟.. ها!.. ها!.. ها...

فقلت: هذا مستحيل!.. لا يمكن أن يكون هذا.. أنا لا أصدقه!..

فقال بيليبوي مبتسمًا كمن يكشر عن أنياب:

- كل شيء واضح للعيان.. لا خداع ولا غش ولا سحر أيها الزميل وهو عمل لاثنين بلغا سن العمل.. في الشرطة..

فقلت: أنتما صغيران جدًّا.. أصغر كثيرًا.. إن الشرطة لا تقبل فتيانًا من سنكم!..

فراح ديم الشرطي يقول:

- كنا صغارًا...

لم أستطع يا إخواني أن أهضم هذا أو أصدقه، بينما مضى يقول:

- كنا صغارًا يا زميلي الصغير.. وكنت أنت أصغرنا جميعًا.. وها نحن أولاء هكذا الآن..

فقلت: ما زلت لا أصدق..

وما لبث بيليبوي - الشرطي بيليبوي الذي لم أستطع أن أتقبله – ما لبث أن قال للشرطي الثالث الممسك بي والذي لم اكن أعرفه:

- أظن أننا نحسن صنعًا يا ركس إذا خرجنا قليلًا عن الاجراءات المعتادة.. الأولاد سيبقون دائمًا أولادًا، ولا لزوم لكي نتبع اللوائح المعروفة هذه المرّة.. هذا الشخص قد عاد إلى عاداته القديمة كما نتذكر نحن، وإن كنت أنت لا تتذكر طبعًا.. ها قد رأيناه يعتدي على المسنين العزل، وكانوا محقين في الاقتصاص منه.. لكن لابد لنا أن نتبع أسلوبنا نيابة عن الحكومة..

فقلت وأنا لا أكاد أصدق أذني:

- ما هذا كله.. إنهم هم الذين اعتدوا عليّ يا إخواني!.. أنتم لستم في صفهم ولا يمكن أن تكونوا!.. لا يُمكنك هذا يا ديم.. إنه كان شخصًا تلاعبنا به في الأيام السالفة وحاول الآن أن ينتقم لنفسه بعد كل تلك المدة الطويلة..

فقال ديم:

- مدة طويلة فعلًا.. انني لا أتذكر تلك الأيام.. ولا تقل لي ديم أيضًا.. قل يا حضرة الضابط!..

وقال بيليبوي مؤمنًا على ذلك الكلام، وكان الآن أقل سمنة:

- مع ذلك نتذكر ما فيه الكفاية.. إن الفتيان الاشقياء الذين يتداولون المطاوي الحادة يجب قمعهم!..

وأطبقوا عليّ بشدة وأخرجوني عنوة من المكتبة.. وكان ثمّة سيارة شرطة للدورية منتظرة في الخارج، كان سائقها ذلك المدعو ركس فدفعوا بي إلى جانب السيارة الخلفي وأنا لا أكاد أصدق إلا أنهم يمزحون، وأن ديم لا يلبث أن ينزع خوذته عن رأسه ويضحك مقهقهًا كعادته.. لكنه لم يفعل.. فقلت محاولًا مغالبة القلق الذي انتابني:

- وصاحبنا بيتر؟ ماذا جرى له.. أن ما حدث لجورجي كان شيئًا محزنًا.. إنني سمعت من هذا..

فقال ديم:

- بيتر؟.. آه، نعم، بيتر.. يخيّل إليّ أنني أتذكر هذا الإسم..

ولما رأيت أنهم يخرجون من المدينة قلت:

- إلى أين نحن ذاهبون؟..

فاستدار بيليبوي من المقعد الأمامي قائلًا:

- الوقت لا يزال نهارًا.. ومجرد مسيرة إلى الريف!.. هناك الأشجار مجردة في الشتاء ولكنّها جميلة وجميلة!.. ليس من المستحسن لأهل المدينة أن يشاهدوا عقابنا الخصوصي.. والشوارع لابد أن يحفظ فيها الأمن بأكثر من طريقة..

والتفت أمامه مرة ثانية..

قلت له:

- اسمع!.. إنني لا أفهم هذا أبدًا!.. إن الايام السالفة قد انطوت وذهبت.. وعن كل ما فعلته - الماضي قد نلت عقابي وأصبحت سليمًا معافى..

فقال ديم:

- إن الرئيس قرأ لنا كل هذا.. وقال إنها طريقة علاج ناجحة..

فقلت باشمئزاز:

- قرأ لكم؟.. أما زلت يا أخ على جهلك ولا تعرف القراءة لنفسك؟..

فرد ديم بلهجة أقرب إلى الدعة والأسف:

- آه.. لا.. لا تتكلم هكذا..

وشفع هذا بلطمة عنيفة سددها إلى أنفي حتى بدأ الدم ينزف منه..

فقلت بمرارة وأنا أمسح الدم بيدي:

- لم تكن بيننا ثقة أبدًا!.. كنت دائمًا انفرد بنفسي...

وقال بيليبوي:

- يكفي إلى هنا..

كنا الآن في الريف حيث بدت الأشجار مجردة ولا يسمع سوى أصوات طيور متباعدة، وعلى البعد كان ما يشبه ماكينة زراعية يتردد صدى دورانها.. وقد أقبل المساء إذ كنا في صميم الشتاء وبدت المنطقة خلوًا من الناس والحيوان، فلم يوجد سوانا نحن الأربعة..

وقال ديم: انزل يا أليكس.. مجرد نزهة قصيرة..

وفي خلال هذا كله كان السائق المدعو ركس جالسًا إلى عجلة القيادة بدخن سيجارة ويقرأ كتابًا بين يديه في ضوء مصباح السيارة دون أن يهتم بما فعله بيليبوي وديم بمحدثكم المتواضع.. ولن أسهب في بيان ما فعلاه بي، ولكنّه كان ضربات صامتة وأنفاسًا لاهثة بين جلبة الماكينة الزراعية الدائرة وأصوات الطيور المتباعدة: ذلك والسائق جالس في مكانه يقلب صفحات الكتاب في أتم هدوء وسكينة.. وظل الاثنان لا يكفان عن كيل الضربات لي فترة ليست بالقليلة.. وأخيرًا قال بيليبوي أو ديم إذ كنت لا أتذكر من منهما المتكلم:

- أظن أنّ هذا يكفي أيها الزميل ألا ترى هذا؟..

ثم صوب كل منهما ضربة على وجهي حتى وقعت ولبثت منطرحًا فوق الحشائش وكان البرد شديدًا ولكنني لم أشعر به وما لبث الاثنان أن مسحا أيديهما في الأتربة ثم لبس كل منهما كسوته ووضع خوذته على رأسه وأنا قد نزعاهما، وأخيرًا عادا إلى السيارة وبيليبوي يقول:

- سوف نراك مرّة أخرى في مكان ما يا أليكس...

اما ديم فقد أرسل قهقهته الحيوانية المعهودة.. وأتم السائق قراءة الصفحة التي كان يقرأها ووضع الكتاب جانبًا، ثم أدار محرك السيارة وقادها في اتجاه المدينة ورفيقي السابق وغريمي السابق يلوحان لي بأيديهما.. بيد أنني لبثت منطرحًا في مكاني منهكًا مضعضعًا..

وبعد فترة شعرت بأوجاع شديدة، ثم نزل المطر لاذعًا كالثلج.. ولم أستطع أن أبصر انسانًا على مدى النظر، ولا أنوار تنبعث من بيوت.. فإلى أين أذهب، أنا الذي لا بيت له ولا نقود كثيرة في جيبه..

لقد أجهشت بالبكاء.. ثم لم ألبث أن استويت قائمًا ومضيت أمشي!..

الفصـل الرابـع

البيت!.. البيت... البيت - كان ما أريده هو البيت!.. وكان البيت هو الذي وصلت إليه يا إخواني...

لقد رحت أمشي خلال الظلام، متجهًا لا شطر المدينة بل في اتجاه الجلبة التي كانت تصدر من الماكينة الزراعية.. وقد أفضى بي هذا إلى إحدى القرى التي شعرت أنني رأيتها من قبل، لكن ربما كان ذلك لأن القرى كلها تتشابه في الظلام خاصة.. هنا كانت بيوت وما يشبه المشرب، وعند طرف القرية قام بيت صغير منعزل واستطعت أن أتبين اسمه بخط أبيض فوق البوابة: (البيت).. وكنت أقطر من البلل بسبب هذا المطر القارس، إلى حد أن ملابسي كانت في حالة يرثى لها، وكان شعري الغزير الذي كان موضع فخاري غابة مبللة مشعثة فوق هامتي: وكنت واثقًا من وجود جروح وكدمات في وجهي كله، وشعرت باثنتين من أسناني مخلخلتين كلما حركت لساني، وكانت الأوجاع تشيع في أنحاء جسدي، هذا إلى ما ألم بي من عطش شديد جعلني أفتح فمي لكي أتلقى المطر البارد، وكانت معدتي تتلوى بصوت مسموع طيلة الوقت إذ لم أذق طعامًا منذ الصباح، وما تناولته كان أقل من القليل يا إخواني..

في هذا البيت قد أجد، إنسانًا يسعفني.. ففتحت البوابة وتقدمت خطوات في الممشى والمطر يستحيل إلى زمهرير، ثم طرقت الباب برفق.. ولما لم يظهر أحد كررت الطرق بصوت أعلى، وعندئذٍ سمعت وقع أقدام تقترب من الباب وبعدها فتح الباب وقال صوت رجل من الداخل:

- نعم.. ماذا هنالك..

فقلت: أسعفني بالله.. إن البوليس ضربني وتركني أموت في الطريق!.. أناشدك أن تعطيني أي شراب يا سيدي وركنًا قرب النار!

وعندئذ فتح الباب عن آخره، واستطعت أن أرى في الضوء والدفء نارًا موقدة تتلظى.. وقال رب الدار:

- أدخل؛ مهما تكن!.. لطف بك الله يا ضحية: يا مسكين ادخل ودعنا ننظر إليك!..

وهكذا دخلت أتطوح، ولم أكن أفتعل هذا تمامًا يا إخواني، فقد كنت أشعر بأنني في أسوأ حال.. وقد وضع هذا الرجل الطيب يده على كتفي وجذبني إلى داخل هذه الغرفة التي كانت بها النار المستوية، وفي الحال، تعرفت على مكان تلك المدفأة ولماذا كانت كلمة (البيت) المكتوبة على البوابة معهودة لدي ولماذا.. ونظرت إلى هذا الرجل ونظر هو إليّ في تعاطف، والآن تذكرته تمامًا. وطبعًا ما كان يمكنه أن يتذكرني، ففي تلك الأيام الخوالي التي كنت ورفاقي متحررين فيها من كل شيء وكنا نقوم بالعدوان والانتهاك والعبث، كنا ليلتها متنكرين تحت الأقنعة.. كان الرجل أدنى إلى قصر القامة وفي منتصف العمر: وكان يضع نظارة على عينيه وما لبث أن قال لي:

- اجلس بجانب المدفأة، وسأحضر لك شيئًا من الويسكي والماء الساخن.. مسكين، مسكين،

مسكين!.. انهم ضربوك ضربًا شديدًا!..

فقلت له:

- الشرطة... كانوا قساة معي بصورة شنيعة..

فقال وهو يتنهد:

- ضحية أخرى!.. ضحية العصر الحديث!.. سأذهب لإحضار الويسكي ثم أنظف جروحك بقدر ما يمكن..

وذهب ورحت أدير النظر في أرجاء تلك الغرفة الوثيرة... كانت شبه ممتلئة بالكتب، إلى جانب المدفأة وبعض المقاعد، وكان يمكن أن أقدر أنه لا توجد امرأة مقيمة في البيت... ورأيت آلة كاتبة فوق منضدة، وكمية من الأوراق غير مرتبة، وتذكرت أنّ هذا الرجل مؤلف.. كتابه بعنوان (برتقالة بقلب ساعة) كما تذكرت الآن، وكان من المضحك المبكي أن يعلق هذا العنوان بذهني، لكن لابد ألا يبدر هذا مني، إذ كنت الآن في أمسّ الحاجة إلى الإسعاف والرحمة.. إن أولئك الملاعين أصحاب المبنى الابيض القائم بجوار السجن قد فعلوا بي هذا: فجعلوني في حاجة إلى من يسعفني ويمد إليّ يدًا رحيمة، بل أجبروني على بذل المساعدة والرحمة من جانبي إذا تقبلهما مني أحد!..

عاد الرجل قائلًا:

- ها نحن على استعداد...

وأعطاني كأسًا من ذلك الشراب احتسيته على الفور وشعرت بتحسن.. ثم عكف على تنظيف جروح وجهي وأخيرًا قال:

- لك أن تأخذ حمامًا دافئًا لطيفًا سأعده لك، وبعدها يُمكنك أن تحكي لي حكايتك أثناء عشاء ساخن لذيذ سأجهزه ريثما تأخذ الحمام!..

أواه يا إخواني.. كدت أبكي إزاء هذه الشفقة، واظن أنه لابد قد رأى الدموع في عيني، إذ أنه قال وهو يضع يده على كتفي:

- كفى... كفى... كفى!..

ومهما يكن فإني صعدت إلى الدور العلوي وأخذت ذلك الحمام الساخن... وقد أحضر لي بيجاما وروبًا مدفأين قرب النار فضلًا عن شبشب مستعمل... والآن يا إخواني، فإنني على الرغم من الآلام الشديدة التي شملتني في كل موضع من جسدي، شعرت بأنني سأتحسن عما قريب.. ولما نزلت إلى تحت رأيت أنه قد أعد في المطبخ المائدة وعليها السكاكين والشوك ورغيف كبير من الخبز وزجاجة من الصلصة، وما لبث أن صنع طبقة من البيض المقلى وأعد إلى جانبه قطعًا من اللحم المقدد والسجق الملىء وأقداحا من الشاي الساخن باللبن... وكم كان بديعًا أن أجلس هكذا في هذا المكان الدافئ أتناول الطعام، ولما كنت أشعر بالجوع الشديد فقد أقبلت على الطعام بنهم، واختتمت بقطع عريضة من الخبز كسوتها بالزبد والمربي من إناءين كبيرين وقلت في النهاية:

- أنا أحسن كثيرًا... كيف يمكن ان أوفيك هذا الصنيع؟

فقال لي:

- أظن أنني أعرف من أنت... فإن كنت من أظنه أنت، فقد جئت إذن يا صديقي إلى المكان الصحيح ألم تكن صورتك تلك التي كانت في الجرائد صباح اليوم؟ هل أنت الضحيّة المسكينة لذلك النظام الجديد الشنيع؟ فإن صح هذا، فإذن هي العناية الإلهية التي أرسلتك إلى هنا... لقد عذبوك في السجن، ثم ألقوا بك خارجه لكي تعذب على أيدي الشرطة... إن قلبي لينفطر من أجلك، يا ولدي المسكين المنكود!

لم أستطع يا إخواني أن أقاطعه بكلمة واحدة، وإن فتحت فمي على سعته لكي أرد على أسئلته، بينما استرسل قائلًا:

- إن الشرطة مغرمة بالمجيء بضحاياها إلى أطراف هذه القرية لكنّها العناية الإلهية التي شاءت وأنت ضحية أخرى أن تجيء إلى هنا ربما تكون إذن قد سمعت عني؟.

كان لابد أن ألتزم الحذر يا إخواني، ولهذا أجبت:

- إنني سمعت عن (برتقالة بقلب ساعة).. إنني لم أقرأ الكتاب، لكنني سمعت عنه...

فقال وقد أشرق وجهه كما تشرق الشمس في سناء بزوغها:

- آه... الآن حدثني عن نفسك...

فرحت اقول بكل تواضع:

- ليس عندي ما أخبرك به يا سيدي إلا القليل... هناك فتى أبله صبياني حرضه أصدقاؤه المزعومون أو بالأحرى أرغموه على اقتحام بيت سيدة عجوز.. ولم يكن في النية عمل ما يضر ضررًا حقيقيًا لكن من سوء الحظ أن السيدة أجهدت قلبها الضعيف بمحاولتها طردي إلى الخارج، ذلك وإن كنت على استعداد للخروج تلقاء نفسي، وبعدها توفيت... وقد اتهمت بأنني المتسبب في وفاتها، وهكذا أدخلوني السجن يا سيدي...

- نعم، نعم، نعم... استمر..

وبعد ذلك اختارني وزير الداخلية لإجراء (تجربة لودوفيكو) على شخصي...

فقال وقد مال إلى الأمام اهتمامًا حتى تلوث مرفقا ذراعيه بالمربى من الطبق الذي كنت أزحته جانبًا...

- حدثني عن كل هذا...

وهكذا أخبرته بكل شيء يا إخواني... وقد أبدى اهتمامًا بالغًا بسماع ما قلته وهو لامع العينين منفرج الشفتين فيما كان الشحم في الاطباق يتجمد ويزيد تجمدًا... ولما فرغت نهض عن المائدة مؤمنًا برأسه مرارًا وهو يهمهم، وأخذ يجمع الأطباق والأشياء الاخرى عن المائدة وحملها إلى الحوض لغسلها...

فقلت له: سأفعل هذا يا سيدي بسرور...

فقال وهو يفتح الصنبور حتى خرج البخار في نشيس:

- استرح.. استرح أيها الفتى المسكين.. إنك أذنبت فيما أظن، لكن عقابك قد جاوز كل الحدود.. إنهم أحالوك إلى شيء آخر غير كائن بشري... إنهم جردوك من كل قوة للاختيار... إنهم قضوا عليك بأن تكون آلة صغيرة لا قدرة لها إلا على أداء ما تواضعوا على أنه صلاح... إنني أرى عواقب أعمالهم بوضوح - في مجال ما يسمّونه (التكيف الهامشي)... والنتيجة أن أشياء مثل الموسيقى والحب والأدب والفن، قد أصبحت عندك الآن مصدرًا لا للمسرة بل للألم...

فقلت وأنا أدخن إحدى سجائره ذات الفلتر:

- هذا صحيح يا سيدي؟..

فقال وهو يجفف أحد الأطباق شارد الذهن:

- إنهم يقتطعون دائمًا أكثر من اللازم.. لكن المقصد الاساسي هو الخطيئة الفعلية... إن الرجل الذي لا يستطيع الاختيار يبطل كيانه كرجل!..

فقلت: هذا هو ما قاله واعظ السجن يا سيدي...

- هل قال ذلك حقًّا؟.. طبعًا قاله... وكان لابد أن يقوله كرجل دين، أليس كذلك؟.

قال هذا وهو لا يزال يجفف نفس الطبق الذي ظل يجففه منذ عشر دقائق... ثم استطرد يقول:

- سوف يزورنا بعض الاشخاص لرؤيتك غدًا... في ظني أنه يمكن استخدامك أيها الولد المسكين... أرى أنه يمكن أن تساعد في زعزعة هذه الحكومة التي لا تطاق... إن تحويل شاب سليم إلى (ترس) في آلية الساعة ينبغي ألا ينظر إليه بالتأكيد على أنه نصر لأية حكومة، إلا الحكومة التي تتباهى بسياستها القمعية!..

قال هذا وهو لا يزال يجفف نفس الطبق فقلت:

- سيدي... إنك لا تزال تجفف نفس الطبق... إنني اتفق معك يا سيدي بصدد التباهي... يبدو أنّ هذه الحكومة شديدة التباهي والمفاخرة...

- آه!

قالها وكأنه رأى ذلك الطبق لأول مرة ثم وضعه جانبًا، ومضى يقول:

- أنا ما زلت غير مدرب تمامًا على الأعمال المنزليّة.. كانت زوجتي تقوم بكل هذه الأعمال وتتركني لمباشرة كتابتي...

فقلت: زوجتك يا سيدي؟.. هل ذهبت وتركتك؟.

كنت حقًّا أريد أن أعرف مصير زوجته، وأنا أتذكر جيدًا... فقال بصوت عالٍ ومرير:

- نعم... تركتني.. إنها توفيت.. لقد اغتصبوها وضربوها بوحشية... وكانت الصدمة شديدة جدًّا... وقد حدث هذا هنا في البيت..

كانت يداه ترتعدان وهو ممسك بالمنشفة، ثم أضاف:

- ... في الغرفة المجاورة... إنني استمددت عزمًا من فولاذ لكي أستمر في المعيشة هنا... لكنّها كانت تود لي البقاء حيث لا تزال ذكراها العطرة باقية.. نعم، نعم، نعم.. يا للمخلوقة المسكينة..

إنني يا إخواني قد استرجعت في ذاكرتي بأتم وضوح كل ما حدث في تلك الليلة البعيدة، وعندما رأيت دوري فيها، بدأت أشعر بميل إلى الغثيان وسرى الألم إلى رأسي... وقد شاهد الرجل ما اعتراني إذ بدا وجهي ممتقعًا، شديد الامتقاع يكاد الدم ينضب منه حتى كان من السهل أن يرى هذا... فما لبث أن قال لي برقة: مسكين مسكين يا ولدي**!**. لابد أنك مررت بوقت مروع**!**. كنت ضحية من ضحايا العصر الحديث، مثلما كانت هي المسكينة التاعسة...

الفصـل الخـامس

نمت هذه الليلة نومًا عميقًا يا إخواني دون أحلام بتاتًا، وطلع النهار صحوًا باردًا كالصقيع، ونفذت إلى أنفي رائحة فواحة سائغة هي رائحة إعداد طعام الإفطار تحت.. وقد استغرقت فترة في تذكر أين أنا، كما يحدث دائمًا، لكن سرعان ما تذكرت، وساورني إحساس بالدفء والطمأنينة... لكن سطع في ذهني وأنا ممدد في الفراش إنه يجدر بي أن أعرف اسم هذا الانسان الطيب القلب الحامي والحاني كأم، وهكذا قمت أبحث عن كتاب (برتقالة بقلب ساعة) الذي لابد أنه يحمل اسمه كمؤلف... ولما لم يكن في غرفة نومي سوى سرير وكرسي ومصباح، فقد دلفت إلى غرفته المجاورة وفيها شاهدت صورة زوجته فوق الحائط في إطار كبير، فما تمالكت أن شعرت بالغثيان يلابسني بتأثير الذكرى لكن كان في الغرفة رفان أو ثلاثة صفت عليها الكتب، ووجدت من بينها، كما قدرت، كتاب (برتقالة بقلب ساعة) وعلى ظهر الغلاف اسم المؤلف: **ف. ألكسندر**... يا الهي!.. إنه أليكس آخر!.. وعندئذ أخذت أتصفح الكتاب وأنا واقف بالبيجاما عاري القدمين ولكن غير شاعر بالبرد بسبب الدفء الساري في كل ما حولي، ولم أستطع أن أدرك ماهية الكتاب.. إذ بدا لي أنه مكتوب بأسلوب غريب، مليئًا بالآهات وما إليها، ولكن ما ظهر لي منه أن كل الناس هذه الأيام قد تحولوا إلى آلات، وإننا - أنت وأنا وهو إلخ - أشبه بنبات طبيعي مثل فاكهة... وقد بدا للمؤلف ف. ألكسندر إننا جميعًا ننبت على شجرة سماها شجرة الدنيا، في حديقة الدنيا التي أنبتها الخالق، وإننا خلقنا لتحقيق مشيئته في قيام المحبة، أو شيء من هذا القبيل... في الحق يا إخواني إنني لم أسترح إلى هذا الكلام، وعجبت كيف يفكر ف. ألكسندر هكذا إلا أن يكون متأثرًا بموت زوجته.. لكنه لم يلبث أن نادى عليّ لكي أنزل، بصوت طبيعي مليء بالبهجة والمحبة وكل ما يتفرع عليهما، وهكذا هبط محدثكم المتواضع إلى الدور الارضي... وقال لي وهو يقلب بيضًا مسلوقًا ويخرج التوست من الفرن: إنك نمت طويلًا الساعة الآن بلغت العاشرة... أمّا أنا فقد استيقظت منذ ساعات اشتغل...

فقلت له: هل تؤلف كتابًا جديدًا؟.

فأجاب: كلا، كلا... ليس هذا الآن..

ولما جلسنا نتناول الإفطار الشهي وأقداح الشاي الكبيرة عن كثب منا أردف قائلًا: كلا.. إنني كنت أتكلم تليفونيًا مع عدة أشخاص..

فقلت وأنا أغترف البيض بالملعقة الصغيرة دون أن أتحسب في كلامي: كنت أظن أنه ليس عندك تليفون...

فقال وقد بدا متنبها جدًّا مثل حيوان حذر والملعقة في يده: ولماذا لا تظن أن يكون عندي تليفون؟

فقلت: لا شيء... لا شيء... لا شيء..

وتساءلت في نفسي يا إخواني إلى أي مدى كان يتذكر المراحل الأولى من تلك الليلة البعيدة

وأنا واقف لدى الباب أردد الحكاية القديمة وأطلب من زوجته الاتصال تليفونيًا لاستدعاء طبيب وردها بعدم وجود تليفون... لقد رمقني بنظرة مستخبرة، بيد أنه لم يلبث آن عاد إلى رقته وبهجته ومضى يأكل البيض ويقضم، قائلًا:

- نعم إنني اتصلت تليفونيًا بعدة أشخاص سوف يهتمون بقضيتك... بإمكانك ان تكون سلاحًا فعالًا قويًا جدًّا في ضمان أنّ هذه الحكومة الحالية الشريرة القاسية لن تعود إلى الحكم في الانتخابات الوشيكة... أن أشد ما تباهي به الحكومة هو الكيفية التي عالجت بها الجريمة في هذه الشهور الأخيرة..

ورمقني بعينيه عن كثب مرّة أخرى من فوق بيضته الساخنة حتى تساءلت في نفسي من جديد أكان يستشف الجانب الذي لعبته حتى الآن في حياته.. غير أنه عاد يقول: هذه الحكومة التي تجند فتيانًا أشداء قساة للعمل في الشرطة... والتي تدعو إلى تطبيق أساليب في (التكيف الاجتماعي) هي غاية في اضعاف النفوس واستنزاف الإرادة...

كل هذه الكلمات المطولة الطنانة كان يقولها يا إخواني وقد لاحت في عينيه نظرات أقرب إلى الجنون...

ثم استطرد قائلًا: إننا شهدنا مثل هذا من قبل، في البلاد الأخرى.. وقبل أن نعرف ما نحن صائرون إليه وسوف تحل بنا الدكتاتورية الشمولية بكامل أجهزتها!..

فقلت له وأنا أقضم وابتلع: وأين مكاني في هذا كله يا سيدي؟.

فأجاب وما زالت تلوح عليه تلك المسحة الغريبة: أنت ضحية حية لهذه الخطط الشيطانية... لابد للناس، لسواد الشعب، أن يعرفوا، وأن يروا!..

ونهض عن افطاره وراح يمشي في المطبخ جيئة وذهابًا، وفيما بين حوض غسل الأطباق ودولاب المؤونة، وهو يقول بلهجة مستطيرة: هل يحبون لأبنائهم أن يصيروا إلى ما حدث إليك أنت الآن. أيتها الضحيّة المسكينة؟.. ألا تنوي الحكومة الآن أن تفرز ما هو جريمة وما ليس بجريمة، وتعتصر الحياة والإرادة من كل من يستصوب مناهضتها؟.

ثم انحاز إلى بعض الهدوء وان لم يعد لاستكمال بيضته وأضاف قائلًا: أنني كتبت مقالًا هذا الصباح بينما كنت أنت نائمًا وسوف ينشر بعد يوم أو نحوه، مع صورتك الفوتوغرافية المنكودة.. وسوف توقع بإمضائك هذا المقال يا ولدي المسكين، إذ سيكون تسجيلًا لما فعلوه بك!..

فقلت له: وما الذي ستناله من هذا يا سيدي؟. أقصد، فضلًا عن المبلغ الجزيل الذي ستحصل عليه من المقال.. أعني لماذا أنت غاضب وعنيف هكذا ضدّ هذه الحكومة - إذا جاز لي أن اتجاسر على هذا السؤال؟.. فشد بيديه على حافة المائدة وهو يضغط على أسنانه التي كانت مصفرة بتأثير دخان السجائر: لابد لبعضنا أن يناضل... هناك تقاليد عظمي للحرية لابد من الدفاع عنها!.. أنا لست مشابهًا للحكومة... وحيثما أري عملًا شائنًا فإنني أسعى لإزالته!.. إن ابناء الأحزاب لا يعنون شيئًا في نظري!.. فإن تقاليد الحرية هي كل شيء!.. إن سواد أبناء الشعب سوف يتغاضون عن هذا - أجل وا أسفاه!.. إنهم سوف يبيعون الحرية لقاء حياة أدنى إلى الهدوء!.. وهذا هو السبب في أنه لابد من نخسهم، ووخزهم!

وشفع هذا يا إخواني بأن تناول الشوكة وضربها في الحائط ثلاث مرات حتى انثنت، ثم طوح بها إلى الارض... وأخيرًا عاد يقول بكل رقة: كل جيدًا أيها الولد المسكين أيها الضحيّة المنكودة للعالم الحديث...

وبدا لي أنه يكاد يفقد صوابه وهو يقول: كل!.. كل... كل بيضتي أيضًا!

غير أنني قلت له: وما الذي سأناله من هذا؟. هل سأشفى من الحالة التي أنا عليها الآن؟.. هل سأجد نفسي قادرًا على الاستماع إلى السيمفونية الرعوية لبتهوفن دون أن أغثى مرّة أخرى؟.. هل تمكنني أن أحيا حياة طبيعية من جديد؟.. ما الذي سيحدث لي يا سيدي؟..

لقد نظر إليّ يا إخواني وكأنه لم يفكر في هذا قبل الآن، وعلى أي حال فلم يكن هذا بذي بال إذا قورن (بالحرية) وما يماثل هذا الكلام، وبدت عليه علائم الاستغراب إذ قلت له هذا، وكأنني شخص أتاني حين أريد شيئًا لنفسي.. ثم ما لبث أن قال: آه.. كما قلت لك، أنت شاهد حي يا ولدي المسكين... كل افطارك عن آخره ثم تعال وانظر ما كتبته، لأنّه سوف ينشر في صحيفة (ذي ويكلي ترامبت) مذيلًا باسمك، أيها الضحيّة المنكودة!..

لا بأس يا إخواني... أن ما كتبه كان موضوعًا مطولًا جدًّا، وباكيًا جدًّا... ومن قراءتي له شعرت بالأسى للإنسان المسكين الذي أفاض في سرد عذاباته ومعاناته، وكيف أن الحكومة قد استنزفت إرادته، وكيف أنه يتعين على كافة الناس ألا يدعوا لمثل هذه الحكومة الفاسدة والشريرة أن تتبوأ الحكم مرّة أخرى.. وطبعًا قد أدركت أن ذلك الانسان المسكين المعذب لم يكن سوى محدثكم المتواضع وفي النهاية قلت: عظيم جدًّا... لقد أبدعت الكتابة والتصوير يا سيدي... أنت (مجدع) يا سيدي!..

سيدي تن وفقال وكأنه لم يسمعني من قبل: ماذا؟..

فقلت: آه!.. هي كلمة نتداولها فيما نُسمّيه (كلام النادسات)!.. جميع المراهقين يستعملون هذه اللغة يا سيدي!.. وأخيرًا ذهب إلى المطبخ لغسل الأطباق، وبقيت بالملابس الليلية المستعارة، انتظر ما سوف يفعلون بي ما هم فاعلوه، اذ لم تكن لديَّ خطط لنفسي، أواه يا إخواني!..

وفيما كان ف. ألكسندر الكبير في المطبخ سمعنا دقًا لجرس على الباب، فهتف وهو يخرج من المطبخ مجففًا يديه: آه.. هؤلاء الناس!. سأذهب إليهم...

وذهب وأدخلهم، وسمعت حديثًا وقهقهة وكلامًا عن الطقس الشنيع في الردهة، وبعدها دخلوا إلى الغرفة ذات المدفأة والكتب والمقال المدبج عن تفاصيل معاناتي، ولما وقع نظرهم عليّ تفوهوا كلهم بالآه... وكانوا ثلاثة، وذكر لي ف. أليكس الكبير أسماءهم: ز. دونين الداخن المصاب بعسر التنفس الذي يسعل باستمرار وهو يعض على طرف السيجارة في فمه مريقًا رمادها على ملابسه ويداه تنفضانه بتبرم، وهو إلى هذا سمين مستدير يلبس نظارة كبيرة ذات إطار سميك... وروبنشتين الفارع الطول والمهذب لغة وايماءات والمدبب اللحية... وأخيرًا د. ب. داسيلفا الكثير الحركات والذي تفوح منه رائحة عطرة قوية... إن ثلاثتهم رمقوني بنظراتهم طويلًا وبدا عليهم الابتهاج الشديد لرؤيتي وقال ز. دونين: لا بأس!.. لا بأس!.. يا له من (أداة) رائعة يمكن أن يكونها هذا الصبي.. وإذا لزم الأمر، فيمكن بالطبع أن يظهر أكثر اعتلالًا مما يبدو... أي شيء ممكن في سبيل القضية... لا شك أنه يمكننا التفكير في ذلك!.

إنني لم استرح إلى هذا الكلام يا إخواني لما فيه من مساس بشخصي الضعيف، وهكذا قلت: ما هذا يا حضرات؟.. ماذا تدبرون (لمحسوبكم) الصغير؟.

وعندئذ سارع ف. ألكسندر قائلًا: غريب!. غريب!. إن هذه اللهجة تثيرني.. إننا اتصلنا مع بعض من قبل.. أنا متأكد من ذلك!

وراح يتأمل مقطبًا فكان هذا نذيرًا لي بأن ألتزم الحذر في كلامي وقال د. ب. داسيلفا: اجتماعات عامّة بصفة أساسية، وعرضك على أنظار الجمهور سيكون عونًا هائلًا... كما أنّ الاستعانة بالصحافة مسألة مفروغ منها... وستكون البداية هي كيف ضيعوا حياتك!. لابد أن تلهب القلوب والمشاعر!.

قال هذا وقد كشف عن أسنان ناصعة البياض تباينت مع وجهه الأسمر، وبدت عليه مسحة شخص أجنبي...

قلت: لا أحد يقول لي ما الذي أجنيه من كل هذا... لقد عذبت في السجن، وطردت من بيتي من قبل والدي والساكن عندهما القذر الثقيل، وضربت على أيدي رجال عجائز، وكدت أقتل على أيدي الشرطة!.. ما الذي سأصير إليه؟

وهنا تدخل المسمى روبنشتين قائلًا: سوف ترى يا ولد أن (الحزب) لن يكون ناكرًا للجميل... كلا!.. عند نهاية هذا كله، سوف تعد لك مفاجأة مرضية... وما عليك ألا أن تنتظر وترى...

فهتفت قائلًا: هناك شيء واحد أطلبه!.. وهو أن أكون إنسانًا طبيعيًا سليمًا معافى كما كنت في الأيام الحلوة، مستمتعًا بالمرح مع رفاق حقيقيين ليسوا مثل من يدعون أنهم كذلك وما هم في الحقيقة إلا خونة غادرين؟. فهل يستطيع أي شخص أن يعيدني إلى ما كنت عليه.. هذا هو ما أريده: وهذا هو ما أريد أن أعرفه!.

أخذ ز. دونين يسعل، ثم قال: أنت شهيد في سبيل الحرية عليك دور لتؤديه، ولا تنس هذا.. وفي أثناء ذلك سوف نعني بك...

وأخذ يمسح على يدي اليسرى كما لو كنت أبله معتوهًا وهو يبتسم ابتسامة سخيفة... فهتفت قائلًا: كف عن معاملتي كأنني أداة لاستخدامها فقط.. أنا لست أبله يمكنكم أن تفرضوا عليه ما تريدون أيها الخبثاء!.. إن السذج هم الأغبياء، وأنا لست واحدًا منهم ولن أكونه. هل فهمتم؟.

فقال ف. ألكسندر متأملًا: عجبت لهذه اللهجة!.. يخيّل إليّ أنني سمعت مثلها في مكان ما!

لم استرح في الحق لهذه الظاهرة من جانب ف. ألكسندر ولا لهيأته إذ ذاك... ولهذا اتجهت إلى الباب للصعود وارتداء ملابسي ثم الإسراع بالخروج، بينما راح ف. ألكسندر يقول وقد انفرجت أسنانه وبرقت عيناه جنونًا: أكاد أصدق الآن.. لكن مثل هذه الأشياء مستحيلة!.. وحق القديسين لو أنه كان هو لمزقته إربًا وحطمته تحطيمًا!..

وهنا انبرى له د. ب. داسيلفا يربّت على صدره وكأنه كلب يريد تهدئته، قائلًا: لقد حدث كل هذا في الماضي... وكان الفاعلون أناسًا آخرين.. لابد أن تساعد هذه الضحيّة المسكينة... هذا هو ما يجب أن نفعله الآن، متذكرين (المستقبل) و(قضيتنا)!..

فقلت وأنا عند قاعدة السلالم: سأصعد لارتداء ملابسي، ثم أخرج لما يعنيني... قصدي أنني ممتن لكم جميعًا، وأمامي حياتي الخاصّة لكي أعيشها...

والحق يا إخواني إنني أردت أن أخرج من هنا بأسرع ما يمكن... غير أن ز. دونين قال: آه! لا... أنت عندنا يا صديقي وسنحتفظ بك... وسوف ترى أن كل شيء سيكون على ما يرام..

واقترب مني كأنه يريد أن يمسك بيدي مرة أخرى... وعندئذٍ فكرت، يا إخواني، في المقاومة والقتال، ولكن التفكير في العنف جعلني أريد أن أتهاوى وأغشى، وهكذا لزمت مكاني... ولما انثنيت ولمحت تلك النظرة الجنونية في عيني ف. ألكسندر أخذت أقول: مهما تقولوا فأنا بين أيديكم، لكن هلموا بنا نبدأ لكي ننتهي يا إخواني!..

ذلك لأن ما كنت أريده الآن هو الخروج من هذا (البيت)، اذ بدأت أشعر أنني غير مرتاح لنظرات ف. ألكسندر بأي حال... فقال المدعو روبنشتين: بديع... ألبس ملابسك ودعنا نبدأ...

أسرعت إلى الغرفة العليا ولبست في ثانيتين.. ثم خرجت مع هؤلاء الثلاثة وركبنا سيارة جلست فيها بين دونين وهو يسعل عن يميني، وروبنشتين عن شمالي، وتولى د. ب. داسيلفا القيادة واتجهت بنا السيارة إلى المدينة حيث توقفنا بعد مسافة قليلة نسبيًا أمام إحدى العمارات السكنية العمالية، وقال ز. دونين: هنا سيكون مقرك... أنزل..

كانت العمارة شبيهة بمثيلاتها من مساكن العمال ذات لوحات محفورة في المدخل ترمز إلى كرامة العمل، وركبنا المصعد إلى شقّة علوية مؤثثة تأثيثًا طيبًا، بها غرفتا نوم وغرفة ثالثة للمعيشة والعمل والطعام معًا، توسطتها منضدة كانت مغطاة بالكتب والأوراق والحبر والزجاجات وما إلى ذلك... وقال د. ب. داسيلفا: هذا هو بيتك الجديد.. عندك الطعام في دولاب المؤونة والبيجامات في أحد الأدراج فاسترح، استرح أيتها الروح المعذبة!.

فقلت وأنا لا أكاد أفهم: إيه؟.

فقال روبنشتين بلهجته المهذبة: لا بأس... إننا سنتركك الآن... فهناك عمل أمامنا... وسنعود إليك فيما بعد... أشغل نفسك بقدر ما يُمكنك..

فقال ز. دونين بعد أن سعل مرات: هناك مسألة هامة... إنك رأيت ما الذي حرّك الذكريات في نفس صديقك ف. ألكسندر المعذبة... فهل، بمحض الصدفة؟... بعبارة أخرى، هل؟ أنت -؟.. أظن أنك فهمت قصدي... إننا لن ندع المسألة تتطور إلى أكثر من هذا...

فقلت: أنني كفرت... الله يعلم أنني كفرت عما فعلت!.. لقد كفرت ليس فقط عن نفسي، بل أيضًا أولئك الانذال الذين كانوا يقولون أنهم أصحابي...

واشتد بي الانفعال حتى شعرت بغثيان يسير، فقلت: سأتمدد قليلًا... إنني مررت بأوقات رهيبة، رهيبة!.

فقال د. ب. داسيلفا: فعلًا، هو كما تقول..

وهكذا تركوني يا إخواني... وانصرفوا لشأنهم، الذي فهمته أنه يتصل بالمسائل السياسية وما إليها... فاستلقيت في الفراش وحيدًا وسرى الهدوء من حولي... لقد تمددت مكاني بعد أن ألقيت

حذائي وفككت ربطة عنقي وأنا في أتم الحيرة ولا أدري أية حياة يمكن أن أحياها الآن... وراحت كل أنواع الصور تتوارد على ذهني لمختلف الأشخاص الذين التقيت بهم في المدرسة، وفي السجن، ولشتى الأحداث التي مرّت بي، وكيف أنه لم يكن ثمّة شخص واحد يمكن الثقة به والركون اليه في هذا العالم الواسع... وفي النهاية غالبني النوم يا إخواني..

عندما استيقظت سمعت صوت موسيقي تتسرب من خلال الحائط عالية، وكانت هي التي جذبتني من نومي... كانت سمفونية أعرفها تمام المعرفة ولكني لم اسمعها منذ سنوات عديدة، وهي السمفونية رقم 3 للموسيقار الدنماركي (أوتوسكا دلينج)، وهي معزوفة رائعة وعنيفة خصوصًا في المقطع الأول، وهو ما سرى الآن إلى سمعي... ولقد أخذت أستمع إليها مدى ثوان باهتمام وبهجة، لكن سرعان ما اعترتني بوادر الألم والغثيان، حتى رحت أتوجع من أعماقي ثم إذا بي أنا الذي طالما أحببت الموسيقى وشغفت بها أزحف خارج الفراش وأدق الحائط صارخًا: أوقفوها.. أوقفوها!. بيد أنها استمرت، وبدا كأنها ازدادت علوًا وهكذا مضيت أدق الحائط حتى احمرت عقد أصابعي وتسلخ جلدي وأنا لا أكف عن الصياح، غير أن الموسيقي لم تتوقف ثم بدا لي أن أهرب منها، فاندفعت من غرفة النوم إلى باب الشقة، غير أنني وجدته موصدًا من الخارج ولا سبيل الي الخروج منها... وطوال هذا كله كانت الموسيقى تزداد دويًا حتى لكأنها تعذيب مستمر دائب يا إخواني!. وهكذا غرست أصابعي الصغيرة عميقًا في أذني، بيد أن قرع الطبول ما فتىء يدوي في سمعي... فرحت أقول وقد غلبني البكاء: رحماك يا إله السماوات... ماذا أعمل؟. أغثني يا رب!.

ولبثت أهيم في أرجاء الشقة في كرب من الألم والغثيان وأنا أصرخ حتى تكاد أحشائي تتمزق وقلبي ينفطر ثم لاحت مني التفاتة إلى الكتب المكومة فوق المنضدة في غرفة الجلوس، فرأيت فيها ما يتعين عليّ أن أفعله وما كنت أريد فعله إلى أن اعترض سبيلي عجائز المكتبة العامة ثم ديم وبيليبوي في زي رجال الشرطة وذلك أن أنهي حياتي وانسفها نسفًا من هذه الدنيا الشريرة القاسية!. كان ما رأيته هو كلمة (الموت) مطبوعة على غلاف إحدى النشرات، وان كان العنوان هو (الموت للحكومة)!.. وكأني بالقدر أراد أن ييسر مهمتي، اذ لمحت كتيبًا آخر كان على غلافه وتحتها هذه العبارة: (افتحوا النافذة للهواء المجدد، للأفكار الجديدة، لأسلوب آخر للحياة)... وهكذا عرفت أن في هذا ايماءة لي بأن أختم حياتي بالقفز من النافذة ربما كانت لحظة ألم واحدة، وبعدها نومة أبدية، أبدية، أبدية!

كانت الموسيقى لا تزال تنبعث مدوية... وكانت نافذة غرفة النوم مفتوحة... فاقتربت منها ورأيت بنظرة مسقطًا لا بأس به إلى حيث السيارات والأوتوبيسات والمارة من تحتي... وعندئذٍ هتفت بأعلى صوت للدنيا كلها: الوداع.. الوداع.. أدعو الله أن يغفر لي القضاء على حياتي بيدي!..

ثم ارتقيت إلى حافة النافذة وصوت الموسيقى يتباعد عن شمالي، فأغمضت عيني، وشعرت بالهدوء البارد يلذع وجهي، ثم قفزت...

الفصـل السـادس

قفزت يا إخواني، وهويت على الرصيف الصلد، غير أنني لم أقض نحبي... هذا حق، وإلا لما كنت بين أيديكم الآن أسرد قصتي!..

يبدو أن القفزة لم تكن من ارتفاع كبير يؤدي إلى إزهاق الروح لكنني أصبت في ظهري وشعرت فيه وفي رسغي وساقي بألم شديد قبلما غبت عن الوعي يا إخواني، مع لمحة خاطفة لوجوه أناس يطلون عليّ بدهشة واستغراب... وفي تلك اللحظات الخاطفة بين الحياة والموت تجلى لي أنه لا أحد في هذه الدنيا البشعة بأسرها كان مواليًا لي، وأن تلك الموسيقى التي سرت إلى سمعي من خلال الحائط إنّما كانت مدبرة من جانب أولئك الذين كان يُظن أن يكونوا رفاقي الجدد، وأن شيئًا كهذا الذي حدث لي كانوا يريدونه ان يحدث طبعًا لأنانيتهم الشنيعة وسياساتهم التي يتباهون بها!.. كل هذا تجلى لي في فترة واحد من المليون من الدقيقة قبلما غبت عن الدنيا وعن السماء وعن الوجوه التي راحت تحملق في مشدوهة!..

أما أين كنت عندما عدت إلى الحياة بعد فجوة مديدة سوداء سوداء من الغيبوبة ربما كانت مثل مليون سنة، وذلك في المستشفى ولا شك، فهو ناصع البياض بالغ النظافة تشيع فيه رائحة المطهرات النفاذة.. وقد عدت ببطء إلى الوعي الذي دريت فيه من أنا وأنني مشدود في الأربطة والضمادات وأنني لا أستطيع أن أشعر بأي ألم أو أي شيء آخر في جسدي بتاتًا.. كان رأسي كله ملفوفًا بالضمادات، وألصقت قطع من الأشرطة حول وجهي، وكانت يداي في الضمادات، وشدت عصوات صغيرة إلى أصابعي وكأنما كانت أزهارًا يُراد أن تنمو مستقيمة... وكانت قدماي ممدودتين أيضًا وتحف بهما الضمادات وأقفاص صغيرة من السلك، وفي يدي اليمنى قرب الكتف، كان سائل أحمر يسقط قطرات من قدر زجاجية مقلوبة رأسًا على عقب!.. لكنني لم أكن أستطيع أن أشعر بأي شيء يا إخواني!.. وكان ثمّة ممرضة جالسة بجانب فراشي تقرأ في كتاب بدا مطموس الطباعة، وكان لك أن تقدر أنه قصة، بسبب كثرة الأقواس بين سطوره، وكانت تتنفس بعسر ولهث وهي تقرأ، فلابد أنها قصة غرامية عنيفة!.. وكانت هذه الممرضة بادية الملاحة ذات ثغر أحمر وأهداب طويلة فوق عينيها، وكان يبدو لك تحت ردائها المتيبس نهدان بديعان.. وهكذا قلت لها: «يا أختي الصغيرة.. هلا جئت وقاسمت أخاك المسكين مضجعه؟».. غير أن كلماتي لم تخرج من فمي بتاتًا، وكأن فمي قد تصلب وانطبق.. وشعرت بلمس لساني أن بعض اسناني لم تعد موجودة بيد أن الممرضة ما لبثت أن وثبت قائمة وألقت كتابها على الأرض قائلة: آه... هل عدت إلى وعيك؟..

حاولت أن أرد، بيد أن الكلمات لم تزد عن مخارج أحرف.. فأسرعت خارجة وتركتني وحدي، ورأيت الآن أنني في غرفة خاصة بي، لا في عنبر من تلك العنابر الطويلة التي رأيت مثلها وأنا طفل صغير مصاب بالدفتريا..

وبدا كأنني لا أقوى على تمالك الوعي طويلًا، إذ يبدو أنني نمت على الأثر ولكنني بعد دقيقتين كنت متأكدًا أن الممرضة عادت وصحبت معها أشخاصًا في معاطف بيضاء وأنّهم راحوا ينظرون مقطبين ومهمهمين إلى محدثكم المتواضع.. وكان معهم وأنا أؤكد هذا واعظ السجن

العتيد الذي ذهب يقول ورائحة الويسكي تفوح منه: أواه يا ولدي!.. أواه يا ولدي! لكنني لم أقبل أن أستمر معهم!.. لم أستطع أن أساهم معهم أولئك الملاعين في فعل ما هم فاعلوه لغيرك من المسجونين التعساء!.. وهكذا انسحبت من بينهم وانتقلت للوعظ في مكان آخر افضح فيه نواياهم، أواه يا ولدي المحبوب...

فيما بعد استيقظت مرّة أخرى.. فمن تحسبوني أنني شاهدت سوى أولئك الثلاثة الذين قفزت من شقتهم إلى الشارع؟.. أعني د. ب. داسيلفا، وروبنشتين، وز. دونين وكان واحد منهم يقول: أيها الصديق الصغير.. الناس على نار من الغضب.. أنك قد قضيت على فرص أولئك الأوغاد المتفاخرين في إعادة انتخابهم!.. إنهم ذاهبون راحلون إلى الابد وإلى الابد!.. لقد خدمت (الحرية) خدمة جليلة!..

فحاولت أن أقول: لو أنني كنت مت لكان ذلك أفضل لتحقيق أغراضكم السياسية اللعينة، أيها المنافقون الغادرون...

لكن كل ما خرج من فمي كان مجرد حروف مبتورة.. ثم لمحت أحد أولئك الثلاثة ممسكًا بقصاصات جرائد، وكل ما استطعت رؤيته هو صورة شنيعة لي وأنا مخضب بالدماء فوق محفة منقولة، وعن كتب منها ما يشبه ومضات كاميرات المصورين.. واستطعت بعين واحدة أن أقرأ عناوين بدت مهتزة في يد الممسك بالقصاصات، مثل: (صبي ضحية خطة للإصلاح الجنائي) و(الحكومة هي القاتل) ثم لمحت صورة لشخص آخر كتب تحته بالخط الغليظ (اخرج... اخرج!.. اخرج!..)، وكانت صورة وزير الداخلية!..

ولم تلبث الممرضة أن قالت: يجب ألا تسببوا له الانفعال على هذه الصورة... يجب ألا تفعلوا له شيئًا يسبب تعكيره... والآن لابد أن تخرجوا!..

حاولت أن أقول بدوري: اخرجوا!.. اخرجوا!.. اخرجوا!.. لكن لم تصدر مني سوى مخارج حروف مرّة أخرى.. ومهما يكن فقد خرج أولئك السياسيون الثلاثة.. أمّا أنا فقد عدت إلى عالم الظلمات من جديد، تتخلّله أشياء كالأحلام.. منها يا إخواني ما بدا لي من أن جسدي قد أفرغ مما هو أقرب إلى مياه قذرة ثم ملئ مرّة أخرى بمياه نظيفة.. ثم تراءى لي كأنني ركبت سيارة اقتنصتها عنوة من صاحبها وأخذت أقودها بنفسي عبر الدنيا ذهابًا وايابًا والناس في طريقي يتراكضون مذعورين صارخين وليس بي ألم ولا غثيان ورؤى أخرى لفتيات حسان كانت لي معهن مطارحات غرامية والناس من حولي يصفقون مهللين ثم استيقظت مرّة أخرى، فكان القادمون هما أبي وأمي جاءا لرؤية ابنهما الطريح وأمي تبكي بكاءً مرًا.. لقد أصبحت الآن أقدر على الكلام، ورحت أقول: حسن!.. حسن!.. حسن!.. ما الذي يجعلكم تظنون أنكم محل ترحاب..

فقال أبي خجلان مخزيًا: رأينا في الجرائد يا ابني.. قالت الجرائد أنهم أساءوا إليك كثيرًا!.. وقالت إن الحكومة دفعتك لمحاولة التخلص من حياتك!.. وقالت إن الذنب ذنبنا أيضًا على نحو ما يا إبني!.

ذلك وما فتئت أمي مستغرقة في البكاء والنحيب.. فقلت: وكيف حال ابنكم الجديد جو؟.. لعله بخير وعافية وسعادة؟!

فلم تعد أمي أن قالت منتحبة: أواه يا أليكس!.. يا أليكس!..

وقال أبي: حدث شيء غريب يا ابني.. إنه وقع في ورطة مع الشرطة، وقد قضوا عليه..

فقلت: أحقًا؟!.. أحقًا؟!.. يحدث هذا لمثل ذلك الشخص الطيب المحبوب؟!.. أنا مندهش بصراحة...

فقال أبي: أن الشرطة ضبطوه مع فتاة لدى الناصية، وعندما نهروه قال لهم أن له حقوقه كأي فرد من الناس، فما كان منهم إلا أن انقضوا عليه واعتقلوه...

فقلت: فظيع!.. فظيع... وأين الفتى المسكين الآن؟..

فقالت أمي بين العبرات والزفرات: ذهب من حيث أتى... أواه!.. أواه!..

وقال أبي: نعم... عاد إلى بلدته لكي يتداوى بعد الذي أصابه، خصوصًا بعد أن أعطوا عمله هنا لشخص آخر..

فقلت: وهكذا الآن أنتم راغبون في عودتي إليكم من جديد لكي تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي كما كانت من قبل...

فقال أبي: نعم يا ابني.. هذا رجاء منا...

فقلت: سأفكر في الامر سأفكر في الأمر بعناية..

فكان مزيد من البكاء والنحيب من جانب أمي فقلت لها: آه.. كفى، وإلا فعلت شيئًا يجعلك تصرخين بحق!.. سأقفل فمك بالقوة!..

والواقع يا إخواني أنني شعرت بتحسن، وكأنني لكي أتحسن كان لابد أن يحدث ما يسوء!..

وقال أبي: ما هكذا يجب أن تخاطب أمك يا ابني!.. مهما يكن فهي التي جاءت بك إلى هذه الدنيا!..

فقلت: نعم ويالها من دنيا سعيدة!..

ثم أغمضت عيني بشدة في شيء من الالم، وقلت أخيرًا: إذهبا الآن... سوف أفكر في العودة اليكما.. لكن لابد من أن يختلف الموقف تمامًا!..

فقال أبي: نعم يا ابنى أي شيء تريده...

فقلت: لابد أن تحزما أمركما فيمن يكون رب البيت!..

راحت أمي تبكي قائلة: أواه...

وقال أبي: حسن جدًا يا إبني.. سوف تكون الأمور كما تحب.. فقط استرد صحتك!..

وبعد انصرافهما تمددت في الفراش وأخلدت إلى التفكير في أمور شتى وتعاقبت في ذهني صور وأشياء كثيرة.. وعندما عادت الممرضة الحسناء وأخذت ترتب الملاءات في فراشي قلت لها: كم لبثت هنا؟..

فقالت: حوالي أسبوع..

- وما الذي كانوا يفعلونه بي؟..

فردت قائلة: لا بأس أنك كنت مهشمًا ومجروحًا ونزفت منك دماء كثيرة.. فاضطروا أن يعالجوا لك كل هذا، أليس كذلك؟ فقلت لها: لكن، هل فعل أحد أي شيء برأسي؟.. ما أقصده هو: هل عبثوا بمخي على أية صورة من الصور..

فقالت: مهما يكن مما فعلوه، فإنه كان لمصلحتك..

ولكن بعد عدة أيام زارني اثنان من الأطباء الشبان تعلو الابتسامة وجهيهما، وكان معهما ما عرفت أنه كتاب مصوّر.. وقال لي أحدهما: نريد منك أن تلقي نظرة على هذه الصور وأن تقول لنا ما رأيك فيها.. واضح؟..

فقلت: ماذا وراءكما؟.. وأي مكر تخفونه في جعبتكما..

فابتسما في شيء من الحيرة لهذا الكلام، ثم جلسا على جانبي الفراش وفتحا الكتاب.. في الصفحة الأولى كانت صورة عش طيور مليئًا بالبيض فقال أحد الطبيبين: نعم؟..

فقلت: عش طيور، مليء بالبيض هو لطيف جدًّا..

فقال الطبيب الاخر: وماذا تحب أن تفعل بشأنه؟..

فقلت: آه.. أحطمه.. آخذ العش كله وأطوحه على حائط أو صخرة أو أي شيء، ثم أتفرج على الحطام..

فقال الاثنان معًا: جميل.. جميل..

ثم قلبا الصفحة، فبدت صورة طاووس نشر ذيله الكبير بكل الألوان متباهيًا تياهًا.. فقال أحد الطبيبين: نعم؟..

فقلت: أود أن أنزع كل هذا الريش في الذيل وأسمع صراخه الجنوني، نظير هذا التفاخر والتباهي..

فقال الطبيبان معًا: جميل.. جميل.. جميل!..

واستمرا يقلبان بقية الصحائف.. فرأيت صور فتيات جميلات وقلت أنني أود أن أطارحهن الهوى مع ما يلزم من أعمال العنف وكان ثمّة صور أخرى لأشخاص يركلون في وجوههم بالأحذية ودماؤهم تسيل مدرارًا، وقلت إنني أود أن أكون في مثل هذه الصور (على الطبيعة) فقالا هذا جميل، جميل، جميل!..

فقلت: ما معنى هذا كله..

فقال أحد الطبيبين: حالة (هيبنو بيديا عميقة)، أو شيء من هذا الكلام الغامض!..

ثم أضافا: يبدو أنك شفيت..

فقلت: شفيت؟.. أنا مقيد في السرير هكذا، وتقولون أنني شفيت؟!.. كلام مزوق لا أكثر، هذا ردي عليكم...

فقال الآخر: انتظر.. لن يطول الوقت بعد الآن..

وهكذا جعلت انتظر يا إخواني وقد تحسنت حالتي كثيرًا وأنا آكل البيض وأقضم (التوست) وأشرب أقداحًا كبيرة من الشاي واللبن.. إلى ان جاء يوم أبلغوني فيه أنه سيحضر عندي زائر كبير المقام..

- من هو؟..

قلت هذا بينما كانوا يسوون الفراش ويمشطون شعري الغزير نيابة عني بعد أن رفعت الضمادات عن رأسي ونما الشعر من جديد فقالوا: سوف ترى.. سوف ترى..

وقد رأيت فعلًا.. ففي الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر أقبل المصورون ومندوبو الصحف مشرعين مفكراتهم وأقلامهم إلى آخر هذه الظواهر ولو استطاعوا يا إخواني أن ينفخوا في الأبواق لفعلوا اجلالًا لصاحب المقام الرفيع القادم لرؤية محدثكم المتواضع!..

ثم جاء فعلًا وطبعًا لم يكن سوى وزير الداخلية الأفخم، شرَّف في أوج أناقته متشدقًا بلهجته السامية المنمقة، تبرق من حوله كاميرا التصوير خصوصًا حين مد يده الكريمة إليّ يصافحني!..

فقلت: حسن!.. حسن!.. حسن!.. ماهي الحكاية أيها الرفيق الكريم؟..

ولكن واحدًا من القادمين انتهرني بصوت خشن: إلزم الأدب والاحترام يا ولد عندما تخاطب الوزير...

فقلت مزمجرًا مثل كلب: طظ فيكم كلكم!..

فسارع وزير الداخلية يقول: لا بأس.. لا بأس.. إنه يكلمني كصديق؟ أليس هذا بابني؟.

فقلت: أنا صديق كل انسان، إلا أعدائي!..

فقال الوزير ومندوبو الصحف منهمكين في الكتابة والتدوين: ومن هم أعداؤك؟.. قل لنا هذا يا ولدي قلت: حسن..

فقلت: أن كل الذين يسيئون إليّ هم أعدائي..

فقال وزير الداخلية وهو يجلس قرب فراشي: لا بأس أنني والحكومة التي أنا عضو فيها نريد منك أن تعدنا كأصدقاء.. نعم أصدقاء.. إننا قومناك، صح.. وأنت تنال أفضل علاج ولم نرد لك أبدًا أي ضرر لكن هناك البعض ممن فعلوا هذا ويفعلونه.. واظن أنك تعرف من هم هؤلاء..

فقلت: أن كل الذين يسيئون إليّ هم أعدائي..

فقال الوزير: نعم، نعم، نعم.. هناك أفراد معينون أرادوا أن يستخدموك لأغراض سياسية.. وكان يسرهم - نعم - يسرهم أن تلقى حتفك، فإنّهم ظنوا أنه يمكنهم بهذا أن يلقوا اللوم كله على

الحكومة.. وأظن أنك تعرف من يكون هؤلاء الافراد..

فقلت: أنني لم أسترح إليهم..

فقال الوزير: هناك رجل يدعي ف. ألكسندر، محرر مطبوعات هدامة، ذهب يملأ الدنيا صراخًا مطالبًا بدمك.. إنه قد جن جنونًا رغبة منه في غرس مدية في شخصك.. لكنك الآن في أمان منه. لقد أبعدناه عنك..

فقلت: كان المظنون أنه يكن لي الصداقة.. كان يرعاني رعاية الأم للإبن..

فعاجلني الوزير قائلًا: لقد اكتشف أنك أسأت إليه.. أو على الاقل ساوره الاعتقاد بأنك كنت المسيء لقد نبتت في ذهنه فكرة أنك كنت المسئول عن وفاة شخص قريب له وعزيز عليه..

فقلت: أن ما تعنيه هو أن أحدًا أبلغه بهذا..

فقال الوزير: كانت عنده هذه الفكرة.. وقد أصبح خطرًا عليك.. فأبعدناه لحمايته شخصيًا، ولحمايتك أنت أيضًا..

فقلت: طيبة وإنسانية.. منتهى الطيبة من جانبكم..

فقال الوزير: عندما نغادر هذا المكان، لن تبقى أمامك أية متاعب ولا أكدار.. إننا سندير لك كل شيء.. عمل طيب، ومرتب طيب.. لأنك تساعدنا..

فقلت: هل أفعل هذا حقًّا؟..

- إننا دائمًا نساعد أصدقاءنا أليس كذلك؟..

ثم أمسك الوزير بيدي، وعندها صاح أحدهم (ابتسم**!**) فابتسمت دون تفكير، وسرعان ما لمعت كاميرات التصوير تأخذ صورتي وصورة الوزير ونحن على أتم الود والصفاء.. وقال ذلك الرجل الخطر: جميل، جميل يا ولدي... والآن، انظر، هذه هدية لك**!**..

إن ما جاءوا به الآن يا إخواني كان صندوقًا كبيرًا لامعًا، فعرفت بوضوح ما هو.. كان جهاز (ستيريو).. وقد وضعوه بجانب السرير وفتحوه، وتولى شخص وضع (الفيشة) في (بريزة) الحائط وقال آخر يضع نظارة على أنفه، وكان يحمل في يديه أغلفة جميلة لامعة مليئة بالأسطوانات: أي موسيقي تريد.. موتسارت؟.. بتهوفن.. شورينبرج.. كارل أورف؟..

فقلت: السيمفونية رقم ٩.. السيمفونية المجيدة..

وأدرت السيمفونية الرائعة يا إخواني وأخذ كل واحد ينسحب في هدوء وتلطف فيما تمددت في مكاني مغمض العينين استمع إلى أعذب الألحان.. وقال الوزير وهو يربّت على كتفي: بديع، بديع يا ولدي...

ثم خرج على الأثر، ولم يبق سوى شخص واحد قال لي: وقع هنا من فضلك..

ففتحت عيني كي أوقع دون أن أدري ما الذي أوقع عليه، وما كان يهمني يا إخواني أن أدري..

وفي النهاية بقيت وحدي مع سمفونية بتهوفن الخالدة..

آه!.. كانت هي الروعة والجلال والجمال معًا... وفي مسراها في وجداني بدا لي وكأنني أركض وأركض فوق ساقين خفيفتين خفيتين، أشق وجه الدنيا كلها الصارخة بمديتي الحادة البتارة.. ثم كان ختامها بالحركة الوانية.. ثم الحركة الغنائية البديعة العذبة.. فشعرت أنني قد شفيت حقًّا وصدقًا..

الفصـل السـابع

ماذا سيكون إذن، يا ترى؟..

هأنذا، محدثكم المتواضع، مع رفاقي الثلاثة: لين، وريك، وبوللي.. لقد سمي بوللي بهذا الإسم (الثور) بسبب عنقه الضخم الغليظ وصوته الذي يشبه خوار الثور حقًّا..

كنا جلوسًا في مشرب اللبن (كوروفا) نتشاور فيما نفعله هذه الأمسية الشتوية القارسة البرد الحالكة الظلام وإن كانت خلوًا من المطر وكل ما حولنا كان أناسًا يشربون اللبن المقوى بالأخلاط الملهبة التي تطير العقل وتطوح بالشاربين في أجواز الفضاء.. أمّا تأثير هذا الشراب عندنا نحن الفتيان فكان يلهب حواسنا ويستفزنا للقيام بأعمال العنف، ولكنني حدثتكم عن هذا يا إخواني فيما سلف من قبل..

وكنا الآن نلبس قمة (الموضة) في هذه الأيام، وهي البنطلون الواسع الفضفاض وسترة الجلد السوداء اللامعة فوق قميص مفتوح الرقبة مع منديل كبير مشدود إلى الصدر.. وكان من مقتضيات (الموضة) أيضًا في هذه الفترة هو استعمال المطواة الحادة على الرأس، وهكذا كان أكثر الرأس شبه أصلع، ولا يبقى الشعر إلا على الجانبين.. أما الاقدام فقد بقيت على حالها، مدسوسة في الحذاء الثقيل لركل الوجوه ركلًا..!

وكنت أنا أكبر هذه الزمرة سنًا، وكانوا جميعًا ينظرون إليّ كزعيم لهم.. غير أن الفكرة كانت تراوحني أحيانًا بأن بوللي ربما يفكر في أن يتولى هو الزعامة، وذلك بسبب ضخامته وهدير صوته عندما يكون مشتبكًا في المعمعة.. ولكن كافة الأفكار والخطط كانت تنبع من محدثكم المتواضع يا إخواني، وكذلك لما اتسقت لي من شهرة بعد تلك المقالات والصور الفوتوغرافية التي نشرت عني في الجرائد.. يضاف إلى هذا أنني كنت أتقلد أحسن عمل دون كل الفريق في (شركة الاسطوانات الموسيقية الوطنية) بمرتب كان يجعل جيبي مملوءًا بالنقود في نهاية الأسبوع، إلى جانب مجموعة من الاسطوانات المجانية أفوز بها من الشركة..

في هذا المساء كان في مشرب كوروفا جمع طيب من أفراد الجنسين كبارًا وصغارًا جلسوا يتسامرون ويحتسون الشراب بين عزف (الستيريو) لأغاني (البوب) الشائعة.. وكانت تجلس إلى المقصف مجموعة نسائية في زي (النادسات) العصري، وهو الشعر الطويل المشعث المصبوغ باللون الأبيض، مع النهود الصناعية البارزة بقدر متر (!)، و(الجونلة) والمحبوكة شديدة الضيق والقصيرة ومن تحتها أطراف (الدانتللا) بادية.. وكان بوللي لا يفتأ يكرر لهن هذه الكلمات: (بالإمكان أن ننتقل إلى جانبكن نحن الثلاثة، أمّا لين فهو غير مهتم!.. اتركن لين وحده مع أطيافه الحوريات!..).. فكان لين يرد عليه بقوله: (تخريف، تخريف... أين مبدأ الكل مع الواحد والواحد مع الكل، يا ولد!؟..).. وفجأة ألفيتني أشعر بالتعب الشديد والنشاط المتجدد في آن واحد.. فقلت لهم:

- إلى الخارج!.. إلى الخارج!.. إلى الخارج!..

فقال ريك الذي له وجه كالضفدعة: إلى أين؟..

فقلت: لكي نرى ماذا يجري في الدنيا الواسعة في الخارج..

بيد أنني كنت أشعر على نحو ما يا إخواني بالضجر الشديد وقلة الحيلة، وكان هذا الإحساس يلازمني أكثر الوقت في هذه الأيام وهكذا انثنيت إلى الشخص الأقرب من مجلسي على الأريكة الوثيرة الممتدة باستدارة المشرب مستغرقًا في هذيانه، فصوبت إليه عدة لكمات فوق بطنه، غير أنه لم يشعر بها يا إخواني، ومضى يهذي بأبيات من الشعر الغنائي لا معنى لها!..

سرنا في طريق (مارجانيتا بوليفار) دون أن نصادف في مسيرنا شرطة من قوة الدورية وهكذا ما أن التقينا برجل آت إلى ناحيتنا خارجًا لتوه من كشك بيع الجرائد حتى قلت لبوللي:

- لا بأس يا بوللي يا ولدي تقدم إذا كانت لديك الرغبة..

فقد كنت هذه الأيام أميل إلى إصدار الأوامر وأقف بمعزل لرؤية هذه الأوامر تنفذ.. وهكذا تقدم بوللي إلى الرجل واصطدم به، بينما أوقعه الاثنان الآخران (بمقص) وانهالا عليه رفسًا وهو ممدد على الأرض، ثم تركاه يزحف مبتعدًا إلى حيث يقيم وهو ينتحب وقال بوللي:

- ما رأيك يا أليكس في كأس من أي نوع لدفع البرد عنا؟..

ذلك لأننا كنا وقتها غير بعيدين عن (بار دوق نيويورك)..

فأومأ الآخران بنعم نعم، ولكن ثلاثتهم تطلعوا إليّ ليروا إن كنت أوافق، فأومأت أيضًا إيجابًا، ومضينا إلى المشرب..

وفي الداخل وجدنا أولئك النسوة العجائز اللاتي تتذكرونهن منذ بداية هذه القصة، وما أن وقعت أنظارهن علينا حتى بدأننا بالأسطوانة المعروفة:(مساء الخير يا فتيان!.. بارك الله فيكم!... أنتم أحسن الفتيان في الدنيا!..).. وقد انتظرن أن نرد عليهن بعبارة (ماذا تطلبن يا بنات) فاستدعى بوللي (الجرسون) الذي جاء يمسح يديه في (المريلة) الزنخة، وقال بوللي وهو يخرج النقود من جيبه ويفرغها على المائدة في رنين:

- نقودكم على المائدة يا رفاق.. ويسكي لنا، ولسيداتنا أيضًا...

وعندئذ قلت:

- آه!.. إلى الجحيم!.. دعهن يشترين المشروب لأنفسهن..

ولست أدري ما الذي دهاني، غير أنني شعرت في الفترة الأخيرة بأنني أقرب إلى البخل والتقتير.. ودارت بخاطري رغبة في الاحتفاظ بكل نقودي لنفسي وادخارها كلها لسبب ما.. وقال بوللي:

- ماذا جرى يا بطل؟.. ماذا دها أليكس العتيد؟..

فقلت: آه!.. إلى جهنم!.. لست أعرف.. لست أعرف.. أن ما أعرفه هو أنني لا أحب أن أبعثر نقودي التي كسبتها بشق النفس.. هو ما بي..

فقال ريك: تقول كسبتها؟.. كسبتها.. لا لزوم لكي تتعب؟ في الكسب، كما تعرف أيها الزميل العزيز.. النقود نأخذها أخذًا!..

وشفع هذا بابتسامة كشفت عن اختفاء سن أو اثنتين من فمه..

فقلت: آه!.. لابد لي من التفكير..

ولكن بعد أن لمحت أولئك العجائز أقرب إلى التلهف لطلب شراب مجاني، هززت كتفي وأخرجت نقودي من جيب بنطلوني وكانت معدنًا وورقًا، فنشرتها على المائدة.. فقال (الجرسون):

- ويسكي للجميع...

لكن لسبب ما قلت: لا يا ولد أطلب لي أنا كأس بيرة..

فقال لين: أنا لا أستحب هذا!..

وهم أن يضع يده على رأسي مداعبًا، كأنني أصبت بحمى، غير أنني زمجرت في وجهه لكي يكف... فقال:

- لا بأس!.. لا بأس يا صاحبي!.. كما تحب..

لكن بوللي كان ينظر فاغر الفم إلى شيء خرج من جيبي مع النقود التي وضعتها على المائدة، وقال:

- شيء جميل!.. وكنا لا نعرف أبدًا!..

فقلت مزمجرًا وأنا أختطف ما رآه: أعطني هذه...

كانت يا إخواني صورة فوتوغرافية قصصتها من جريدة، وكانت لطفل رضيع ضاحك واللبن يتساقط من فمه، شاخصًا بوجهه الضحوك لكل إنسان، وكان عاريًا تمامًا وطيات لحمه بادية لفرط سمنته.. وقد نشبت بيننا شبه مشادة لمحاولتهم انتزاع الصورة مني، وهكذا زمجرت في وجوههم مرّة أخرى واختطفت الصورة ومزقتها كل ممزّق وتركتها تتناثر على الأرض تناثر حبيبات الثلج.. ثم جيء بالويسكي على الأثر، وقالت العجائز: «في صحتكم يا فتيان!.. بارك الله فيكم، يا أحسن فتيان في الوجود... هذا هو أنتم!..» - إلى أمثال هذا الكلام.. ثم قالت إحداهن وهي أكثرهن تجاعيد وقد ذهبت الأسنان من فمها الغائر: «لا تمزق النقود يا بني!.. إن كنت لا تريدها فامنحها لمن يحتاج إليها!..».. وكانت في هذا القول جريئة وصريحة.. ولكن ريك رد عليها قائلًا:

- لم تكن هذه نقودًا يا جدتي.. كانت صورة لطفل صغير..

فرحت أقول لهم:

- إنني بدأت أتضايق منكم.. الأطفال هم أنتم.. تهزلون وتتغامزون وكل ما تقدرون عليه هو الاعتداء بالضرب على الناس بجبن حين لا يقدرون على رد العدوان بمثله!..

فقال بوللي: لا بأس.. كنا نظن حتى الآن أنك الملك والمعلم!.. إنك لست على ما يرام هذه المشكلة يا زميلي العزيز...

وحانت مني التفاتة إلى كأس البيرة التي جيء بها إليّ على المائدة، فشعرت بأنني على وشك القيء، وهكذا قمت وسكبتها على الأرض، حتى قالت إحدى النساء: «لا تبدّد ما لا تريده!»..

ولكنني وجهت كلامي إلى الرفاق الثلاثة قائلًا:

- اسمعوا يا رفاق أنصتوا.. إن مزاجي معكر هذه الليلة ولست أعرف لماذا ولا كيف، ولكن هذا هو الحال اذهبوا أنتم الثلاثة في طريقكم هذه الليلة بدوني، وغدًا سنلتقي في نفس الزمان ونفس المكان، على أمل أن أتحسن وقتذاك..

فقال بوللي: آه!.. أنا آسف لهذا!..

لكن كان بوسعك أن ترى ذلك البريق في عينيه، إذ أنه سيتزعم المجموعة هذه الليلة.. هي القوة والسلطان، يريدها كل إنسان!..

فقال بوللي: يمكننا أن نؤجل إلى الغد مشروعنا لهذه الليلة - أعني الغارة على ذلك المحل في شارع جاجارين.. الغنيمة هناك مغرية وجزيلة أيها الرفاق، لمن يقدم عليها!..

فقلت: لا.. لا تأجيل لشيءٍ.. فقط افعلوا ما تريدون بأنفسكم وبطريقتكم.. والآن أنا خارج!..

وقمت من مقعدي.. فقال ريك: إلى أين اذن؟..

فقلت: هذا ما لا أعرفه.. أريد أن أكون وحدي وأفكّر في أحوالي!..

بدت الدهشة على وجوه النسوة العجائز وقد رأينني أخرج على هذه الصورة وأنا متبرم ساخط ولست الفتى المتوثب الضحوك الذي تذكرونه يا إخواني!.. ولكنني قلت:

- آه!.. إلى جهنم!.. إلى جهنم!..

وانطلقت وحدي إلى الشارع...

كان الظلام سائدًا والريح قارسة البرد، ولم يكن ثمّة سوى قلة من الناس في الطريق.. ولكن دوريات الشرطة بالسيارات كانت لا تكف عن الطواف وبداخلها أفراد قساة اشداء، وحول النواصي كنت ترى اثنين من رجال الشرطة الشبان يضربون الأرض بأقدامهم المقاومة للبرد اللاذع وأنفاسهم تنعقد أبخرة في هواء الشتاء.. وفي ظني يا إخواني أن كثيرًا من أعمال العنف واقتحام المحال للسلب والنهب قد تلاشى الآن، بعد أن بدأ رجال الشرطة يتعاملون بالشدة والقسوة مع من يعتقلونهم، على الرغم من أن الاشتباكات بين أشقياء (النادسات) والشرطة كانت تتحول إلى معارك طاحنة أسلحتها المدى والمطاوي والعصى، وحتّى الأسلحة النارية..

لكن ما اعتراني هذه الأيام هو أنني لم أكد أبالي بشيء فكأنما سرت إلى نفسي طراوة لم أفهم لها سببًا ولا علة.. ولم أستطع أن اعرف ماذا أريد وأبتغي.. وحتّى الموسيقى التي كنت مشغوفًا بسماعها في (وكري) بالبيت لم أعد أستطيبها يا إخواني كنت أستمع الآن إلى الأغاني الرومانسية الهادئة الشجية، مجرد كلمات وبيانو، مختلفة تمامًا عن موسيقي الأوركسترا التي كنت أستمع اليها

وأنا ممدد في فراشي منتشيًا سابحًا في الفضاء!.. هناك شيء بدأ يحدث لي في داخلي، حتى رحت أتساءل إن كان مرضًا أو هو شيء فعلوه بي في تلك الفترة الماضية، فقلبوا الموازين في دماغي ولعلهم يوشكون أن يفضوا بي إلى الهوس والاختلال!..

على هذه الصورة من التفكير يا إخواني رحت أمشي في المدينة مطرق الرأس ويداي في جيوبي حتى أدركني التعب الشديد وشعرت في نفس الوقت بحاجة ملحة إلى قدح كبير من الشاي واللبن.. وقد أفضى بي التفكير في الشاي إلى تخيل صورة فجائية لنفسي جالسًا وأمام مدفأة في مقعد وثير أحتسي هذا الشاي، وإنّما كان المضحك والمستغرب أنني تخيلت نفسي وقد استحلت إلى شخصيّة محترمة في نحو السبعين من العمر وقد خط المشيب شعر صاحبها!.. هكذا تخيلت نفسي رجلًا كهلًا جالسًا بجانب المدفأة، لكن هذه الصورة لم تلبث أن تلاشت، وأن تلبث في نفسي التفكير في غرابتها...

ووصلت إلى واحد من تلك المقاهي التي تقدم القهوة والشاي، واستطعت أن أتبين من خلال نافذتها الطويلة أناسًا متبلدين عاديين لهم وجوه صابرة لا تعبر عن شيء ولا يبادر أصحابها أحدًا بأذى، وكلهم جلوس يتسامرون في هدوء ويحتسون الشاي والقهوة بما لا يضر شيئًا. فدخلت واتجهت إلى (الكاونتر) واشتريت قدحًا من الشاي الحار وبه قدر كبير من اللبن، ثم جلست إلى إحدى الموائد لكي أشربه.. وكان يجلس إلى هذه المائدة الكبيرة شاب وفتاة يشربان ويدخنان سجائر ذات (فلتر) وهما يتجاذبان أطراف الحديث ويتبادلان الابتسام هادئين وادعين، بيد أنني لم ألق إليهما بالًا ورحت أحتسي وأنا فيما يشبه الحلم والعجب مما اعتراني وغيرني ومما قد يحدث لي.. لكنني رأيت أن تلك الفتاة الجالسة مع الشاب إلى المائدة كانت حسناء بمعنى الكلمة، ولكنّها أبعد ما يكون عن صورة الفتاة المبتذلة الرخيصة التي تثير الغرائز الجامحة.. كانت متناسقة القوام مليحة الوجه باسمة الثغر رخيمة الصوت.. وما لبث جليسها الشاب الذي كان وجهه مائلًا عني في الناحية المقابلة أن انثنى لينظر إلى الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط، وسرعان ما عرفته، وسرعان، ماعرفني.. كان بيتر، أحد الرفاق الثلاثة من عهد الأيام السالفة عندما كنا أربعة: جورجي، وديم، وبيتر، وأنا.. وقد بدأ بيتر الآن أكبر سنًا وإن لم يتجاوز التاسعة عشرة وكان له شارب خفيف، وكان مرتديًا بدلة عادية وقبعة فوق رأسه..

قلت له: حسن، حسن، حسن يا صاحبي!.. منذ وقت طويل لم نرك!..

فقال: أليكس الصغير؟.. أليس كذلك؟..

فقلت: لا سواه!.. مضت مدة طويلة طويلة طويلة منذ تلك الأيام الحلوة الماضية!.. والآن فان جورجي تحت التراب كما أخبروني، وديم شرطي وحشي، وهأنذا وأنت!.. ماهي أخبارك أيها الزميل القديم؟..

فقالت له فتاته متضاحكة: أن كلامه عجيب، أليس كذلك؟..

فقال لها: هو صديق قديم.. اسمه أليكس..

والتفت إليّ قائلًا: اسمح لي أن أقدم لك زوجتي..

انفرج فمي عن آخره، وقلت: زوجة؟.. زوجة.. زوجة؟.. آه، كلا... هذا لا يمكن!.. أنت

أصغر كثيرًا من أن تتزوج، يا صاحبي!.. مستحيل!.. مستحيل!..

التي قال أنها زوجته وقالت له: هل تعودتما أن تتكلما هكذا أيضًا؟..

فقال بيتر باسمًا: حسن.. إن سني تقارب العشرين، وهي سن تكفي للقيد.. وقد تم ذلك منذ شهرين.. أمّا أنت فكنت صغيرًا جدًّا، ومقدامًا!..

فقلت ومازلت في دهشتي: لا بأس.. هذا شيء لا يمكن ابتلاعه بسهولة!.. بيتر متزوج!؟.. حسن!.. حسن!.. حسن!..

فقال بيتر: لنا الآن شقّة صغيرة... وأنا أنال مرتبًا صغيرًا في شركة التأمين البحري، لكن الأحوال سوف تتحسن، هذا مؤكد وجورجينا هنا..

فقلت له وما زلت فاغر الفم: ما هذا الاسم؟..

فأجاب بين ضحك زوجته: جورجينا زوجتي تعمل أيضًا.. على الآلة الكاتبة.. ونحن نتعاون لتدبير أمورنا..

لم أستطع يا إخواني أن أرفع بصري عنه حقيقة!.. هكذا كبر بسرعة، وتماشى صوته مع تقدمه في السن!.. بينما مضى يقول:

- يجب أن تحضر لرؤيتنا في وقت ما.. أما أنت فإنك ما زلت تبدو أقرب إلى صغر السن، على الرغم من التجارب الرهيبة التي مررت بها.. نعم، نعم، نعم.. إننا قرأنا كل ما كتب عنها.. لكنك ما زلت مع ذلك صغير السن..

فقلت: ثمانية عشر عامًا.. أو تزيد قليلًا..

فقال بيتر: ثمانية عشر عامًا؟.. هل كبرت إلى هذا الحد؟.. لا بأس.. الآن لابد لنا من الانصراف..

ورمق جورجينا هذه بنظرة محبة وضغط بإحدى يديه على يدها وبادلته نظرته بمثلها يا إخواني!..

وقال بيتر وهو ينثني نحوي: نعم.. نحن ذاهبان إلى حفلة صغيرة عند جريجز..

فقلت: جريجز؟!

فقال بيتر: آه.. آه.. طبعًا أنت لا يمكن أن تعرف جريجز.. إنه ظهر بعدك - في فترة غيابك.. هو يقيم حفلات صغيرة، معظمها تقوم على ألعاب الكلمات وبعض الشراب الخفيف.. لكنّها لطيفة جدًّا، ومبهجة جدًّا.. ثم إنها غير ضارة، إذا فهمت قصدي..

فقلت: مفهوم.. غير ضارة.. مفهوم.. مفهوم تمامًا..

وانصرف الاثنان إلى حفلهما الصغير عند جريجز هذا، وبقيت وحدي مع الشاي الذي بدأ يبرد الآن، متفكرًا متعجّبًا..

ربما كان هذا هو الواقع: أعني أنني كبرت بالنسبة إلى تلك الحياة التي كنت أعيشها والأسلوب الذي كنت انتهجه يا إخواني لقد كنت الآن في الثامنة عشرة، أو جاوزتها بقليل.. إن الثامنة عشرة لم تكن سنًا صغيرة.. ففي الثامنة عشرة كتب (فولفجانج أماديوس) سيمفونيات وكونشرتات وأوبرات وموشحات وغيرها كثير من تلك الموسيقى السماويّة.. ثم هناك (فيلكس م.) برائعته في افتتاحية (حلم منتصف ليلة صيف).. وهناك غيرهما كثيرون.. ثم هناك ذلك الشاعر الفرنسي الذي دبج أروع شعره وهو بعد في الخامسة عشرة.. واسمه آرثر على ما اذكر.. آه يا إخواني!.. إن سن الثامنة عشرة لم تعد تلك السن الصغيرة.. لكن ما الذي يتعين عليّ أن أفعله؟

لقد راحت تتراءى لي بعد خروجي من مقهى الشاي والقهوة إلى الظلام الشتوي القارس رؤى كالتي تتعاقب في رسوم (الكارتون) المصورة في الصحف. فها هو ذا محدثكم المتواضع أليكس عائدًا إلى بيته بعد العمل يجد عشاءً ساخنًا طيبًا، وها هي ذي فتاته ترحب بعودته وتمنحه مودة الزوجة الحانية!.. لكنني لم أستطع أن أتبينها يا إخواني لم أستطع أن أفكر من ستكون يا ترى.. غير أنني تملكتني تلك الفكرة القوية المفاجئة بأنني إذا دلفت إلى الغرفة المجاورة لهذه الغرفة التي ينتقد فيها لهب المدفأة والعشاء الساخن معد فيها على المائدة، فإنني واجد فيها من أريد حقًّا!.. ثم تلك الصورة الفوتوغرافية للطفل الرضيع المقصوصة من الجريدة هنالك ولا شك سيكون في غرفة أخرى ذلك المهد الصغير الذي يرقد فيه الطفل الضحوك هانئًا وداعًا.. طفلي، وابني!..

لم أتمالك أن صحوت من تأملاتي شاعرًا بفراغ سحيق في داخلي مندهشًا مما اعتراني.. لقد لمست ما هو حادث لي يا إخواني.. أنني كبرت حقًّا!..

أجل!.. هذه هي الحقيقة.. لابد أن يذهب الشباب ويولي.. إنّما الشباب لا يعدو أن يكون مثل حيوان.. لا.. إنه مثل تلك اللعب التي تراها تباع في الشوارع، تمثل أشخاصًا صنعوا من الصفيح وزودوا بزنبرك ومفتاح خارجي تملؤه بيدك، فينطلق في خط مستقيم ويصطدم بالأشياء وهو لا يملك لنفسه وقفًا ولا حيلة له فيما يفعل... أن صغر السن هو أقرب شبهًا بتلك الآلات الصغيرة!..

ابني!.. ابني!.. عندما يكون لي ابن فإنني سأشرح له كل هذا حينما يكبر إلى الحد الذي يجعله يفهم وغير انني أعرف أنه لن يفهم، أو لن يريد أن يفهم بتاتًا، ويقبل على فعل كل الأشياء التي فعلتها.. نعم.. وربما حتى على قتل عجوز مسكينة ترعى القطط، وقد لا أستطيع وقفه عند حده وربما لا يستطيع أيضًا أن يوقف ابنه هو عند حده يا إخواني... وهكذا تمضي الأمور على هذه الوتيرة إلى نهاية الدنيا، دورانًا ودورانًا لا ينقطع، وكأنما هو القدر الغلاب يدير برتقالة دورانًا مستمرًا دائبًا، دون أن يكون لها حول ولا قوة في يديه الهائلتين!

لكن قبل هذا كله يا إخواني: لابد من البحث عن تلك الفتاة التي تكون أمًّا لهذا الابن.. لابد أن أبدأ هذه المهمة من غدي.. لكي تكون بمثابة فصل جديد استهل به ما أريد..

وهذا هو ما سيكون يا إخواني وأنا أقترب من نهاية هذه القصة.. لقد كنتم في كل مكان مع صديقكم الصغير أليكس، تعاونون معه، وقد شهدتم بعض نماذج الشخوص الملتوية التي كانت حربًا على صديقكم أليكس العتيد.. وكل ذلك لأنني كنت حدثًا غريرًا.. أما الآن وأنا أختتم هذه القصة يا إخواني؛ فإنني لم أعد صغيرًا بعد؛ ولن أكونه قط، فإن أليكس قد انتقل إلى مرحلة الكبر.

إنني مقبل الآن يا إخواني على عهد جديد مستقلًا بكياني، إلى حيث لا يمكنكم صحبتي بعد..

وغدًا سيكون مثل الزهور المتفتحة، والثمار اليانعة في التربة الخصبة، والأنجم اللامعة، والقمر العتيد الساري في عليائه، وفيه يضطلع صديقكم أليكس بالتماس شريكة لحياته، في دنيا غير دنيا المعاناة الرهيبة التي استهدف لها وامتحن بها.. وهكذا أودعكم يا إخواني وداعًا قوامه الشكر والامتنان، راجيًا منكم حسن الذكر والدعاء بالتوفيق لصاحبكم أليكس صديقكم القديم.

تمـــت

هذه الرواية

هي: أشهر رواية في الأدب الإنجليزي المعاصر.

وهو: أحد أهم كتاب الرواية، ليس في انجلترا بل في جميع أنحاء العالم، امتزجت ثقافته بالحضارة الإسلامية والغربية والرؤية الثاقبة للواقع الراهن وعالم الغد..

لذا جاءت روايته البرتقالة الآلية معبرة عن سيادة روح العنف في العالم المعاصر، واعتبرت نموذجًا مجسدًا لما يدور في هذا العالم.

جرائم تهتز لها الأبدان، يرتكبها أليكس ضدّ الأبرياء من المواطنين، وجرائم أخرى مشابهة ترتكبها السلطات ضد أليكس عندما أجريت له عملية مسح مخ..

وعندما أخرجت السينما العالمية هذه الرواية في فيلم عام ١٩٧٢ منعته دول عديدة لما يتضمنه من مشاهد عنف وجنس تقشعر لها الأحاسيس.

«البرتقالـة الآلـيـة»

رواية مجنونة.. لكاتب عاقل جدًّا..

وهي من أكثر الروايات مبيعًا في العالم

المحتويات